المسلمون علماء وحكماء

تأليف

دكتور حسن الشرقاوي

مؤسسة
مختار
للنشر والتوزيع
القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٩٨٧

الطبعة الأولى
١٩٨٧

المقدمة

لقد ولد الاسلام عملاقا ، ولم تمر أكثر من مائتى سنة على ميلاده إلا وأصبح المسلمون يقفون على أحوال العالم ، ويتصدرون باعتبارهم الأئمة على مفاتيح جميع الفنون والعلوم .

لقد وصف أحد المستشرقين نهضة المسلمين فى عصورها فيقول [(1)] :

« ولد الاسلام فى حى مجهول بمكة ولم يكد يخرج منها حتى غزا الشرقين الأدنى والأوسط فى سرعة مدهشة ، ثم تابع المسيرة فوصل إلى الأندلس ، ثم إلى حدود الصين عبر ايران .

وكانت آخر نقطة وصل إليها الاسلام هى بودابست ، حيث لاتزال مقبرة جل بابا بطرازها التركى على ضفاف الدانوب تذكرنا بأن المسلمين وصلوا حتى البقعة النائية .

وكانت معجزات هذا الزحف أن انشأ العرب امبراطورية عالمية ، ولم يكتفوا بنشر لغتهم فى أرجاء العالم ، بل اكتسبوا العلوم الانسانية واستفادوا بها ورفعوا مستواها . .

ولقد انشئت فى القرن السابع الميلادى الأسس السياسية والاقتصادية للامبراطورية العربية العالمية .

وفى القرن الثامن قامت الخلافة العباسية بخلق أعظم الحضارات فى التاريخ .

---

(١) راجع Edward Mcnall Burns. Western Civiliz ation P. 264.

وقد احتضن العرب جميع الأشياء فى الحضارتين الرومانية واليونانية وبخاصة علومها الطبيعية ، واجرى العرب البحوث والتجارب الجديدة ، فتوصلوا بذلك الى أعظم النتائج فى علوم الطبيعة والكيمياء والجبر والعلوم الفنية . ولاتزال مئات من المصطلحات العربية الأصل تذكرنا بمجد العرب ، لقد كانوا تلاميذ اليونانين إلا إنهم مالبثو أن أصبحوا أساتذتهم .

ويستطرد Edward Mcnall قائلا : « لقد أقام المسلمون المراصد فى مختلف الأمكنة لدراسة علم الفلك » . ويقول دريبر ان المسيحين حولوا مرصد أشبيلية الى ميدان للساعة لأنهم لم يكونوا يعرفون للمرصد فائدة أخرى .

توصل العالم المسلم الخوارزمى وأصحابه فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى الى معرفة محيط الأرض وقدره بأنه يبلغ ٢٠,٠٠٠ ميل وأن نصف قطرها يبلغ ٦٥٠٠ ميلا ، ولاشك أن صحة هذه التقديرات تدعو إلى الدهشة حقا .

وفى الوقت الذى كانت هذه الأنشطة تجرى فى العالم الاسلامى كانت أوربا تؤمن بأن الأرض مسطحة (٢) .

لقد سبق العرب العالم كله وملأوا الدنيا حضارة وثقافة فأنشأوا الأسواق الحديثة بالأندلس وأناروا الشوارع وكانوا يبردون بيوتهم بأنابيب مياه اصطنعوها ونافورات ، بينما كان الأوربيون يتخبطون فى الوحل نهارا والظلام ليلا .

كانت البلاد الإسلامية مليئة بالمستشفيات والمكتبات العامة والمدارس التى يدرس فيها علوم الدين والرياضيات والفلسفة والطب ، كما كان الصناع والعاملون المهرة فى بغداد ودمشق ومصر وقرطبة يصنعون أجود المنتجات والأثاث من الخشب والحديد والفضة (٣) .

لقد كانت العلوم الفنية لا تقاس بشىء فى مواجهة فنون المسلمين المتقدمة ، ولم يكن هذا المستشرق العادل هو وحده الذى يبرز حقيقة عصور الأزدهار الاسلامية ، بل تابعه كثير من العلماء والمفكرين الغربيين الذين أظهروا للعالم

---

(٢) راجع : Edward Mcnall Burns: Western Civiliz ation P. 264.

(٣) انظر : المسلمون بين الماضى والحاضر وحيد الدين خان ص ومابعدها .

أن العلماء المسلمين هم الرواد الأوائل بحق دون أدنى شك فى ذلك ، وهاهو العالم بريفالت يقول : « تعلم روجر بيكون علوم العرب لذلك لا يحق له أو لأى أحد سواه أن يدعى أن بيكون هو مؤسس المنهج التجريبى ، فلم يكن بيكون سوى مقلد وداع إلى اكتساب العلوم والأساليب الاسلامية فى أوربا المسيحية ، ولم يكنْ هناك من سبيل للأوربيين للتوصل إلى العلوم الحقيقية سوى العكوف على علوم العرب » .

العالم بريفالت يقول : « تعلم روجر بيكون علوم العرب لذلك لا يحق له أو لأى أحد سواه أن يدعى أن بيكون هو مؤسس المنهج التجريبى ، فلم يكن بيكون سوى مقلد وداع إلى اكتساب العلوم والأساليب الاسلامية فى أوربا المسيحية ، ولم يكن هناك من سبيل للأوربيين للتوصل إلى العلوم الحقيقية سوى العكوف على علوم العرب » .

لقد كانت فلسفة ابن رشد سنة ١١٩٨ م خطر على المسيحيين حيث اعتبرتها الكنيسة خطرا على المسيحية ، خاصة وأنها كانت تحظى بقبول عام لدى المثقفين الأوربيين فحرم مجلس باريس سنة ١٢١٠ م دراسة وتدريس شروح ابن رشد لكتاب أرسطو « التاريخ الطبيعى » حيث سادت فلسفة ابن رشد الفكر الأوربى ، كما أنه وضع أساس النهضة الإيطالية حتى أن المؤرخ كلوتون يقول :

« ان ابن رشد أثر على عصره مثلما أثر دارون على فكر العصر الحاضر ، لكن لكى تصبح المقارنة بين ابن رشد ودارون صحيحة فإنه لابد أن تبقى الدارونية صامدة ضد الانتقادات لثلاثة مئة سنة قادمة وهو أمر مشكوك فيه » .

ولكنه للأسف الشديد لم تستمر العقلية الاسلامية فى انتاجها الفكرى والعلمى حتى عصرنا الحديث ، ولو كانت قد استمرت لبلغ تقدم العلوم الاسلامية بصفة خاصة ، والانسانية والعملية بصفة عامة ، شأوا عظيما أكثر مما وصلت إليه أوربا من تقدم مئات المرات ، ذلك أن المقلد ليس مثل الأصيل ، فالأصيل يعرف بطريق منهجه الواضح ماذا يجب عليه أن يفعل وما هدفه الذى ينشده ؟! أما المقلد فإنه وأن أحسن الصناعة إلا انه لا يستطيع أن يستفيد من الفطر السليمة ولا ينتج إلا ما تعلمه وعرفه . ولذلك فقد نجح الأربيون فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية والتطبيقية عندما انتهجوا نفس القواعد والأسس ،

وواصلوا التجارب التى أخذوها عن المسلمين . أما فى مجال العلوم الحياتية كالإخلاق والتربية والتشريع والاقتصاد وعلم النفس ، فإن أبحاثهم فيها لم تأتى بالجديد أو المستحدث الذى يمكن أن يقال انه تطور فى الفكر الإنسانى ، ونضرب لذلك مثلا بأن الأخلاق فى العصر الحديث وبرغم التقدم العلمى لا يمكن أن يقال انها تقدمت تقدما ولو يسيرا ، بل يمكن القول على العكس من ذلك تماما ان هناك نوع من الاندحار والأرتكاس فى أخلاق هذا القرن ، والذى ترتب عليه ارتفاع نسبة الجرائم وفظاعتها بالمقارنة لاخلاقيات القرون الوسطى أو عصور الجاهلية .

انه لمنْ المؤسف حقا أن نجد فى العصر الحديث تطورا عمليا وتكنولوجيا وانتكاسا فى مجال العلوم الحياتية ، فلم تستفد أوربا على الحقيقة من المسلمين إلا الجزء العلمى من حضارتهم فحسب .

لقد واجهت العلوم الأوربية العسكرية فى القرن السابع عشر ، واجهت قوة الاسلام العسكرية وانتهى الأمر بأن هزم المسلمين بصورة قطعية ، ثم مالبثت الدول الاسلامية العملاقة تتساقط الواحدة بعد الأخرى أمام الجيوش الغازية ، وأصبحت أعلام أوربا ترفرف على قلاع الاسلام فى آسيا وأفريقية ، وبدأ الاستعباد الاقتصادى ثم تلى ذلك الاستعباد السياسى ثم انتجت مصانع أوربا الآلية الأسواق فى العالم الاسلامى فقضت بذلك تماما على الصناعات والمنتجات اليدوية العربية .

ويصف العالم المجرى المسلم دكتور عبدالكريم درامانوس حالة العالم الاسلامى فيقول :

« تقهقرت صناعاته وظلت حالته الاقتصادية تعيش فى الجو الخيالى القائم على الاقتصاد الزراعى البدائى ، وحتى المدارس الاسلامية مازالت تدرس الكتب القديمة التى كانت تدرس من ألف سنة مضت » .

وظل المسلمون منذ القرن الثامن عشر يغطون فى نوم عميق وقد أصابهم الخمول والركود فى كل نواحى الحياة ، وعندما كان علم الكلام المسيحى يدرس على يد علماء مسلمين مثل كمال الدين بن يونس فى الموصل وعز الدين الأربلى فى دمشق وغيرهم ، وكان المسيحيون يتتلمذون عليهم لدراسة ديانتهم وعقيدتهم مثل التوراة والإنجيل لأنهم أفضل من العلماء المسيحيين أنفسهم .

ثم تغير الحال فى هذا العصر وأصبح المسلمون يرسلون بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية ليتعلموا على يد الأجانب من العلماء المسيحيين ، وقد أصبح العلماء والمسلمون يقلدون اسلامهم ، وكأنهم يقولون أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فأكثر الكتب فى عصور الانحطاط هى عبارة عن شروح جافة للكتب القديمة وتقليد عقيم لها ، فقد العالم المسلم روحه حتى أصيب بحالة من التسوس والبلاء (٤) .

لقد كانت صناعة الورق على سبيل المثال فى العصر العباسى صناعة مزدهرة لعدة قرون حتى جاء القرن الثامن عشر وأفتى أحد شيوخ الإسلام بأن المطبعة هى من عمل الشيطان .

لقد كان من العلماء المسلمين أئمة فى الطب والصيدلة ، اخترعوا لقاحات لكثير من الأمراض ، ثم يأتى الوقت الذى ينظرون إلى لقاح الجدرى بنظرات الشك والريبة ، وينظرون إلى القضاء على الفئران والحشرات الضارة على أنها حيلة من حيل المستعمرين للدخول إلى بيوتهم والنيل من كرامة نسائهم ، ثم جاء الوقت الذى قيل فيه أن تعلم اللغة الإنجليزية مثلا هو تعلم للغة الشيطان ونسوا قول الرسول ﷺ « من تعلم لغة قوم آمن شرهم » لذلك حرمت دراسة اللغة الإنجليزية لمدة قرنين من الزمان . ولقد وصل الأمر الآن إلى أن تكون القاطرة علامة الغرب ويكون المغزل اليدوى رمز الشرق .

أننا مازلنا نطرح كلمات الغزو الاستعمارى والغزو الأوربى ومؤامرات الأوربيين على أنها هى كل شىء يجب أن تقابل به حضارتهم ، ونتفهم حيلهم ، لكن ذلك يعتبر مجرد دراسة سطحية للحقائق ، فإنه من المعروف أنه إذا اصطدمت فرقتان فيجب أن تجهز كل منها عدتها وعتادها لمقابلة الفريق الآخر . فالحرب خدعة والغلبة للذى ينتصر بدهائه ومكره ، ولا نعنى الهزيمة إلا الضعف والسذاجة وقلة الحظ من الذكاء والدهاء .

هذا هو حالنا ومادام الأمر كذلك فيجب أن نغير طريقة تفكيرنا إذا كنا جادين حقا للانتصار على التقدم الأوربى ، وأن نضربه فى مقتل ، وليتحقق

---

(٤) وحيد الدين خان المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل ص ١٤ .

لقد نادى كمال اتاتورك فى ١٩٣٨ بتقليد الغرب بإندفاع غريب ، ولم يكن هدفه الذى أوضحه سوى المسيرة نحو الغرب ، وأعدام الألوف من الناس فى سبيل هذه الدعوة ، ولم تكن لهم من جريمة سوى عدم تقبلهم للحروف اللاتينية وعدم رغبتهم فى ارتداء البرنيطة الاوربية ، وتقدمت فى تركيا حركة الترجمة للأعمال الأدبية إلا انها أهملت العلوم والتكنولوجيا التى هى سر نهضة الغرب ، وكأنهم عارضوا التعليم الفنى الذى هو سبب التقدم والرقى الأوربى . ومازالت تركيا حتى الآن عبارة عن مخزن للبضائع الغربية .

إن فكرة التقليد هى فكرة ليس لها صلاحية ولا كفاءة لإثبات وجودها ، فإن الواقع المر الذى يعيش فيه العرب اليوم يبين أنه حتى الآن لم تتقدم ولا خطوة واحدة ، فما دامت العلوم والفنون ليست غاية المسلمين فإنه لا يمكن أن نسبق الطائرة الغربية التى تسبق الصوت .

ليس الهدف إذن أن نلبس (البذلة) الافرنجية والبرنيطة الاوربية كما كان يدعوا إلى ذلك بعض المفكرين المسلمين ، إنما الهدف هو كيف نستخدم الاسلحة العصرية وننتجها محليا ونطورها حتى نهزم أعدائنا .

أن سبب هزيمة البلاد العربية واستعمارها ، بل والآسيوية أيضا إنما راجع إلى استخدام المدفع الحديث الذى يجهل استعماله الجيوش التى حاربت الإستعمار الأوربى الحديث .

لقد فقد العرب فى هذا العصر همتهم فى تطوير العلوم العملية التى كانت فى البداية من أسباب نهضتهم وتطورهم العظيم عندما أناروا العالم بها فى ظلام العصور الوسطى ، فالعرب هم الذين أخترعوا الساعة لأول مرة فى القرن السابع وبرغم ذلك فإنهم الآن لا ينتجوها ، بل ربما لا تعرف أكثر الدول العربية صناعة الساعات

لقد انتقل هذا الفن الذى كان معروفا فى دمشق وبغداد فى عصر الرشيد ، انتقل هذا الفن فى صناعة الساعات وتطور فى كثير من البلاد الأوربية .

لقد استخدم العرب فى الأندلس المطابع المصنوعة من الخشب قبل وقت طويل من ظهور مطبعة كاكستون فى القرن الخامس عشر ، إلا أن هذه المطابع لم تتطور أكثر من مرحلة (الإكليشهات) ، وحكم الأتراك أجزاء كبيرة من

ذلك فلابد أن نتفوق عليه علما وقوة ودهاء أما الكلام عن المؤامرات وحيل الأعداء فهذا لا طائل من ورائه ، إلا إذا كان هدفنا فضح أساليبه فحسب .

كان الانتصار دائما للعرب حتى القرن الثامن عشر الذى انتهى بهزيمة الاسطول التركى فى الهند ، وتمكنت الشعوب الغربية بعد ذلك من أخضاع معظم بقاع العالم الاسلامى لسطوتها [٥] . ونحن لا نشك أن هناك حركات مقاومة ضد الإستعمار الغربى ، وهناك تضحيات عظيمة كان من ثمارها استقلال كل البلاد الإسلامية فى آسيا وأفريقية ، إلا أن الاستعمار الغربى مازال قادرا على أحداث الانقلابات والمؤامرات فى البلدان الاسلامية ، ودفع هٰذه البلدان إلى التطاحن فيما بينها وهذا راجع إلى التفوق الأوربى العسكرى والعلمى والصناعى ، وما المعاهدات التى تعقد إلا أسلوب جديد للاستعمار يتخذ أشكال مثل التبادل التجارى والمساعدات الاقتصادية ومعاهدات الصداقة وغيره .

لقد تعلم الاوربيون لغتنا وعلومنا فى العصور الوسطى لكى يحاربونا بها ، ولقد نجحوا إلى حد كبير فى ذلك ، ونحن الآن نقلد العلوم والفنون الغربية لا لشىء إلا أن نتمسح بهم ، ويقال عنا أننا متحضرون مثلهم ، وهذا هو الفارق الكبير الذى ترتب عليه أننا لا نعرف إلا النذر القليل من قشور الحضارة الغربية ، ولم نتعرف على الصناعات الأوربية الحديثة والعلوم العملية والتطبيقية التى هى السبب الحقيقى وراء سيطرة الغربيين ، وطغيان المستعمرين وقوتهم ، وقد نتج عن ذلك نكوص المسلمين واندحارهم نظرا للتفكير الخاطىء فى السلوك والعمل .

لقد كان المسلمون من ألف عام مضى أئمة العلم والفن عندما كان يرزح الاوربيين فى الجهل والفقر والمرض .

ولقد حاول الاوربيون منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر التصدى للمسلمين وبدأوا حربا طاحنة بينهم استمرت لقرنين كاملين وهى الحروب الصليبية التى انتهت بفشل الأربيين فى تحقيق أى من أهدافهم .

---

(٥) وحيد الدين خان ـ المسلمون بين الماضى والحاضر ص ١٥، ١٦ .

لكن الأوربيون لم يفقدوا عزيمتهم ولم ييأسوا ، فلقد علموا أن سبب انتصار

المسلمين هو تقدمهم فى العلوم والفنون المختلفة ، وعلى سبيل المثال فقد كان الجندى المصرى يستخدم فى ذلك الوقت سهاما نارية مستخدما المنجنيق ، وعندما كان يطلقها يفر الجندى الفرنسى معتقدا أن هناك أفاعى نارية طائرة تنطلق من معسكر المسلمين ، فلم يكن الفرنسيون يعرفون شيئا عن تلك الأسلحة ، وكل ما كانوا يعرفونه هى الأسلحة اليدوية القديمة ، ويتبدل الحال اليوم ، ويفاجأ المسلمون فى أى بلد متخلف بالصواريخ والقذائف الحديثة التى تنطلق عابرة مئات الأميال لتقذف معسكراتهم فى أى لحظة من اللحظات ، كما يهاجمون بالطائرات التى هى أسرع من الصوت ، فكما تعلم الأوربيون من قبل علوم المسلمين لينتصروا عليهم بنفس اسلحتهم وفنونهم ، فإن على المسلمين اليوم أن ينتبهوا إلى نفس التفكير ويحاربوا الأوربيين بنفس أسلحتهم وعلومهم وفنونهم لينتصروا عليهم ، ولا مجال لهم إلا بالتمسك بعقيدتهم وقوتهم الروحية كما تمسك الصليبيون من قبل بمخططاتهم فى تشويه حقيقة الإسلام . لقد نجحت حركات التبشير الصليبية فى تحريف الحقائق عن الشريعة الاسلامية السمحاء والدين القيم ، ونجحت أيضا فى بلبلة أفكار المسلمين عن تاريخهم وامتلأت الكتب بالأساطير والخرافات والأباطيل عن الاسلام والمسلمين .

لقد كان يدعو بعض الأوربيين المحافظين إلى خطورة غزو الأفكار الاسلامية إلى المسيحيين فى القرن الثانى عشر والثالث عشر حتى أن روجر بيكون العالم الانجليزى الشهير عندما أعلن وجوب دراسة اللغة العربية لأهميتها العلمية ، صرخ فى وجهه العلماء قائلين : لقد أصبح بيكون عربيا أى أنه أصبح مسلما ، لكن مع ذلك أزدهرت الحركة الداعية لدراسة علوم المسلمين وأجتهد الأوربيون فى طلبها واجتهدوا فيها وسخروا الطبيعة لأبحاثهم ودراساتهم ، الأمر الذى ساعدهم على إلحاق الهزيمة فيما بعد بالمسلمين ، ثم بعد ما تقدم الغربيون واستخدموا العلوم العربية فى بناء صرح حضارتهم ، استعبدوا العالم كله أما المسلمون الآن بعد أن تعلموا علوم الغرب وفنونه لم يضيفوا حتى الآن إلى ثقافتهم شيئا جديدا بل أصبحوا مجرد نقلة يقلدون . أو عبيدا لأفكار العرب وتقاليدهم .

الشرق الأوسط لكنهم لم يهتموا بالطباعة من قريب أو بعيد .

وأخذ الأوربيون هذه الصناعة وطوروها ، وأصبحت المطابع تخرج المئات من الكتب ، لكن الأتراك برغم علمهم لم يتحركوا للاستفادة من تطور فن الطباعة عند غيرهم ، وربما يرجع ذلك الى اعتقاد بعض الأتراك كما يقول أحد المؤرخين (٦) أن الأتراك اعتبروا طباعة آيات القرآن تدنيسا خوفا من أن تقع هذه الأوراق تحت الاقدام ، أو ترمى فى القمامة .

ان الأسباب الحقيقية لانتكاس وأندحار الأمة الاسلامية إنما الاهتمام بالبطولات الكلامية التى يخوضها الخطباء والكتاب مثلما يحدث الآن فى الأمة العربية فيقولون :

« أن فلسطين تحتاج الى صلاح الدين الجديد ليحررها » .

وهم يعتقدون خطأ أن هذه العبارة معناها أنهم أوفوا الموضوع حقه لكن هذه المعالجة ناقصة ، فميلاد صلاح الدين مرة أخرى لن يحل القضية ، إنما الحل يكون باعداد الجيوش واعلان الجهاد وتقوية القلوب والإمداد بالأسلحة الحديثة وتزويد المجاهدين بكل ما يحتاجونه من عدة وعتاد ، هكذا انتصر صلاح الدين وليس بالخطب التافهة ولا بالشعر والأغانى ، إنما بالفهم الصحيح والعقل السليم وهكذا يمكن أن ترد الصاع صاعين عندما نملك القوة نحقق العزة للمسلمين .

---

(٦) وحيد الدين خان ـ المسلمون بين الماضى والحاضر ص ٣١ ، ٣٢

الباب الأول

مفهوم العلم فى الاسلام

١

١ ـ المعرفة والعلم والايمان .

لم يعطل الدين الاسلامى العلم ، وإنما على العكس من ذلك تماما أيد العلم فى كل مناحيه ، والآيات القرآنية شاهدة على ذلك ، إذ تخلق المناخ المناسب للروح العلمية ، وتشجع النفس المؤمنة للبحث والدرس والتأمل ، وتطلق العنان لتقبل العلم من ناحية ، ولتبليغه وتطبيقه من ناحية أخرى .

ومن جانب آخر فان العلم يشهد أن الوحى حق ، وأن القرآن الكريم هدى للعقل وآياته تحض على تدعيم الملاحظة والمشاهدة والتجربة العلمية .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات » المجادلة : ١١ .

فهناك أنسجام بين الإيمان والعلم فكل يدعم الآخر ويؤيده ، ولا سبيل فى النظرة الاسلامية الى القول بانفصال العلم عن الدين ، وهذا وارد فى كلام الله الذى لا تبديل لكلماته ولا تحويل :

« وقال الذين أوتوا العلم والإيمان » الروم : ٥٦ .

ولقد عاون ذلك التزواج بين الايمان والعلم إلى ظهور المنهج التجريبى لدى المسلمين وقد عمل المسلمون على التأمل والتجربة والقياس مقتدين بحث القرآن لهم على استخدام أدوات المعرفة التى هيئت للانسان من عقل وحواس :

« ولا تقف ماليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » الاسراء : ٣٦ .

وبهذا يكون الانسان مسؤولا بالكلية ، إذ عليه أن يستخدم أدوات المعرفة التى خصه الله بها من سمع وشم وبصر وذوق ولا يجوز أن يتصرف بغير علم أو يجنح عقله ويتبع غيره فى عقائدهم وآرائهم أو علمهم بغير علم أو هدى :

يقول المفكر فردريك البرت سانج (١) :

« أن العرب ينبغى أن يعدوا المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية بالمعنى الذى نعنيه اليوم بإستخدام هذا اللفظ ، فالتجربة والقياس هما الأداتان الهائلتان اللتان استخدمهما العرب وشقا بهما طريق التقدم ، وبذلك ارتفعوا إلى مكانة تقع بين ما أنجزه اليونان فى فترتهم الاستقرائية القصيرة ، وما أنجزته العلوم الطبيعية فى العصر الحديث » .

وإذا كان القرآن الكريم لم يأت بطريق مباشر لا بعلم الجبر ولا بالحساب العشرى ، وهما العلمان اللذان ابتكرهما العرب ، والذى لولاهما لم يصل التقدم التكنولوجى الحديث إلى ما وصل إليه ، إذا كان القرآن الكريم لم يأت بهذين العلمين بطريق مباشر ، إلا أنه أتى بالمناخ العقلى الجديد الذى أتاح للعلم أن يتطور هذا التطور .

وكما سبق الاشارة فان هناك آيات كثيرة تحث على طلب العلم والتعلم ومعرفة الحق والحقيقة ، ولقد وردت كلمة « علم » ومشتقاتها فى القرآن الكريم ما يزيد على السبعمائة وثمانين مرة وهذا يدل على اهتمام بالغ بالعلم نظرا لأن العلماء هم الخاشون لله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر : ٢٧ .

والعلم بهذا المعنى أنه العلم بالشيء كثمرة للخبرة ، ومعرفة الشيء هو الوقوف على خصائصه وهو فى الاصطلاح مجموعة من الحقائق المصنفة والمحققة فى فرع من فروع المعرفة .

ولقد فهم العلماء المسلمون هذا المعنى للعلم لذلك قدموا للانسانية تراثا علميا فاخرا ـ ابان إزدهار الحضارة الاسلامية ـ مؤسسا على المشاهدة ·الاستقراء والتحقيق والتصنيف .

---

(٧) تراث الانسانية مجلد ٣ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٢ .

وقد تسلمت أوربا هذا التراث الاسلامى العظيم وسارت به وهى تحمله فى دقة وحرص شديدين حتى أنتجت بفضله هذا التقدم المادى الهائل واستطاعت أخيرا أن تهبط على سطح القمر لأول مرة فى التاريخ عام ١٩٦٩ .

لكن برغم هذا التقدم الذى يؤسس على تطبيق النظريات العلمية فى المجالات المختلفة فان هذه النظريات تحتاج دائما إلى مراجعة مستمرة والموقف العلمى يقتضى الاستعداد الذهنى لذلك .

وكما تعلمنا من أساتذتنا قولهم « النظريات العلمية صحيحة مالم يثبت لدينا أنها فى خطأ » .

ولكى نفسر هذا القول فانه يتوجب علينا أن نعلم أن المنهج التجريبى الى بمقتضاه نصل إلى النظرية العلمية ، هذا المنهج يعتمد أولا وأخيرا على التجربة والقياس بمعنى أن أحكامه تستقى من الأدراك الحسى والإدراك العقلى مادانها ومعلوماتها ، فاذا أخذت هذه المعلومات بجهل أو بهوى أو عن طريق الوهم أو الظن فلن يتوافر لها الصدق وبذلك تخطىء وتصيب .

ومن ثم فان النظريات العلمية الحديثة ليست خلقا من عدم - كما يزعم الماديون - ولا هى أبداعا مفردا - كما يدعى أصحاب الحس - إنما هى كشف الأشياء الخفية فى الكون واستجلاء للعلاقات الغامضة فى السنن والناموس الإلهى .

ولا يزيد البحث والتأمل فى هذا السنن عن كونه تجاريب يجريها الباحث على المواد المتاحة له ، ومحاولة لإيجاد العلاقة بين هذه المواد مستهدفا الإفادة منها فى حقل من حقول المعرفة .

والتجارب معرضة للفشل كما انها يمكن أن تنجح أيضا ، لكن الاقتصار على هذا النوع من المعرفة ألا وهى المعرفة التجريبية دون المعارف الأخرى التى تعتمد على منهج علمى يخالف ما يراه العلماء الغربيون المحدثون ، أن الاقتصار على هذا المنهج يعوق مسيرة التقدم الإنسانى ، حيث ينجح فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية والتطبيقية ، ويفشل تماما فيما يتعلق بالعلوم الحياتية فضلا عن الدين والايمان .

لذلك فاننا نطرح بعض المعارف على سبيل التمثيل لا الحصر منها [٣] :

١ - المعرفة الباطنية والمعرفة العقلية .
٢ - المعرفة التجريبية والمعرفة التصورية .
٣ - المعرفة الايجابية والمعرفة النظرية .
٤ - المعرفة الحدسية والمعرفة التأملية .
٥ - المعرفة الرمزية والمعرفة الصحيحة .
٦ - المعرفة الجماعية والمعرفة الفردية .

وجملة تلكم المعارف تسعى إلى خدمة الإنسان عقليا وروحيا وماديا وسلوكيا ، إذ تمكنه علاوة على غزو الطبيعة واستجلاء غوامضها فضلا عن إقرار الحقائق التى يجدر بالانسان أن يصدق بها ويسلك طريقه بلا تردد وفق مبادئها .

والمعرفة فى النظرة الإسلامية مقترنة تماما بالإيمان والعمل ، فإذا كان العمل سعيا وسلوكا وتطبيقا للامكانيات المتاحة ، فان الايمان إذعان للحقائق وإعتراف بها فهو إصرار وإقرار وإقتناع وتصديق . . ومن هنا كان العلم والإيمان مرتبطين تمام الارتباط بالمعرفة ، فكلاهما هدف من أهدافها إذ تحتاج المعرفة دوما إلى اليقين وتجده فى الإيمان ثم أنها تحتاج دائما إلى الكسب والفاعلية واستغلال الإمكانيات وهذا نجده فى العمل .

وإذا كانت المعرفة أهم من العلوم حيث أنها تشمله ، فلا تصادم - إذن - بين العلم والإيمان بل هما طريقان متوازيان نحو الحق والصدق والخير ، فإذا تعاون العلم مع الإيمان فتحا آفاقا جديدة للمعرفة ، وتوصلا إلى التغلب على مشاكل الإنسان من فقر وجهل ومرض .

فالتقدم العلمى مطلوب للانسان إلا أن العلم وحده لا يكفى إن لم يكتمل بالإيمان ، فالإيمان لا يغنى عن العلم ، والعلم لا يغنى عن الإيمان ، بل هما مدرجان يسمو بهما الإنسان ليرى الكون أنضر وأبهى ، ولولاهما لبقى الانسان لا يتجاوز الطبيعة والحيوان .

---

(٨) راجع العلم والإيمان فى الإسلام - دراسات فى ندوة المولد النبوى بالقيروان عام ١٩٧٦ (بحث ص ٣١) .

لكن نظرة بعض العلماء الغربيين التى لا تسلم من التعالى والغرور ، قد أنحازت بغير حق - إلى جانب العلم باعتباره غاية فى حد ذاته ، وبذلك انكرت الايمان باعتباره شريكا للثقافة الإنسانية وطبعت مناهج التعليم كلها بالطابع العلمى البحت .

لكن هذه النظرة الضيقة لمفهوم العلم ، قد وجدت لحسن الحظ من العلماء الغربيين من يعارضها ، وفى طليعة هذه الدراسات جاء كتاب « أبانيانو » عن مفارقات التكنيك (التقنية) يتخذ موقفا معتدلا فهو لا يضخم جانب على حساب جانب ، فلا هو يدعو الى نبذ التقنية ، ولا هو يغفل « الانسانيات » ، وذلك فانه يرى أنه لا مناص إذن للإنسان من أمرين يتكاملان ولا يتعارضان : أحدهما طبيعته الروحية الأساسية التى لا يجوز التفريط بها وإلا أضاع نفسه والآله التى صنعها وأستعد للسيطرة عليها ، والآخر الآله نفسها التى مازالت تقيده وتيسر له الرفاهية بالرغم من مساوئها ، وليس على الانسان أن يعتبر تلك الآله ألد أعدائه ، ولا سببا مباشرا أو غير مباشر فى انحلاله الروحى .

ان ربط العلم بالايمان هو هدف المنهج الاسلامى العظيم ، وقد انتصرت العقلية الاسلامية عندما التزمت بتطبيق هذا المنهج فكرا وعملا وسلوكا وجعلت إسلوبها فى الحياة الواقعية فى التفكير والإيجابية فى التعمير ، والحركة الدائبة فى كل تصميم وتطوير وعلمية النظرة إلى كل شيء فى هذه الدنيا من خلال ربطه بفاطر السموات والأرض العليم الخبير .

١

٢ - أصالة المنهج العلمى الاسلامى .

انطلق المسلمون وفى قلوبهم ذلك المشعل الهادى ليخرجوا من الظلمات إلى النور وهو يهتف فى نفوسهم :

« إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » (العلق : ١ - ٥)

وسمع المسلمون قول رسوله الكريم محمد ﷺ :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

فازداد سببهم فى التزود بالعلم ، والحث فى طلبه ، ولم يتركوا بابا من أبوابه إلا وطرقوه ، ولم يجدوا علما نافعا إلا وأفادوا منه ، وقد أيقنوا أن منزلة العلم وطالب العلم منزلة رفيعة لا يدانيها منزلة أخرى تأييدا لقول عز من قائل :

« شهد الله إنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »

(آل عمران : ١٨)

لقد ملك قلوب المسلمين الرجاء فى الله أن يكتبهم من الذين ذكرهم فى آياته الكريمة وهم العادلون فى العلم والعمل ، الذين يشهدون حقا وصدقا بوحدانيته تعالى وانفراده بالقدرة والعلم والخلق والتدبير .

ومن الرجاء فى وعد الله خوف من وعيد الله ، وخشية صادقة له تعالى بلا تكلف أو إصطناع :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر : ٢٨)

وأصبح للمسلمين منهجهم الواضح ، وتصورهم الجلى للحياة ، وفهمهم الرشيد لرسالتهم فى هذه الدار ، فالهدف مرسوم والغاية لا تحتاج إلى كثرة تأويل ولا جدال ، والنصوص القرانية تزكى العلم والعلماء وترفعهم مكانا عليا ، وتفرق بين العالم والجاهل تفرقة تظهر أن العالم فى السماء والجاهل على الأرض :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم » (المجادلة : ١١)
« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر : ٩)
« وقل رب زدنى علما » (طه : ١١٤)
« فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (النحل : ٤٣)

لقد ورد ذكر العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم ما يزيد عن ٧٨٠ مرة وهذا يدل على رفعة العلم ومقامه العظيم عند الله تعالى ، وأن القربى إلى الله إنما فى طلبه والحث عليه « والسعى من اجله ، يقول الرسول ﷺ :

« من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا إلى الجنة »
(أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة)

ولا أدل من حديث الرسول ﷺ فى تبشير العلماء بالمكانة الرفيعة فى قوله :

« العلماء ورثة الانبياء » (ابو داود والترمذى وابن ماجة)

إن الذى يخرج من داره فى طلب العلم فهو يجاهد فى سبيل الله ، فالطالب مجاهد والساعى إلى العلم النافع مجاهد :

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »
(الترمذى من حديث انس)

لقد حرر لاسلام العقل من الجاهلية حين حث على التأمل والتفكر فى الكون والتدبر فى خلق السموات والأرض ، فانطلق المسلمون للاستزادة من العلوم والمعارف ، وفصلوا بين الحقائق والأوهام ، وربطوا ربطا محكما وأصيلا بين الايمان والمعرفة ، وبذلك استقام التفكير لدى المسلمين ، ووضحت نظرتهم إلى العالم ، واستطاعوا أن يظفروا بكنوز العلم التى أودعها الله لعباده المخلصين ، وأصبح لهم برهانهم الساطع وحججهم القوية ومعرفتهم الحقة بالوجود والحياة والطبيعة من حولهم ، واتصف العالم المسلم بشمول نظره وعمق فهمه ، وصحة رأيه :

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »
(العنكبوت : ٤٣)

إن الأمم تختلف تماما فيما يتعلق بالأديان الأخرى ، فلقد بادر آباء الكنيسة والسلطات المسئولة بمعارضة تطور العلم واتخذت هذه السلطات إجراءات قاسية وعقوبات شديدة ضد العلماء الذين كانوا يعملون لتطور العلم ، ولم تكن هذه السلطات تعتمد على نصوص صريحة من الانجيل والتوراة فى معاداة تطور العلم ، ونفى العلماء وحرقهم وتعذيبهم ، أو على الأقل طلب المغفرة بتعديل مواقفهم والتماس العفو من البابوات .

واما فى الاسلام فإن القرآن الكريم يدعو إلى طلب العلم بل ويحتوى على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية وبتفاصيل دقيقة وواضحة تتفق تماما مع نتائج العلم الحديث ، ولا نجد مثلا لذلك فى التوراة والانجيل (٤) .

لقد تحدى بعض العلماء الغربيين النصوص القرآنية ، ومع اننا لا نتلمس للنصوص القرآنية مصداقا من النظريات العلمية ، حيث ان تلك النظريات قابلة للانقلاب والتغير رأسا على عقب ، ومع ذلك لم يستطع عالم واحد أن يثبت تعارضا بين النصوص القرآنية ومما تتوصل إليه النظريات العلمية من نتائج ، وكلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد وامتحنوه وجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم ، وبرغم ذلك فإنهم وجدوا أن القرآن الكريم صادق بذاته أبدا ، سواء أهتدى العلماء إلى الحقيقة التى يقررها فى ثنايا نصوصه أم لم يهتدوا . . . يقول الطبيب موريس بوكاى (٥) :

« لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن الكريم دهشتى العميقة فى البداية ، فلم اكن اعتقد بامكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فى البداية لم يكن لى أى أيمان بالاسلام . ولقد تطرقت إلى دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وموضوعية تامة » . ثم يستطرد قائلا بعد دراسته

---

(٤) موريس بوكاى ـ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٤

(٥) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ١٤ ومابعدها .

للقران الكريم :

لقد اذهلتنى دقة بعض التفاصيل بهذه الظاهرات وهى تفاصيل لا يمكن ان تدرك إلا فى النص الأصلى ، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس الظاهرات والتى لم يكن ممكنا لأى انسان فى عصر محمد ﷺ ان يكون عنها أدنى فكرة .

وأول ما يثير الدهشة حقا فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم النبات والتناسل الانسانى .

وعلى حين يكتشف فى التوراة اخطاء علمية ضخمة لا يكتشف فى القرآن أى خطأ ، ولقد دفعنى ذلك لأن أتساءل . لو كان كاتب القرآن بشرا كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح انه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟ . . ليس هناك أى مجال للشك أن نص القرآن الذى نملكه اليوم هو فعلا نفس نص القرآن الأول فما التعليل إذن ؟

ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا لذلك داجومير استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يختص ببعض الموضوعات .

إن الدعاوى التى تزعم أن محمدا ﷺ وقد استلهم تلك العلوم من العلماء العرب الذين كانوا يحظون بمكانة عليمة مرموقة وتقدم فى مجالات العلوم المختلفة . . إن هذه الدعاوى لا نصيب لها من الصحة .

فمن يعرف تاريخ الاسلام ويعرف ايضا ان عصر الأزدهار الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحق لرسالة الرسول محمد ﷺ . لن يسمح لنفسه أبدا باقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية ، فلا محل لافكار عقيمة من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصاغة بشكل بيِّن تماما فى القرآن لم تلق التأييد إلا فى العصر الحديث .

هذا شاهد صدق على أصالة المنهج العلمى الاسلامى ، وأنه من كلام فاطر السموات والأرض العليم الخبير ، وبرغم هذا فالقرآن الكريم لم ينزل ليعلم

المسلمين الطب والهندسة والعلوم ، بل نزل ليهدينا إلى الصراط المستقيم ، ويطهر نفوسنا من أرجاس الجاهلية ، ويشرع لأمور حياتنا وينظمها ، ويعرفنا بالحق فنتبعه وبالباطل فنتجنبه ، لكن القرآن الكريم مع ذلك يورد بعض التأملات في الكون والحياة والطبيعة ، وهذه التأملات لو امتحنت بمعايير العلم الحديث لثبت صحتها على الاطلاق ، ولا يستطيع أى عالم غربي أو شرقي أن يثبت أى خطأ فيها أو يأتي بما هو خير منها وها ما يثير دهشة العام والخاص على السواء . . .

فإن ما تثيره بعض الآيات القرآنية من قضايا وجودية أو جوانب علمية للقرآن الكريم تتصف بالمطابقة التامة لما توصل اليه العلوم الحديثة وأن لم تقف على عمق تلك المعاني القرآنية بعد ، نظرا لأنها تحتاج في دراستها إلى تخصصات عديدة وعلوم متعددة لا يمكن أن تتوفر لعالم واحد أو عدة علماء . . فالآيات القرآنية التي تثير قضايا علمية تحتاج لفهمها وتفسيرها تنوع شديد في المعارف ، وهذا يقتضي وقتا طويلا للوصول إلى إعماقها ، وحتى يصل العلماء إلى فهم النصوص القرانية تماما فإن ذلك يحتاج إلى مئات بل الآف اخرى من السنين وعند ذلك سيتبين انه الحق من عند ربك ومن أصدق من الله حديثا .

ο ο ο
ο ο
ο

١

٣ ـ منهج المسلم فى الحيـاة .

الفكرة درة فريدة كما يمكن أن تكون سماً زعافاً ، والله تعالى وهب الانسان العقل ليكون حكما بين الخبيث والطيب ، ويميز به بين الحق والباطل والصحيح والفاسد فى الأفعال والأعمال والسلوك . .

ولطالما فكر الانسان ودبر ، لكنه أصاب واخطأ ، تكشفت له بعض الأسرار فى النفس والعالم والحياة فطفق يعبر عن نجاحه فى استجلاء الغوامض وفض أسرار المجهول فى غرور واستعلاء . . .

لكن ما استطاع الانسان هتك حجابه من هذا الكون العريض الفسيح ، يعد من النذر القليل ، إلا أن الانسان مع ذلك يجسم أمر مستكشفاته ويضخم لنفسه قدراته ويبالغ فى تقييم ما توصل إليه من نتائج ومستهدفات . . .

إن الفكرة الجيدة بذرة طيبة تحتاج إلى الرعاية والاهتمام ، كما انه لابد أن تنشأ فى تربة صالحة لتترعرع ويكتب لها الخضرة والنماء ، والشجرة الطيبة تنبت طيبا باذن ربها وليس باذن زارعها وغارسها . . . وان كان هو وسيلة لذلك النبت الطيب ومستخلف فيه . . .

وينسى الانسان وما أكثر ما ينسى ، ويظن أنه المفكر والزارع والمبدع العبقرى عندما يصادف بعض النجاحات فيما بذره من بذور وما أثمره جهده من نتائج طيبة .

ويتملك الانسان الغرور والاغترار ويسعى إلى التباهى والافتخار ، ويزعم لنفسه الخلق والابداع ويتظاهر بالكمال والاقدار على السيطرة على الأفعال والأعمال . . .

ويجنح الانسان عن التعقل والصواب ويقطع العلائق بينه وبين خالقه ، ويدعى أنه القوى الذى لا يحتاج إلى المعاونة أو مساعدة الله ، فيدعو إلى الانفلات من العقيدة ، وتصور له نفسه الكذوب إمكانية التخلى عن الايمان ، وانه بمقدوره الانفكاك عن حظيرة الدين والاخلاق . . .

يطالب الآخرين بأن يستخدموا العقل وحده للوصول إلى حقائق الأشياء ، وأن ينبذوا الايمان بالغيب لأنه موضوع خارج عن مجال التفكير العقائدى السليم ، فالعلم الحق هو الذى يدخل دائرة العقل وحده فيستطيع أن يصدر براهينه وأحكامه على قضاياه ، وأما ما عدا ذلك فأوهام وأباطيل لا تخدم المعارف الانسانية . . .

ويتعصب ذلك المقيد داخل دهاليز العقل . ولا يقبل مناقشة تصورات ويتوهم أن من يخالفه الرأى ضعيف العقل ، عديم الفطنة ، عفن الفكر ، جامد الرأى لا يستحق منه أن يتنازل لمناقشته أو استيضاح موقفه . . .

وإذا ما تساءلت عما يقصده بالعقل والمنهج العقلانى أو العقلى صرخ فى وجهك واحتقر تساؤلك . . . وأجاب بصوت الواثق بأن المنهج العقلانى هو المنهج العلمى الحديث . . .

فلكى يكون الانسان عالما عليه أن يتبع ذلك المنهج دون تردد وإلا فقد الأرض الصلدة التى يقف عليها وتشتت به السبل وضاع بين المتناقضات . . . فالعالم الحق فى نظره من ربط نفسه بالعلم عن طريق العقل وإلا لفت الزمام وانقاد مع الخيال إلى الوهم والأساطير . . .

لكن هل بمقدور العقل العلمى أن يهدى الانسان إلى اليقين . ؟ أو بمعنى آخر هل المنهج العلمى الحديث يمكن أن يوصلنا إلى الحقيقة . . ؟ لو كان الأمر كذلك ما حدث بين الانسان والانسان اختلاف من أى نوع كان . . واستطاع كل باحث أن يكمل عمل الآخر . . ولتوصل الجميع إلى نفس البراهين والنتائج فى أبحاثهم ماداموا يستخدمون منهجا واحدا فى البحث والدراسة . . .

رب قائل ان النتائج التى توصل إليها العلم الحديث واحدة ، وأن العالم الانجليزى يمكن أن يتوصل إلى نفس النتائج التى يصل إليها العالم الروسى مادام كلاهما يتبع المنهج العلمى الحديث . . .

إلا أن هذا القول يحتاج إلى الإثبات ، فليس العلم يقتصر على الوقائع المادية فحسب كما يظن المدافعون عن المنهج العلمى الحديث . . .

فالمواصفات التى يستخدمها عالم انجليزى مثلا فى إنتاج مركب معين ، يمكن أن يستخدمها عالم روسى أيضا لتنتج نفس المركب . . . بحيث نستطيع أن نعمم هذه النتائج ونصفها بالصدق ، مادمنا نستخدم نفس الأدوات والمواصفات والظروف المتماثلة عند تطبيق التجربة . . .

وهذه التطبيقات تحظى بنجاح مماثل فى أى مكان آخر مادامت الظروف متماثلة عند إجراء التجربة . . .

لكن هذا الأمر لا يتعدى تطبيقات تختص بالأشياء فحسب ، وهذه الأشياء كما سبق القول متماثلة ، فالحديد هو الحديد والرصاص هو الرصاص ، والبوتاسيوم هو البوتاسيوم ، ومادامت هذه المواد متماثلة فى خصائصها ومواصفاتها فانها تخضع لنفس التأثيرات ويترتب على إجراء التجارب عليها نفس الآثار بلا تناقضات . . .

أما إذا تعددت تطبيقات علم من العلوم مجال الأشياء أو الوقائع المادية ، فإن الأمر جد مختلف ، إذ أنه لا يمكن أن نحصل على مواصفات محددة أو معينة كما قد فعلنا من قبل بالنسبة لانتاج مركب معين . .

فإذا كان هناك نجاحات يمكن أن نصل إليها فى مجال تطبيقات المادة بالنسبة للعلوم العملية ، فإن هناك خيبة أمل عندما نستخدم ذلك المنهج فى محاولة لتطبيقه على العلوم الحياتية . .

فالقضية إذن يمكن تلخيصها على النحو التالى :

« إن مجال تطبيقات العلوم الطبيعية يختلف عن مجال تطبيقات العلوم الحياتية » ولكى نمثل لذلك تمثيلا صحيحا ، فإننا إذا حصلنا على مواصفات معينة للمفاهيم عند تلاميذ مدرسة من المدارس الانجليزية ، وهذه المواصفات تشتمل على معتقداتهم وأخلاقياتهم وقيمهم ومثلهم العليا وطريقة تفكيرهم

وسلوكهم العملى . . فإذا أردنا أن نطبق تلك المواصفات على تلاميذ مدرسة أخرى فى روسيا فإننا لن نستطيع أن نقرر فى النهاية أن النتائج للتجربة التى تم لنا إجراؤها واحدة . . وإنما مما لاشك فيه سنصل إلى نتائج جد مختلفة ، وإذا كررنا هذه التجربة مرارا وتكرارا على مدارس أخرى مستخدمين نفس المنهج فإننا فى كل مرة سنحظى بنتائج تخالف تلك التى توصلنا إليها فى المرات السابقة . .

فما معنى ذلك إذن .؟ يبدو لنا من أول وهلة أن هناك قصورا فى المنهج العلمى . . ولا يمكن تعميمه فيما يتعلق بالأمور الحياتية ، إذ الانسان ليس مادة من المواد أو شيئا من الأشياء يمكن خضوعه لمنهج العلوم العملية والتطبيقية . . إذ الانسان شىء آخر فهو يفرح ويغضب ، يعصى ويتوب . . هو بالجملة شىء آخر غير المادة الصماء التى تخضع للاختبار وإجراء التجارب . .

إذن علينا أن نفرق بين تطبيق المنهج العلمى على الأمور العملية والمعملية وبين تطبيقات هذا المنهج على العلوم الحياتية التى يختلف الأفراد فيها عن بعضهم بل يختلف الفرد فى نفس المجتمع والبيئة والثقافة عن غيره من أبناء وطنه وجنسه وعقيدته . . .

لابد لنا إذن من منهج واضح يوفر لنا كل الامكانيات للوصول إلى الحقائق الثابتة فى مجال للعلوم الحياتية . . .

لابد إذن من منهج له خصائص وسمات فطرية شاملة عامة مرنة ميسرة فى التطبيق حتى تمتد لتنطبق على الأفراد مع اختلاف مشاربهم وأذواقهم وأفكارهم وتقاليدهم وبيئاتهم . . .

وهذا المنهج من الصعب صياغته وتقنينه ، إذ أن كل مشرع ومقنن ينظر بحسب ثقافته وعقيدته وبيئته ، فينظر من زاوية ويترك زوايا أخرى ، ومن جانب وينسى جوانب أخرى فنظرته إلى الأمور نسبية ، وخبرته إلى الموضوع الذى يريد أن يقننه ذاتية ، وفكره قاصر عن الوصول إلى منهج واضح يمكن أن يمتد ليطبق على الناس جميعا . .

فالمناهج الوضعية والنظم البشرية عاجزة فى البداية والنهاية عن الوصول إلى نتائج محددة تفسر السلوك الإنسانى أو تعطى أنموذجا متكاملا للرقى الأخلاقى

أو أساسا صالحا فى مجال التربية وعلم النفس والأخلاق . .

وما دام العقل الانسانى عاجزا عن إمداد البشرية بالمنهج الحياتى الصالح للتطبيق فإنه يتوجب على الإنسان أن يعرف هذه الحقيقة ويتجه بكليته إلى منهج الله الذى شرعه لعباده ليكون الأولى بالاتباع دون حاجة إلى تجريب مناهج متعددة ومتناقضة توصل الانسان إلى اليأس والقنوط . . .

إن المنهج الجدير بالاتباع هو منهج الاسلام إذ فيه ما يروى غليل الطالب إلى الحق والعدل والصدق ، ولا يحتاج هذا المنهج لاجراء التجارب للوصول إلى النتائج التى تخطىء كثيرا وتصدف نجاحا قليلا . . .

لقد وضع هذا المنهج رب العالمين العالم بنفوس عباده وما يصلح لهم وما لا يصلح لهم ، وضعه لكل الناس أبيضهم وأسودهم ، غنيهم وفقيرهم ، كبيرهم وصغيرهم ، فقواعده وأحكامه واضحة جلية لا تحتاج لكثرة تأويل لفهم فصوصها ونصوصها ، ولا للجاج واللحجاج والجدل الذى لا فائدة من ورائه غير الخيبة والخسران . إنه منهج واضح ربانى فطرى سليم ميسر للقلوب السليمة والنفوس المستقيمة التى تهدى إلى العدل . . .

إنه منهج الله وشتان بين منهج الله ومنهج مادون الله ، لذلك فمنهج المسلم الحياتى يتعلق فى تطبيقاته بالعلوم الحياتية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاقتصاد وغير ذلك من العلوم الحياتية . . .

وهذا المنهج هو بمثابة العروة الوثقى التى تربط بين أمة الاسلام مهما اختلفت أجناسهم ولغاتهم وزيهم وألوانهم وأشكالهم . . إنه ذلك النور الذى يضى قلب المسلم فيعرفه طريقه ويرسم له خطاه ، ويوضح له الحقائق ويبين له ما هو مقبول ومرفوض فى نظرة الدين ، وما هو حلال وما هو حرام من خلال الشريعة الغراء . . ويمكن به قلب المؤمن فلا يطيع هواه ولا تغلبه الشهوات ، ويقنع عقل المسلم فلا يستجيب للمناهج اللادينية الغربية منها والشرقية . . وعندما نرى هذا المنهج الاسلامى الحياتى مطبقا حقا وفعلا سنفخر بأمتنا حيث به ستعيش عصورا زاهرة جديدة . . .

١

٤ ـ حتمية الدين للفكر والسلوك والمجتمع .

يزعم أصحاب المناهج التجريبية أن التجربة هى وحدها الملجأ الوحيد الذى به تتحقق مطالب الحياة ، ويؤكدون على أن التجربة مادامت قد حققت نجاحا فى العلوم العلمية والتطبيقية فان نجاحها مؤكد ـ فى زعمهم ـ فيما يتعلق بعلوم الانسان الحياتية كالتشريع والنفس والأخلاق والتربية .

ولا غرو إن وجدنا بعض هؤلاء العلميين يفرض منهج العلوم الطبيعية الذى يعالج شئون المادة والحسيات ، يفرض هذا المنهج بطريقة تعسفية على العقيدة والنفس والأخلاق ، وبذلك يخرج لنا أطر جديدة كنتائج للتجربة للعمل بها باعتبارها حقائق لا ريب فيها ولا مجال للشك فى تطبيقاتها فى مجالات العلوم الحياتية .

ونحن إذا تصورنا الحياة الدنيا غفلا من الفطر السليمة فان ذلك معناه انحراف العقل عن الاستقامة وإسراف النفس فى الأهواء والشهوات وموافقة للغواية التى تحجب القلب السليم عن رؤية الطريق الواجب الاتباع .

ان العلوم المسخرة للانسان يشترك فى تحصيلها المؤمن وغير المؤمن ، فأن لها موازين توزن بها ، ومعايير تحكم بها على صلاحها وفسادها ، عند امتحانها بالتجربة العلمية والواقعية والمعملية . . .

أما القول بان هذه الموازين وتلكم المعايير هى نفسها صالحة على اصدار

الأحكام فيما يتعلق بالأخلاق والنفس والدين . فانه قول مردود ودعوى كاذبة وافتراء على الحق والحقيقة . . .

فمجال العلوم المادية والعملية والمعملية يتحدد فى الأشياء المحسوسة والملموسة وما له من طول وعرض وعمق وامتداد ، وباجراء التجارب عليها يمكن أن نصل الى استجلاء غوامضها والكشف عن علاقاتها وتبيان صلاحيتها فى تحقيق أهدافنا والوصول إلى غاياتنا .

أما إذا طبقنا هذه المناهج التجريبية على العلوم الحياتية فاننا سنصل فى النهاية إلى نتائج فاسدة تبعد عن الحق والعدل والعلم .

ذلك لأن النفس الانسانية لها جانبين أحدهما مادى والآخر روحى . والمادى ظاهر جلى والروحى باطن خفى ، فإذا أردنا أن نطبق ما هو تجريبى ومادى على النفس الانسانية ، فان نجاحنا لا يتعدى الشكل أو المظهر الخارجى دون أن يتجاوزه إلى الجوهر الداخلى .

إلا أنه لا يمكن الفصل بين جسم الانسان وروحه ، فان حقيقة النفس الانسانية ليست ترابية فحسب كما أنها ليست روحية فحسب ، إذ الانسان جماع بين المادة والروح فى كل لا تنفصم عراه الا بالموت .

ولذلك فان أى من التجارب المادية فى محاولة لاخضاع النفس لمناهجها هو طريق مسدود لن يوصل إلى أى نجاحات فى مجالات التربية والأخلاق والنفس .

وإذا بدا لنا أنه يمكن تطبيق مناهجنا الوضعية على الجزء الملموس والمحسوس من الانسان ، فان معنى ذلك أننا لا نخضع الانسان لمنهجنا وانما نخضع الجزء المادى فيه فحسب ، وبذلك نخرج الانسان عن دائرة البحث حيث لا يتمثل فيه من قريب أو بعيد .

يبدو لنا إذن أن تلكم المناهج التجريبية لا تصلح أساسا للتطبيق على علوم الانسان الحياتية التى تمتزج فيها روح الانسان مع مادته فى كل واحد . . ومن ثم فانه من المتعذر أن نصل إلى أهداف ناجحة مادمنا نتسمك بتلك المناهج العقيمة .

ولكى نتوصل حقا إلى منهج صالح للتطبيق فلابد لنا أن نطلبه من صاحبه الذى جعله يتطابق مع طبيعة النفس ، ووضعه ليكون صالحا لمعالجة شئون النفس بجزئيها المادى والروحى .

واذا بحثنا عن صاحب هذا المنهج فى التاريخ الانسانى وعبر القرون المتطاولة فاننا سنظفر فى النهاية بلا شيء : وسترجع صفر اليدين لو انحصر بحثنا فى المناهج البشرية والأنظمة الوضعية الانسانية .

فالانسان عاجز فى البداية والنهاية عن وضع منهج حياتى له صالح للتطبيق ، والنفس البشرية لا تستطيع وحدها أن تحقق لنفسها الأمن والسعادة فكيف يمكن أن تضمنها لغيرها ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

ان المنهج الذى يوصلنا حقا إلى السعادة والأمن فى الدنيا والآخرة يجب أن يكون صادرا من عقل كامل لا يصيبه العجز والخور ولا الضعف والهوى ولا الجهل والظلم . . وأين لنا أن نجد ذلك فى البشر وهم يحملون صفات وأوصاف الشهوة والجهل والترابية والأنانية .

لابد لنا أن نبحث عن هذا المنهج الواجب الاتباع عند فاطر السموات والأرض ، الخالق لكل نفس . الكامل القادر العالم الخبير ، وقد دلنا عليه وأرشدنا إليه وبين لنا شرعته ومنهاجه ، وأوصانا باتباعه . وأخبرنا بصلاحه فى الفكر والسلوك والتطبيق ، وأظهر لنا ان منهجه يواكب الفطر المستقيمة والعقول الرشيدة والقلوب السليمة .

وأنه تعالى يضمن لمن طبقه الأمن والسعادة فى الدنيا والآخرة متى كان عاملا به مخلصا فى اتباعه .

فالشريعة الالهية هى وحدها الصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وأنها حافظة للانسان من الكذب والافتراء والاغترار والقنوط . وأن المتبع لها يشعر أنه يسير فى الطريق الصحيح مهما وجد من عوائق ومتى لاقى من محن وصعاب . فمنهج الله لا بديل لهولانظير، ومن يحاول أن يفترى عليه فقد ظلم نفسه وكانت عاقبته الضلال المبين .

إن منهج الله خالد فطرى شامل صادق يشتمل على مطالب الحس ومطالب الروح ، يحوى كل ما يحتاج إليه الانسان فى مسيرة الحياة من أهداف وغايات .

لا يجعل النفس ضائعة ، وانما يغذيها بما يصلح لها بلا افراط أو تفريط . ويواكب حقيقة الانسان ويعمل على معاونته لبلوغ الكمالات الاخلاقية . . فهل يطلب الانسان أكثر من ذلك مرشداً ومعينا .

فالدين القيم حتمى للفكر والسلوك والتطبيق فى مجال العلوم العملية والحياتية وهو يربط برباط محكم الانسان والعلم والدين ، ويكمل بالقلب عمل العقل فى الانسان ، ويجعل القلب والعقل والحس فى انسجام دائم دون أن يفسد طبيعة النفس من روح وجسم .

فما أولى البشرية الآن ان ترجع إلى دين الله القيم وشريعته السمحاء لتعمل بها قبل أن تأتى الساعة وما الساعة منا ببعيد .

٥ ٥ ٥
٥ ٥
٥

٢

١ ـ الحضارة الاسلامية ومدنية العصر .

عندما نقدم النصيحة خالصة لوجه الله فلا يجدر أن نخشى الألم الذى يصاحبها ، وأن تراجعنا ووقوفنا خوفا من جرح شعور الآخرين أو التسبب فى آلامهم ، معناه أننا أطباء فاشلون يرتعد المبضع بين أناملنا وتضعف قلوبنا فى مواجهة الأمراض الفتاكة .

أن التقدم الحقيقى هو فى تقدم القلب نحو الغايات العظيمة ، والقيم الكبرى والمفاهيم الخيرة ، أما تقدم العقل الذى يفكر ، واليد التى تبنى فهو تقدم تابع لتقدم القلب ونابع عنه ، فإن لم يكن كذلك فهو فكر فى فراغ وعمل بلا ثمرات .

وإذا كانت اليد التى تعمل هى إله الصين الجديد ، والمطرقة والسندال معبود الروس فى العصر الحديث ، فإن الأوربيين قد اختاروا المال الها يعبد من دون الله ، أما أمريكا فقد جعلت المنفعة الذاتية أو ما يسمى بالبراجمتية الهها المعبود بالبراجمتية ما كان يعبد الأجداد والأسلاف من آلاف السنين .

وأما الدول الأخرى فمنها ما تعبد بوذا وكنفوشيوس والنار والشيطان والأصنام ، ومنها من يعبد العجل والتوائم والأفاعى وغير ذلك كثير . .

أن بعض هذه الدول التى رضيت بحضارة اليد وتركت حضارة القلب ، تزعم كذبا وبهتانا أن تقدمها راجع إلى التفكير العقلانى ، والمنهج التجريبى

الذى أبعد الايمان الغيبى عن طريقه ، وتجنب الاعتقاد الدوجماطيقى الذى يرى أن الله تعالى هو خالق كل شىء . .

أن حضارة اليد تزعم أنها مادامت قادرة على التفوق فى الماديات والتقدم السريع فى مجالات الحياة المختلفة ، فإنها ـ فى تصورها ـ قادرة على اسعاد البشر بدون حاجة إلى اله يعبد ، ولكن أصحاب حضارة اليد قد جهلوا التركيب الانسانى وغفلوا عن الفطرة السليمة التى فطر عليها . . فإن الانسان ولو أنه يحتاج إلى اشباع معدته وتيسير سبل معاشه ، فإنه يحتاج فى المقام الأول إلى الأمن والأمان فى نفسه وحياته . .

ولقد فشل الشيوعيون والملحدون وعباد اللذة والمنفعة فى تحقيق الأمن والأمان لشعوبهم . .

لذلك فإن كثيرا من تلكم الشعوب والأمم قد اكتشفت الخدعة الكبرى والزعم الكاذب فى دعاوى الشيوعية وأصحاب مذاهب الذة والمنفعة . وحاولوا أن يخرجوا بأنفسهم من هذه اللعبة ، فتمردوا على كل شىء ، تمردوا على التقدم المادى فرفضوا أن يستخدموا الأدوات الحديثة ، وثاروا على كل مستحدث ورجعوا إلى حياة البداوة أو حياة الطبيعة . .

لقد وجد هؤلاء أنفسهم عبارة عن آلات تدور دون معنى أو هدف ، وأنهم ضائعون وواقعون تحت تأثير مخدر ضار اسمه الحضارة الحديثة . . وما هى هذه الحضارة إلا لملء بطون الأغنياء وتعاسة الفقراء ، وما المواطن فى هذه الحضارة إلا انسان نزع فكره ، وسلبت روحه وأدخل إلى طاحون يفرم لحمه وعظامه فرما . .

أن الالتجاء إلى الدين والتمسك بعبادة الله فى المجتمع الشيوعى جريمة ما بعدها جريمة ، يحكم على المؤمن بالله فيها باحكام ظالمة ، منها العزل السياسى وفقد الوظيفة القيادية والمنع من الانتساب إلى الجامعة ، وفى الدول المتقدمة ماديا يسخر من المؤمن ويعد رجعيا ومتخلفا ، وينظر إليه على أنه ناقص العقل يحمل نفسا مريضة وفكرا ساذجا . .

وهكذا يظلم الصالحون والصادقون المخلصون فى حضارة اليد حتى لا تقوم لهم قائمة . .

إن خوف حضارة اليد من المسلمين أعظم بكثير من خوفهم من الشيوعيين والبوذيين وعباد الأصنام ، ذلك لأن عقيدة المسلم منبعها الايمان والايمان ماوقر فى القلب السليم ، لذلك فإن السلوك العملى للمؤمن ثمرة لهذا الايمان القلبى ونابع منه ولا يمكن أن يتغير أبدا .

فحضارة القلب تعطى الدليل دائما على أن الموت أسهل بكثير من التخلى عن قيمها ومفاهيمها وأسس عبادتها . .

ومن هنا كان الشعور بالعجز والنقص عند أصحاب حضارة اليد ، ذلك لأنهم يعلمون أن هؤلاء المؤمنين لو اتحدوا لاطاحوا بحضارة اليد فى وقت يسير ، حيث أنهم يملكون قوى نفسية عظيمة لا يمكن أن تقف أمامها الأساطيل الضخمة والأسلحة الفتاكة . .

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يمكنه أن يمتلك فى طفرة لا تعرف المراحل والخطوات ، كل أسباب الرقى المادى ويهضمها هضما ، كما انه يستطيع أن يحتوى كل تقدم علمى ويصبغه بصبغته ، كل ذلك يتم دون تعارض أو تناقض أو إختلاف . .

لو تأكد للمسلمين ذلك لعملوا له وتركوا تشاحنهم ورجعوا صفا كالبنيان يشد بعضه بعضا . . ويقوموا قومة رجل واحد للدفاع عن عرين الدين .

ونحن المسلمون بإمكاننا أن نقدم للعالم أعدل النظم وأفضلها متى طبقنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

○ ○ ○
○ ○
○

٢

٢ ـ أثر الحضارة الاسلامية على العلم الحديث .

إن المسلمين ـ فى ماضيهم التليد ـ بنوا صرح التقدم العلمى والازدهار الثقافى . وأن لم يكن حتى الآن قد قدرت الحضارة العربية الإسلامية حق قدرها ، سواء من المستشرقين أو المستغربين ، أو من الغربيين أو المسلمين أنفسهم .

لذلك كان لزاما على المهتمين بتدريس هذه المادة ، وكذلك الكتاب المهتمون بدراسة التراث العربى الاسلامى ، أن يضيئوا طريق الكشف عن هذا التراث ، وأن يعملوا على أبراز الجوانب المشرقة فى تاريخ العرب الإسلامى حتى يثق المسلم فى نفسه ودينه وعقله جميعا ، ويخلص العمل فى استئناف امجاده الحضارية .

كما أن هناك هدفا سامياً من دراسة العلوم عند العرب والمسلمين ، وهى إطلاع الشباب المسلم بخاصة والعربى بعامة ، على أن العلم يكمل بعضه بعضا ، وأن النظريات العلمية إنما تتعامل فى العصور المتعاقبة ، وأن لكل زمان نظرياته العلمية التى تخصه ، وأن تكامل النظريات العلمية إنما هو هدف لتعاون المفكرين والعلماء فى كل عصر من العصور ، وفى كل بيئة من البيئات .

إن الذين يزدرون العقل الإسلامى وينكرون على المسلمين علمهم وفلسفتهم الحياتية ، إنما يجهلون طبيعة هذا العقل جهلا منكرا ، وفاقد الشىء

لا يستطيع أن يعطيه ، ومن تم فإنهم لا يستطيعون أن يحكموا على فكر المسلمين وعلومهم إلا إذا أطلعوا على ما أنتجوه من تراث ثقافى وعلمى يشهد المنصفون بأصالته ، وعلو كعبه فى مختلف المجالات .

ولقد دأب العرب فى عصورهم الإسلامية الزاهية ، دأب العرب فى البحث العلمى بنفس الأسلوب الذى يستخدم الآن فى العلوم الحديثة التى يطلق على منهجهم فيها بالمنهج البيكونى ، ولقد سبق العرب فى استخدام هذا المنهج قبل أكثر من عشر قرون .

أن الطاعنين والمتحيزين ضد الإسلام فى هذا العصر الذى انتكست فيه حضارة المسلمين ، يجهرون بالقول بأن أسلوب العرب فى البحث العلمى كان أسلوبا غيبيا يركز على كنه الأشياء ، أو حقائق الوقائع ، ويحكم عليها بأحكام الماهيات والكيفيات دون التركيز أو الاهتمام بالناحية التطبيقية والعملية .

وهؤلاء يطبقون فكرة أوجست كونت [١] التى تزعم أن العقل البشرى مر بأطوار أو مراحل ثلاثة ، ويسمونها بقانون الحالات الثلاث ، ويدعون أن العقل البشرى قد مر من حالة اللاهوت أو السحر أو الدين ، إلى حالة أخرى يسمونها حالة الميتافيزيقا ، أو الغيبيات ، ثم ينتقل العقل البشرى إلى الحالة الوضعية أو العلمية والتى يعيشها الغربيون فى هذا العصر باعتبارها المرحلة النهائية فى تطور العقل البشرى .

ولقد وضع هؤلاء الطاعنون والمتحيزون ضد الإسلام الفكر العربى وتاريخه العلمى التليد ، فى المرحلة الوسطى بين الحالة اللاهوتية والحالة الوضعية ، أى أن العلوم العربية والاسلامية فى عصورها الزاهرة لم تتعد الحالة الغيبية أو الميتافيزيقية أو الفلسفية ، وأنهم لم يصلوا فى تفكيرهم العقلى إلى الحالة الوضعية العلمية التى يتميز بها العلم الحديث .

ان فى هذا القول بعد عن الحق والحقيقة ويدل دلالة واضحة على الجهل بالتراث الاسلامى والعربى ، فلم يكن المسلمن القدماء فى عصورهم الزاهرة ، أقل ميلا للملاحظة الحسية والتجريب العلمى والمعملى من ميلهم

(٦) محمد عبدالرحمن مرحبا ـ الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ دار الكتب اللبنانى ـ بيروت ص ٦ وما بعدها

إلى دراسة المسائل النظرية او المجردة ، ودليلنا على ذلك الكتب العربية القديمة فى مجالات العلوم المختلفة التى تدارسوها كالطب والصيدلة والطبيعة وعلم الهيئة والكيمياء وغير ذلك .

فلم تكن أبحاثهم تعتمد على الأحكام النظرية فحسب ، لمت تشتمل كذلك على المجردات والمشاهدات والملاحظات والاستقراء العلمى بمعناه الدقيق .

لقد وضع الأطباء فروضهم وامتحنوها عن طريق الملاحظة والتجريب ، وكذلك علماء الطبيعة والكيمياء فإنهم أقاموا تجاربهم لاثبات صحة فروضهم ، ثم أصدروا أحكامهم بعد ذلك بالأسانيد والأدلة والبراهين .

أما علماء الفلك المسلمون فقد قاسوا أبعاد الكواكب ، ووضعوا الزيجات والجداول التى تحدد بطريقة علمية احصائية أبعاد الكواكب ومساراتها .

لقد درس الطب فى المستشفيات ، والفلك فى المراصد ، والطبيعة والكيمياء فى المعامل ، والجغرافيا اعتمدت على السياحات والرحلات للاطلاع على أحوال البلدان والشعوب .

ولولا الدراسة العلمية المركزة ، ما أنتج العقل العربى هذا التراث العظيم فى فروع الطب والطبيعة والكيمياء والصيدلة والفلك ، هاهو الرازى وابن سيناء وابن النفيس قد استطاعوا عن طريق الملاحظة والتجربة أن يضيفوا إلى علم الطب مالم يكن موجودا قبلهم من الدراسات الأصيلة المبتكرة ، فى الأغذية والأشربة والأدوية والتوليد واكتشاف الدورة الدموية وأمراض العين .

ولولا المراصد التى بنيت فى عصر المأمون فى بغداد ودمشق وغيرها من البلدان الإسلامية ، ما استطاع عالم مسلم وهو البتانى أن يتوصل إلى اكتشاف أسباب الكسوف وتحديد طول السنة والفصول ، ولعجز البيرونى أن يحدد خطوط العرض والطول ويتعرف على دوران الأرض حول محورها .

لولا التجريب والملاحظة والمشاهدة العلمية والمعملية ما استطاع أن يهتدى العلماء إلى قوانين المد والجزر ، وأن يصلحوا التقويم وأن يعدلوا آراء بطليموس التى ثبت خطأها

استخدم العرب إذن الاستقراء والملاحظة وبنوا علومهم على أهداف علمية

عملية افادت الحضارة الغربية الحديثة أعظم إفادة

لقد نص ابن خلدون فى مقدمته للدراسات الاجتماعية والتى أسماها بعلم العمران ، نص على ضرورة استخدام الوضعية والموضوعية العلمية ، وقد إنتقد المسعودى صاحب مروج الذهب فيما تناقله من روايات دون أن يتفحصها فحصا عقليا موضوعيا . لذلك فقد سلك ابن خلدون مسلكا واقعيا فى ملاحظة الظواهر الاجتماعية فاعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع ، إذ وقف على طبائع العمران وأحواله ، وتعرف على الظاهرات الاجتماعية فى عصره وأسبابها ، وكان منطقه فى الدراسة منطقا عمليا لا عقليا مجردا .

فكيف يقال أن المسلمين وقفوا عند الحالة الميتافيزيقية أو الغيبية فى أبحاثهم ودراساتهم ، وقد انكروا المنطق الأرسطى الذى أهتم بمادة القضايا وتألف من أحكام نظرية صورية ، والتى إذا أطلقت على الأشياء المحسوسة والملموسة وما له طول وعرض وعمق لم تطابقها ، ولم تأمن الوقوع فى الخطأ لكثرة ما فيها فى التجربة والبعد عن الحس والمحسوس ، وكذلك كيف يقال أن عقلية المسلمين فى عصورهم الزاهرة كانت عقلية غيبية ، وقد أقام العرب علم الطبيعيات على المطابقة بين أحكام الطبيعيات الكلية العامة وبين ماهو فى الواقع من شخصيات وموجودات خارجية عبارة عن أشياء ومواد مشخصة ، فأصبح التجريب هدف دراسة العرب للطبيعيات خوفا من عدم مطابقة الأحكام الكلية أو ما هو ذهنى علمى على الموضوعات الخارجية المشخصة .

إننا نجد هذه النزعة الواقعية عند علماء العرب سواء فى دراستهم للعلوم التطبيقية والعملية أو العلوم الحياتية ، ولولا هذه النزعة العلمية ما استطاع العرب أن يضيفوا أى حقيقة جديدة إلى حقائق العلم الاغريقى القديم .

لم يكن العرب إذن أصحاب براعة عقلية بل كانوا علماء تجريبيين أيضا ، ربطوا بين الفكر الكلى والعلم الجزئى ، فكان لهم الصدارة فى مجالات العلوم المختلفة ، فوضعوا الاسس الصحيحة للتفكير العلمى الذى تجتره أوربا الحديثة اجترارا .

لقد آمن العرب ايمانا عميقا بالتجريب العلمى واتخذوا الاستقراء وسيلة للكشف عن الحقائق ، وورثت أوربا عنهم الروح البيكونيه ، والتى لاشك أن بيكون قد استعارها بدون ذكر للمصادر التى اقتبس منها منهجه العلمى ، لقد

ورث هذا المنهج بلا شك من العرب الذين اتخذوا العلم وسيلة للسيطرة على الطبيعة ولقد اثبت التحقيق التاريخى أن العرب هم الذين وضعوا قاعدة جرب وأحكم ، فطبهم تجريبى ، وفلكهم تحقيقى ، وهندستهم تطبيقية ، وكيميائهم معملية ودراساتهم قائمة على الاستقراء والموضوعية العلمية .

وإذا أردنا أن نقيم الدراسات والعلوم التى أضافها العرب إلى التراث الانسانى لاحتاج ذلك إلى مئات الكتب ، ولو نظرنا الى العلوم اليونانية قبل العرب لوجدنا أنها كانت ميتة فى دهاليز النسيان ، مقبورة فى بطون الكتب ضائعة فى قاع البحار ، ولولا التقاط العرب لها واهتمامهم بدراستها واستبعاد الغث والاستفادة من الثمين منها ، ما استفادت الانسانية حتى اليوم شيئا منها ، لقد أصبحت العلوم اليونانية والهندية والفارسية عند العرب حية . فقد جعلوا لها روحا تغذى بها الأبدان والعقول . وأصبحت بفضلهم قواماً للصناعة وحياة للفكر والآداب .

إن منكر هذه الحقائق لهو ظالم لنفسه وللتاريخ . إذ أن العرب علموا الأوربيين كيف يفكرون وكيف ينظرون وكيف يجربون . ثم يربطون ذلك ربطا محكما بما فيه نفع للناس والعباد .

ooo
oo
o

٣

٣ ـ المسلمون علماء وفلاسفة .

لم يذب الفكر الإسلامى وإنما الذى ذاب تلك العقلية المستغربة التى تزعم إنعدام وجود الفيلسوف فى المجتمع العربى والإسلامى . .

لقد انطلق الداعون إلى هذه الدعاوى من محاور محدودة ، ووضعوا أنفسهم فى قوالب جامدة ، فزعموا أن شخصية الفيلسوف كما عرفوها فى الغرب الليبرالى والشرق الشيوعى ، لا وجود لها فى الدول العربية والإسلامية . .

وليس هذا عجبا ، ولا يدل على ضحالة الفكر العربى ، بل أن هذا الزعم يؤكد إنبعاث الفكر الإسلامى من جديد فى هذه الآونة من الزمن . .

لقد فصل هؤلاء بين الدين والفكر ، وأعتقدوا أن الفيلسوف الحق يجب أن يكون له نسق متكامل من الفكّر ، أو نظرية متكاملة تفسر الحياة ، نابعة من ذاتيته وفكره المُفَرَدْ . .

وإذا تساءلنا ما هو الفيلسوف المطلوب وجوده فى المجتمع العربى ؟ كان الرد مثل جان بول سارتر والبير كامى وكارل بوبر وخلافه . . .

إن ردنا بإجمال هو أن الفليسوف فى المجتمع الإسلامى لا يجب أن يتشبه بهؤلاء وهؤلاء ، ذلك لأنهم ينحون الدين جانبا ، ويفكرون بحرية فوضوية وهوى ذاتى ، وهم مثل الذين يقودون سفينة فى بحر لجى بدون عجلة قيادة . . فيوجهها الموج إلى أى طريق وتنحرف يمنة وشمالا ، وتتخبط أحيانا

وتكاد تغرق احيانا . . ثم إذا بها تتوقف فى نهاية الأمر وقد إصطدمت ببعض الصخور أو الشعب المرجانية . .

إن هؤلاء الفلاسفة الغربيين ليسوا أنموذجا يجب أن يقتدى به فكر المسلم ، فمهما بلغوا من رجاحة العقل وعمق الفكر ، فإنهم يخلطون حقا بباطل ويتلبّس عليهم الأمر كثيرا ، ثم ينتبهون بعد نضوج تجاربهم فيرجعون عما يقولون ، ويمرون بمراحل شتى ، وإما أن ينتهى بهم الأمر إلى التسليم والإذعان بوجود إله قادر حكيم ، ويعترفون بعجز عقولهم عن التشريع والتقنين ، وإما يركبوا هوى نفوسهم ويفتروا بعقولهم القاصرة نتيجة لتصفيق الجماهير من القراء والمعجبين بهم ، فُيضيعوا آخرتهم بدنياهم ، وينتهى أكثرهم إلى اليأس والقنوط والظلم الشديد للنفس . .

إن جان بول سارتر كفيلسوف ، أخر المجتمع الإنسانى أكثر مما أفاده وهو يعلن فى تبجح أن الشر والخير من مصدر واحد ، وأن القديس وأعتى الناس إجراماً لهم نفس الغاية مع إستخدام وسائل مختلفة . .

إن الذين يتابعون كتاباته إنما هم يشربون من كؤوس ذهبية سموماً تفسد عقولهم وتضيع حياتهم هباء منثورا .

إن الفكر السليم يجب أن يتبع من الفطرة السليمة وكلما بعد الإنسان عن الفطرة فإنه سيضل حتما ، ولا يهتدى أبداً إلى الحق الذى هو غاية كل إنسان فى الوجود . .

والفطرة السليمة تواكب الدين ، والدين القيم هو قمة الحقيقة والمعرفة ، فإذا ابتعد الإنسان عن حقيقة الدين حنيفاً فكأنما ابتعد عن النور الذى يهديه سواء السبيل . .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ (الروم : ٣٠)

فالفيلسوف المسلم إنما هو ذلك المفكر الذى يطيع الله ورسوله ، فلا يبتعد عن هدى الدين وإنما يتأمل الكون والوجود والحياة من خلال آيات الله البينات وحججه الدامغة وحكمته البالغة ، لا من نظرته الذاتية وعقله القاصر ونفسه التى تتبع الهوى فتظلم الناس والعباد . .

إن الفلاسفة الذين يفصلون بين الدين والفكر ، إنما هم كالسكارى الذين لا يفيقون أبدا من فقدان التوازن والإسراف والإفراط والجنوح والغلو . .

وهؤلاء يبتعدون عن الوسط العدل الذى هو الخير الفاضل والطريق إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة . .

فإذا زعم بعض المتفلسفين أنه ليس هناك فلاسفة فى الوطن العربى من هذا النوع الذى يبدل كلمات الله ، يجنح بعقله القاصر إلى الهوى ، أو يبتعد عن الحق الذى هو كلام الله . .

إذا زعم أحد من المتفلسفين ذلك فإننا نرحب به كل الترحيب ، ونرضى عن ذلك كل الرضا . .

لأن ذلك معناه أن المسلمين تأكد لهم أنه لا يجب أن يعيش بينهم فكرا ساماً ، ودعاوى فاسدة تبعد المؤمن عن الله ، وتستقطب عقول الشباب وتثير فيهم النعرات والشهوات . .

إن الفكر الصادق ذلك الذى تقوم دعائمه على هدى القرآن ، ويشرق به القلب وهو متجه إلى المحراب . . ليؤكد أن رسالة الإنسان هى :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات : ٥٦)

فإذا جنى المفكر المسلم ثمار طاعته لله ، فإنه سيقدم لنا مما لاشك فيه إضافات صادقة ومعانى عميقة تعطى للوجود معنى ، وللحياة رسالة ، وعلى الانسان أن يؤدى هذه الرسالة وهو مطمئن النفس إلى أن الله معه يؤيده ، ويثبت قلبه وليس هو بمحتاج إلى تصفيق الجماهير أو الشهرة أو المجد العلمى أو السياسى . .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾
(إبراهيم : ٢٧)

المفكر المسلم ليس إذن ذلك الفليسوف الذاتى الذى يلهث المستجيبون له من جريانه وتخبطاته ، ويدفعون سنين طويلة من أعمارهم ثمنا لأخطائه وعثراته . . ثم فى آخر الأمر يقول لقد كنت مخطئا ، أو يزعم فى أواخر حياته أن ما قاله كان مرحلة من المراحل أو فى فترة النشوء الفكرى . ثم يطالبهم

بأن يتخلوا عن تقليده وتغيير أفكارهم واستبعاد ما أقتنعوا طويلا بصدقه . . ويصبح من الصعب عليهم أن يتخلوا عما تعلموه ، لأن ما قاله هو كل ما عرفوه طيلة سنوات طويلة . .

إن البرجماتية والماركسية وفلسفات القوة الوضعية المنطقية ، كلها فلسفات أقامها فلاسفة نسميهم بالكبار ، ولو عاشوا هؤلاء إلى وقتنا هذا لأنكروا جميعا ما قالوه وما افتروه على الله كذبا . .

فكيف نبحث الآن عن فلاسفة من هذا النوع ووجودهم أشد ضررا من عدمهم ، أن الذى نطالب به هو تشجيع الفكر الإسلامى فى كل ناحية لنعود مرة أخرى أقوى مما كنا عليه فى عصور الإسلام الزاهرة . .

ooo
oo
o

٢

٤ ـ الهدف من دراسة العلوم عند المسلمين .

حاول الانسان من قديم الزمان الإجابة على هذا التساؤل ، وأضاع الفكر الإنسانى قرونا عديدة فى جدل وسفسطة ولجاج فى إبداء رأيه فيما يظن أنه سبب خلق الانسان . .

إلا أنه لم يستطع الفلاسفة والمفكرون حتى اليوم أن يصلوا إلى رأى أو مذهب أو نظرية مقنعة عن طريق إستخدام النظر أو التجربة لحل هذه المشكلة المستعصية ، التى تبدو أنها فوق حدود العقل الانسانى . .

لقد اخترع هؤلاء وهؤلاء من عند أنفسهم أسبابا ومسببات وعللا ومعلولات . . ظنوا أنها الحلول النهائية لتساؤلات الانسان ، ثم فرضوها فرضا على شعوبهم أو شيعتهم أو أنصارهم . .

ومن ذلك ما ادعاه بعض أصحاب الفلسفات الشرقية القديمة من ان الإله الذى زعموا أنه جسما ضخما ، أراد الانقسام أو التشتت فقطع جسمه أربا ، ونثرها فى الكون فتكونت من تلك الأجزاء السموات والشموس والكواكب والمخلوقات التى منها الانسان . وإن هذا الإله يود أن يعود إلى وحدته وإلى تجاذب أجزائه بدلا من تنافرها . ولكى يتحقق له ذلك فان على الانسان أن يسعى الى الخيرات وأن يبتعد عن الشرور ، وأن يخلد إلى المحبة ، وأن يتجنب العداوة والبغضاء ، وذلك من أجل عودة الإله إلى وحدته وتماسك أجزائه وترابط أشلائه . .

فرسالة الانسان فى زعمهم العمل من أجل عودة الاله الى حالته الأولى ، ولن يتسنى لهم ذلك إلا بالمحبة وفعل الخيرات . .

ولا يخفى على عاقل تهافت هذه الاسطورة ، وعدم قدرتها على تحمل أى نقد نظراً لتفاهتها وسذاجة مزاعمها . . فكيف تجعل الاله جسما كالأجسام . . ثم لماذا يقطع جسمه إلى أجزاء إلا أن يكون أحمقا أو مجنونا وحاشى أن يكون الإله كذلك . .

ولم يكن الفكر الغربى القديم أو فى حظا فى النضوج العقلى عندما تعرض للإجابة عن أسباب خلق الانسان ، فقد زعم الطبيعيون الأوائل أن العالم بما فيه من مخلوقات وجد هكذا ، واختلفوا فيما بينهم فى أصله الأول ، فمن قائل أن أصله الأول عنصر الماء ، ومن قائل أن أصله عنصر التراب ، ومن قال الهواء ، ومن قال النار ومن قال العناصر الأربعة مجتمعة . .

ولقد جعل اليونانيون القدماء لكل شىء إلها . . فهنا إله للغير وإله الشر وإله للنار ، وإله للشمس وإله للحب وإله للحرب ، حتى أنهم اتخذوا إلها يقدمون له القرابين عندما يريدون أن تتحقق مصالحهم ، ويتوسلون بالكهنة الذين فرضوا أنفسهم على الناس فرضا على اعتبار أنهم الوسائط للآلهة المزعومة . . والعجيب أن الكهنة أدخلوا فى روع الناس أن الآلهة تقبل الرشوة ، وكلما زادت الأموال والهدايا والقرابين كلما آمن أصحابها مكائد الآلهة وغدرهم . .

أما سبب الخلق فى زعم هؤلاء أن الآلهة قام بينها تحاسد وتباغض وأحقاد ، الأمر الذى انتهى إلى حروب طويلة بينهم . . ولكل إله حزبه ورجاله وأعوانه من المردة والشياطين . . وأن على الإنسان استرضاء الآلهة جميعا ، ويتوهم انه بدون ذلك ستحل به نقمتهم فيغدق عليهم الهبات والقرابين حتى تكتب له النجاة والسعادة التى يعده الكهنة بها . .

ولاشك أن هذه الخرافات تثير فى النفس الاشمئزاز وتنفر العقل السليم من تفاهة هذا التفكير الساذج . .

وقد جاءت النصرانية بفكرة غريبة هى مزيج من تلكم الخرافات والأساطير ، ومن بعض معتقدات الديانة المسيحية فخلطت بين الحق

والباطل ، ومزجت بين الفسلفات الإلحادية وبين رسالة عيسى عليه السلام ، فزعم النصارى أن الإنسان من تاريخ ميلاده إلى وفاته مقرونا بالخطيئة ، وأنه إنما خلق لكى يكفر عن خطيئة آدم الأولى . . ومن ثم فعليه أن يكفر عن خطيئته الثانية وهى قتل الله فى الأرض . . وزعموا ان الله المقصود هو عيسى بن مريم . .

وعبث النصارى بالديانة المسيحية فاخرجوها عن أصولها ، وحرفوا نصوصها ، فأمست خليطا من الأضغاث والخرافات الغامضة ، والارهاصات غير المقبولة عقلا ومنطقا ، فادعوا أن الواحد (ويقصدون به الله) فى ثلاثة والثلاثة فى واحد . والثلاثة هم فى زعمهم الله والابن والروح القدس . . ولكى يجعلوا مما هو غير معقول مقبولا لعامة الناس دون مناقشة أو اعتراض ، فعّقدوا قضية الخلق بدرجة تحتاج معها لفهمها إلى كثرة درس وتمحيص . .

فقالوا أن الواحد وهو الله أفاض العقل وهو الكلمة ، والكلمة هنا مقصود بها عيسى بن مريم ثم ان العقل أو الكلمة فاضت النفس الكلية ، والنفس الكلية هى نفس العالم والمخلوقات جميعا والتى يسمونها الروح القدس . .

إذن فالنصارى يزعمون أن الله فى ثلاثة ، والثلاثة فى واحد ، أى أن الله فى أقانيم ثلاثة والأقانيم مجموعها إله واحد ، ثم انهم يزعمون بعد ذلك أن الله أو ابن الله أو الكلمة . . أو العقل الكلى . . جاء إلى الأرض فى صورة انسان وهو المسيح ، إلا أنه قتل اى قتل الناس الله . . فهل هذا الباطل يمكن أن يقبله صاحب فطرة سليمة .

لكن هناك سؤال لا نجد له جوابا عند النصارى ، وهو من كان يحكم هذا العالم عندما قتل إلههم المزعوم الذى مكثت جثته كما يفترون بالأرض ثلاثة أيام ؟! فهل كان العالم يسير فى فوضى أثناء قتل هذا الإله خلال الأيام الثلاثة ؟! أم هناك إله عالم قادر حكيم هو فاطر السموات والأرض ليس بعيسى ولا بالعقل الكلى ولا بالابن الذى يزعمونه .

لقد انقض العلمانيون والعقليون والتجريبيون والحسيون والماديون والطبيعيون بل كل المفكرون الغربيون المحدثون على النصارى ، وأتهموا أصحابها بالسذاجة والتفاهة والدوجمانيقية (الايمان الساذج) ، وأخترعوا لأنفسهم مذاهب ودعاوى جديدة . . إلا أن جميعها تتفق على الإلحاد وتتجمع

حول شعار زائف يقول . . « لا إله والكون مادة » .

وقد عمل اليهود من قرون عديدة على بث الفكر الالحادى فى الغرب والشرق وأظهار المسيحية بزيها الخرافى وبمظهرها الضعيف المتهاوى ، الذى لا يقوى على الرد على جموح العقل ومنطق العلم الحديث ، ولذلك دفعوا بها إلى شط الهاوية ، وأسلمت الروح فى أوربا والأمريكتين ، وأصبحت النصرانية شعارا بلا معنى وأسما بلا مضمون . . وطغت المذاهب الإلحادية على عقول الناس والعباد ، وكلها مع اختلاف أفكارها تنتهى الى القول بأن الطبيعة خلقت نفسها ولا أثر لوجود الخالق ، إذن فما رسالة الانسان فى هذه الدنيا ؟! ولماذا خُلق ؟ يرد الوجوديون المحدثون على هذا التساؤل بأن الإنسان خلق هكذا ولم يستشر فى أمر خلقه . . رغم أنه الذى يعيش ويموت ، فلا يعيش ولا يموت أحد بديلا عنه لذلك يجب أن يختار حياته دون أن يفرض عليه دين أو خلق أو أى قيم من أعلى ، ويقول كبيرهم ؛ « يجب أن يعيش الانسان حرا طليقا لأنه عندما يموت فإنه ينتهى كل شىء . . فلا بعث ولا آخرة ولا حياة أخرى » . .

وواضح من ذلك التسلسل فى الفكر الانسانى أن النتيجة التى وصلت إليها الوجودية الحديثة والتى يعبر عنها شباب أوربا الآن تعبيرا نظريا وعمليا هى الإلحاد فنجد الفن والأدب والفكر الإنسانى يعالج قضية الإنسان من هذه الزاوية الوجودية ويختار الإلحاد اعتقادا وسلوكا وأخلاقا ، ويجاهر هؤلاء بالقول باللامبالاة وللا إرادية ، والتحدى لكل المؤمنين والسخرية من الموحدين بالله . .

وهكذا فسدت العقول وإنحرفت النفوس البشرية عن الحق ، لتركب سلطان الهوى وتمخر به عباب البحر الذى لا شاطى له . . وها هى أوربا تخوض تجربة الإلحاد وقد غشاها عصر الظلمة الجديد وجاهلية القرن العشرين . . فقدت أعز مايمكن أن يملك الإنسان وهو الإيمان بالله الواحد القهار . . فضاع منها شراع الأمن والأمان . . وما يزال مركب الحضارة المادية يهتز من تحتها والموج عال حتى يأتى الغد القريب بنبأ ابتلاع البحر المصور لمركبها الذى تتباهى به ، وهذا هو ما حدث لجميع الأمم السابقة ، والتى كان لها فى قديم الزمان حضارة وشأن عظيم ، فقد أغتر أهلها وعصوا الله وفسقوا

فى الأرض وظلموا أنفسهم فاستحقوا الهلاك المبين . .

إن الخطأ العظيم الذى يرتكبه أصحاب الهوى ومدعى العلم والتعقل ، انهم يدعون جانبا رسالات الله ومنهاجه وشرعته ، ثم يظنون أنه بمقدورهم أن يعقلوا كل شىء وأنه باستطاعتهم أن يعرفوا أسباب السموات والأرض ، وأن يحلوا قضية الخلق ومشكلة الحياة والموت . . وأن يصلوا إلى شاطىء السعادة بعيدا عن حظيرة الإيمان وهدى الدين .

إن إنسان هذا العصر لفى وهم كبير وغفلة عن الحق وغرور عظيم ، ذلك أن الله تعالى بين الانسان كل شىء ، وأوضح له رسالته على الأرض تفصيلا وإجمالا وأرسل له الرسل مبشرين ومنذرين ، فلماذا يطغى الإنسان ويظلم نفسه ويجتر الأساطير والخرافات والأفكار المنحرفة إجترارا ؟! فما قاله الملحدون من آلاف السنين يردده بلا وعى ولا دليل أو سند معقول ، أصحاب النعرات التى تزعم أنها جديدة ومستحدثة ، ولم تخلق معدوماً ولم تستحدث جديداً ولم تخترع شيئاً :

﴿ إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ الحج : ٢٣ .

لقد هوى الإنسان فى هذا العصر إلى وادى الضياع ، وأصبح هلاكه محققا لا محالة بافترائه على الله كذباً وبهتاناً ، وعبادته لغرور عقله وشهوات نفسه فأفسد فى الأرض بعد إصلاحها وهو يظنها البناء والعمران . .

لم يخلق الله تعالى الإنسان ليفسد فى الأرض بعد ، فيزعم أنه خالق نفسه ، وأن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ، ولم يخلق الله الإنسان ليتقول على الله بغير علم ولا هدى فينسب لعيسى عليه السلام البنوة لله ويكذب على الله تعالى ، ويفتن الناس زاعماً أن الله واحد فى ثلاثة وثلاثة فى واحد . . ولم يخلق الله تعالى الإنسان ليعبد نفسه الظالمة المظلومة ، ويخترع المذاهب الضالة والنظريات المنحرفة والدعاوى الكاذبة ليجعلها عقيدته ومنهجه فى الحياة .

لم يخلق الله الإنسان لذلك ، وإنما خلقه ليستخلفه فى الأرض ، وليأتمر بأمره وينتهى عما نهى عنه :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (البقرة : ٣٠)

خلق الله الإنسان لرسالة عليه أن يؤديها وعمل عظيم مكلف به من قبله تعالى ، وقد اعترض إبليس اللعين وعصى أمر الله واستكبر .

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ (الاعراف : ١١)

ولقد استحق إبليس غضب الله عليه ونقمته إلى يوم الدين حيث يشهد عذابه الأليم .

﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (الحجر : ٣٤)

لم يأت خلق الإنسان إذن اعتباطاً أو صدفة كما يزعم الملحدون أصحاب النظريات الطبيعية ، ولم يخلق الإنسان للعذاب فى الأرض والتكفير عن خطيئة لم يرتكبها ، إنما خلق لغاية عظيمة وهدف نبيل :

﴿ وفى خلقكم وما يبثّ من دابة لآيات لقوم يوقنون ﴾ (الجاثية : ٤)

إن هذا الخلق لم يكن لعباً أو لهواً ، إنما الله الخلاق العظيم خلق الإنسان فى أحسن صورة وأكمل تقويم ، وبث دواباً مختلفة الصور والمنافع . . ليتدبر ويتفكر ويوقن الانسان أن هناك إلها واحداً بديع الصنع قد خلقه ، ويؤمن بفطرته السليمة أنه تعالى يريده أن يتوجه إليه وأن يطيع أمره ويخلص فى علمه وعمله . . وأن يعلم انه سيجازيه :

﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون ﴾ (المؤمنون : ١١٥)

وإذ ظن الانسان أن الله قد خلقه بغير حكمة ، فهو واهم جاهل غافل يرى النور ويقبع فى الظلمة ، ويشهد الحق فيبغى الباطل ظلماً لنفسه وعدواناً . ان سبب خلقه واضح تماماً وتكوينه الذى خلق منه لا يحتاج لكثرة سفسطة ولا لطول لجاج وحجاج ، فقد بين تعالى ذلك فى آياته البينات فى أكثر من موضع فى القرآن العظيم ويمكن إجمالها على ماتيسر لنا تفهمه فى النقاط الآتية :
١ - عبادة الله :

● ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ الذريات : ٥٦

● ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ الحجر : ٩٩
● ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ طه : ١٤

٢ ـ معرفة الخالق :

● ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ مريم : ٩
● ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ النحل ٢٠

٣ ـ شهود عظمة الله :

● ﴿ أو لم يروا ان الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ فصلت : ١٥
● ﴿ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ آل عمران : ١٩٠

٤ ـ العمران والإصلاح :

● ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ الأعراف : ١٧٠
● ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ الأعراف : ٥٦

٥ ـ الرحمة الإلهية :

● ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . . ﴾ آل عمران : ١٩١

٦ ـ العدل الالهى :

● ﴿ وتضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ﴾ الانبياء : ٤٧
● ﴿ الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ الشورى : ١٧
● ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ الاعراف : ٨

٧ ـ التفضل الإلهى :

● ﴿ فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ البقرة : ٦٤
● ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ البقرة : ٢٤٣

٨ ـ البعث :

● ﴿ فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ الروم : ٥٦
● ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ﴾ المطففين ٤ ، ٥

ومن هذه الآيات البينات يتضح للانسان سليم القلب نقى الفطرة ان الله تعالى خلقه لرسالة عليه فى هذه الدنيا أن يؤديها ، وهو حر بعد ما أعلمه طريق الحق ، أن يختار ظلم النفس أو القسط أو المسابقة بالخيرات ، فمن ظلم نفسه فهو يستحق بعد هذا النذير الإلهى العذاب الأليم ، وأما من أتقى فان له الجزاء الأسنى ، والنعيم الأبقى ، والله تعالى غفور لعباده إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم .

﴿ ومابربك بظلام للعبيد ﴾ الشورى : ١٤

° ° °
° °
°

٣

١ ـ الاستشراق وتشويه الحقائق .

نسب بعض العلماء الغربيين الذين جنحوا إلى التعصب الأعمى ولم يتحلوا بروح العلم الصحيحة ، الكثير من النظريات والمستكشفات والاختراعات التى استحدثها المسلمين ، نسبوها لغير العرب ، وأدعوا وهم يتكلمون باسم العلم والحقيقة أن العرب لم يكونوا غير نقلة ، وأنهم غير منتجين ، وأن الحضارة العربية ليس لها تأثير أو أثر يذكر على الحضارة الغربية . ووصموا العقل العربى بالجمود والتقليد ، وأنه يعتمد تماماً على غيره وهو عالة على الأخرين .

وربما يتساءل البعض ما الهدف من وراء ذلك الإتهام ؟

إن المتفحص لكلام المستشرقين يجد نوعا من التحيز والتعصب البغيض ، ويكتشف أن القصد وراء التقليل من أهمية العرب والمسلمين فى حضارتهم الزاهية ، يكتشف أن القصد هو التثبيط من عزائم المسلمين وإدخال اليأس إلى قلوبهم ، وأنهم لن يستطيعوا فى الوقت الحاضر نجاحاً أو تقدماً .

ومن المؤسف حقاً أن يتأثر كثير من المسلمين بهذه الأقوال ، لدرجة أن الغايات التى يستهدفها علماء الاستشراق تجد لها أذانا صاغية ، وتتحقق بعض غايات هؤلاء وما يرمون إليه فى الصعيد العربى بخاصة ، والأمة الاسلامية بعامة .

كما تأثر الدارسين من الكتاب والطلبة بهذه الطعون ، وأثر على عقلية شبابنا ، وأخذ الاعتقاد بأننا لا نستطيع أن نواكب التطور الحضارى ، لعدم قابليتنا للتفكير العلمى الجاد ، يغزو إلى قلوب الكثيرين ، بل أصبحنا هدامين لكياننا ، منكرين ميراثنا . وقد فقدنا حاسة التذوق لتراثنا ، فلا نجد فيه جمالا ولا خيراً ولا إنتفاعاً ، وافتتنا بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا (٨) .

لقد أصبحنا نعرف عن نيوتن وأديسون ودانتى وشكسبير وديكارت وبرجسون وكانط ، أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم والبتانى والبيرونى والخوارزمى وجابر ابن حيان وجابر ابن الأفلح وابن رشد والكندرى والغزالى ومحى الدين ابن عربى والرازى والشعرانى ومئات الآلاف من العلماء المسلمين الذين نجهلهم جهلا مطبقا .

أصبحنا الآن نرى المدنية الأوربية كل شىء ففيها كل الخير وكل الجمال وكل النفع ، أما التراث الاسلامى فلا نفع فيه ولا انتفاع .

وربما يخيل إلى البعض أننا نود من ذلك إهمال دراسة العلوم الحديثة ونبذ الحضارة الغربية ، لكن ذلك ليس هو قصدنا ، إنما نحن نود أن نهضم تلك الحضارة ونعايشها من خلال النظرة الاسلامية ، والرجوع إلى التراث .

نحن نريد أن نتدارس العلوم والفنون الغربية ، ثم نضيف إليها من حضارتنا ماهو خالد وباق ، وفطرى ، فنكمل بذلك ما نجده من نقص وتقصير فى العلوم الغربية وفنونها ، حتى نربط بين ماضى العرب التليد وحاضرهم المجيد ، وحتى يتعرف الدارس على اجداده الذين نجحوا بالعمل الجدى نجاحا باهرا فى مختلف مناحى الحياة ، وشيدوا الحضارة الإسلامية الشرقية العربية ، والتى لايزال العالم إلى الآن ينعم بآثارها .

نحن نريد أن نبعد عن أذهان طلابنا ودارسين هذه الآثار السيئة التى عششت فى عقولهم ، نتيجة للطعون التى وجهها بعض المستشرقين للعقلية الإسلامية وإتهامهم لها بعدم القابلية للابداع والانتاج والنبوغ .

يقول الأستاذ « كارادى فور »،

---

(٨) قدرى حافظ طوقان ـ تراث العرب العلمى ـ دار الشروق ـ ص ٣٠ .

« أن محمدا صلى الله عليه وسلم ظل وقتاً طويلا معروفا فى الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه (٩) .

هذه هى الصورة التى نقلها بعض المتعصبين ضد الإسلام ، والتى سيطرت على عقول الكثير من الغربيين ، ففى قصيدة لرولان يقول فيها صاحبها :

أن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من « محمد » و « أبولون » و « تيرفاجان » ولا يمكن أن يوجد سخفاً احق من هذا السخف ، أو ضلالا أسقط من هذا الضلال ، وليس ماينقولونه جهلا فحسب ، إنما هو سوء نية متعمد ، فالمعروف أن الإسلام غايته المثلى هو التوحيد ، والقرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة فى كل آية من آياته ، ويثبت تماما إنفراد الله بالعبادة الحقة ومحاربة الوثنية ، وأن النبى صلى ﷺ وقد أزال الوثنية تماما من فوق جدران الكعبة ، والمسلم لا ينطق إلا بلا إله إلا الله ، وهى جملة قاسية على الوثنية وعبادها .

لم يعرف الاسلام هذا الثالوث الذى قصد إليه رولان فى قصيدته ، لأن المسلمين موحدون توحيداً خالصا نقياً ، لا يعرف المواربة ولا الهوادة .

وفى قصيدة أورشليم لرولان هذا ، وصفا دقيقا لتمثال يزعم أنه النبى ﷺ وأنه مصنوع من الذهب والفضة وأن قاعدته عبارة عن فيل وكأنه يمثل النبى ﷺ وهو راكب .

وهذا يمثل جرأة على الحق وتعصب أعمى ، وتجنى على التاريخ وصل إلى حد الإسفاف ، وأسقط رولان هذا نفسه من صفوف العلماء والمؤرخين ، لأنه قد فضح نفسه أمام الحق والتاريخ .

وهناك رواية أكثر سخفا يزعم فيها أن الإسلام يبيح تعدد الأزواج ، أى زواج المرأة الواحدة من عدة رجال ، وهذه الأكذوبة الساقطة ليس فى حاجة إلى الرد لأنها نموذج للكذب والإفتراء على الحق والحقيقة .

ومن المستشرقين الذين سقطوا فى هذا التعصب الأعمى الأستاذ بول كازانوفا كتب كتاب « محمد ونهاية العالم » « ﷺ » ويستهدف المؤلف فى

---

(٩) د . محمد غلاب ـ هذا هو الاسلام ـ نقلا عن كتاب « المحمدية » طبعة باريس سنة ١٨٩٧ .

هذا الكتاب أن يثبت أن القرآن قد اضيف إلى رسول الله ﷺ بعد وفاته ، وأنه لم يكن وحى من الله ، وإنما دعت الحاجة فى نظر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما إلى وضعه ، برغم أن الرسول ﷺ قال أن الساعة ستقوم عندما تنتهى أمته ، ولما لم يتحقق ما أخبر به ، أضافوا القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ .

ويعتبر هذا البحث أول بحث من هذا النوع يجادل فى صحة القرآن الكريم ، ولا يدل على شيء إلا مرض فى قلب ذلك المستشرق الجاهل .

ونترك الرد على سخفه حيث أنه لا يستطيع كازانوفا ولا غيره أن يأتى بآية من القرآن الكريم ولو جمع أهل الأرض جميعا ليثبتو خطأ واحدا علميا كان أو تاريخيا عن صحة آية من آياته لعجزوا جميعا ، فأن قوله مردود عليه ، والقرآن الكريم محفوظ إلى أن تقوم الساعة من الخلط والتدليس .

ولو وجد الأوربيون أن فى القرآن نقص ، أو فيه تناقض ما سكتوا حتى الآن عن التصريح بذلك ، وقد توالى المستشرقون على دراسته ولم يستطع المنصفون إلا أن يسجدوا إجلال واحتراما لكلمات الله البينات ، وقد آمن منهم من آمن وأسلم منهم من أسلم ، وقال كلمة الحق التى لا يختلف فيها اثنين على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى . ونحن سنكتفى بالرد على هذه المزاعم على لسان بعض المنصفين من المستشرقين : يقول الأستاذ « ديزيه فلانشيه » (١١) .

« ان الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة ، لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادراً على المقاومة قدرة تامة » .

نحن نتساءل ماهو النقد الذى يمكن أن يوجه إلى الاسلام ، أم هو فى تاريخ الرسول ﷺ وهو خال من التناقض والخوارق ، أم هو فى الاسلام ذاته وهو دين فطرى يتواكب مع العقل الرشيد والنفس المستقيمة والقلب السليم .

يقول الأستاذ كارادى فو :

أن محمدا هو النبى والملهم والمؤسس ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا ، ومع ذلك لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر ، أو من طبقة أخرى

---

(١١) هذا هو الاسلام ص ٨٨ .

غير طبقات بقية المسلمين ، أن شعور الأخاء والمساواة ، كان يطبق على الجماعة الاسلامية تطبيقا عمليا حتى على النبى ﷺ .

يقول عنه الشاعر العظيم لامارتين :

ان محمدا أقل من إله ، وأعظم من انسان عادى ، أى أنه نبى ورسول » .

ويقول المستشرق الفرنسى ليبون :

« يكفى القرآن الكريم جلالا ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطيع أن تجفف ولو بعض الشيء الذى لايزال غضا كأن عهده بالوجود كان بالأمس » .

ومن المستشرقين الواهمين نول ديك الذى يقرر فى كتابه تاريخ القرآن الذى نشر فى عام ١٩١٩ أن فواتح السور ليست من القرآن فى شيء ، وإنما هى رموز لمجموعات الصحف صح٢(٠التى كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثمانى ، فحرف « ميم » فى زعمهم كان لمصحف المغيرة و « الهاء » لأبى هريرة و « الصاد » لسعد بن أبى وقاص إذ هى فى رأيهم أشارات لملكية الصحف تركت فى مواضعها بدافع النسيان أو الإهمال ، وأنها صارت على مر الزمان من القرآن .

ويتابع بعض المستشرقين المتعصبين ضد الاسلام رأى نول ديك مثل هيرشفيلد وبول ، وأخذوا يدافعون عن رأى نول ديك برغم أنه إقتنع فيها بعد بخطأه وعدل عنه .

ونحن سنترك لبعض المستشرقين العدول ، دفع هذا الرأى الخاطىء وإثبات عقمه وتهافته فنأخذ رأى « لوت » وبوير » دفاعا عن القرآن الكريم والاسلام والمسلمين .

يقول « لوت » وبوير « إنهما لا يستسيغان القول بأن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف يقبلون أن يضيفوا إلى كلام الله ما ليس منه ، أو يقروا أى إضافة إليه ، ويجزمان بأنه لا يتصور عاقل أن اولئك الأعلام الأدقاء الذين كلفوا بوضع المصحف الأخير يمكن أن يجيزوا إنضمام رموز بشرية إلى كتاب الله أو أن يستبقوا فيها كلفوا بمراجعته رموزا لمعاصريهم .

إن ما قذف به بعض المستشرقين من هجوم على فواتح السور يعد عدوانا

على العلم ، وظلما على الحق ، قبل أن يكون عدوانا على الإسلام وإفتيانا بالقرآن الكريم .

إن الأراء الفجة التى يلوك بها بعض المستشرقين المتعصبين على الاسلام والقرآن الكريم ، لهى تدل على السطحية فى الفهم .

ويرد بلاشير وهو أحد المستشرقين المعتدلين على هذه الإتهامات على فواتح السور ، يقول :

أنه ينبغى الرجوع إلى نظريات المسلمين الأولين والإستمساك بالآراء التى سردها الطبرى وغيره ، والتى يرى أدقها أن فواتح السور هى اختصارات لأسماء إلهية .

ونحن نرى أن عجز المستشرقين لجهلهم عن فهم الغاية من فواتح السور هو الذى جعلهم يلوكون بهذه السخافات التى تنطق بالإفتراء والكذب على كلام الله .

يقول بلاشير فى عبارة أخرى (١٢) . يقول بلاشير ردا على زعم المستشرقين فيما يتعلق بفواتح السور :

إن اتقياء المسلمين الذين رأوا من العبث محاولة صبر أغوار فواتح السور كانوا وحدهم هم الحكماء .

وهذه كلمة حق من مستشرق غربى تكفى للرد على مزاعم الطاعنين والمفترين على الاسلام .

---

(١٢) هذا هو الاسلام ص ١١٠

٣

٢ ـ رد على دعاوى المستغربين .

بعض المثقفين ثقافة أوربية يزعمون أن قواعد الشريعة جامدة لا تتمشى مع تعقد المجتمعات الحديثة ، وتشابك المصالح بين الشعوب والأمم المختلفة ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . . مما يجعل هناك إستحالة فى تطبيق النصوص القرآنية . . إذ أنها مجملة لا تصلح من الناحية العملية . .

ولم يذكر لنا هؤلاء المثقفون دليلا واحدا . . أو يستخرجون لنا آية من آيات القرآن الكريم تتنافى مع إمكانية التطبيق العملى أو على الأقل تعارض معارضة صريحة أو ضمنية ، مبدأ من مبادىء العدالة والخير والحق ، أو لا تحقق مصلحة الجماعة ، أو تدعو إلى السلبية أو التواكل . . .

إن الزعم بأن القواعد القرآنية جامدة يدل على سطحية الفهم، وكنتيجة لذلك عدم صدق التنبؤ أو الحكم ، فالشريعة الاسلامية قواعدها مرنة لدرجة أنه لا يمكن أن يقرن أى نص بعدم الصلاحية فى الفكر والسلوك والتطبيق . .

ونحن نتحدى دعاوى المتفلسفين ونطلب إليهم أن يقدموا لنا الأدلة على صدق ما يزعمون ، فهم يلوكون بألسنتهم دون أن يأت أحدهم ـ حتى الآن ـ بأى سند أو دليل لتأييد مزاعمهم . . .

إن المبادىء الديمقراطية والاشتراكيات التى تدعى لنفسها الصدارة فى تحقيق المساواة والعدالة والاخاء وتكافؤ الفرص ، كذلك المؤسسات الدولية التى

تدافع عن القيم الانسانية الكبرى ، بالاضافة الى الهيئات الرسمية العالمية التى تدافع عن حقوق الانسان ، إن كل هذه المبادىء والقيم العليا ، قد تضمنها القرآن الكريم والسنة المحمدية بشكل أو بآخر ، وتفوق عليها فى المعانى والغايات بل وفى الوسائل الكفيلة بتحقيقها أيضاً ، وذلك قبل أكثر من إلف وأربعمائة عام . . .

والدليل على صدق ما نقول ، أن شعار المساواة مثلا ـ كقاعدة أساسية مقررة فى الأمم المتحدة فى مطلع هذا القرن ـ ينص على مساواة جميع الناس فى الحقوق والواجبات بين الانسان والإنسان . . ولكن هذه المساواة القانونية عندما تمتحن فى التطبيق العملى نجد أنها ينقصها المضمون وتفتقر الى الايمان بها ، إذ هى دعوة ظاهرة فحسب . . فالمعدم الذى يرتكب جنحة مخالفة القانون الوضعى مثلا ، يحكم عليه بغرامة مبلغ ألف جنيه ، أو السجن ، فى حين أن المليونير الذى يقترف هذه الجنحة أيضا ربما يجد ثغرة فى القانون للاعفاء من الغرامة ، أو إذا تمكن محاميه من تبرئة ساحته بصورة أو بأخرى متى وجد إلى ذلك سبيلا ، وهذا فى كثير من الاحيان لا يتوافر للمعدم الذى وقع فى نفس الجرم . .

وهذا المثال ينطبق على قضايا كثيرة فى القوانين الوضعية ، فالمساواة ، مساواة ظاهرية فحسب ، فإذا ناقشنا هذه القضية من خلال النظرة الاسلامية ، وجدنا أن ذلك الحكم يعد ظلماً فادحاً . إذ أنه لا يبنى على المساواة الحقة ، إذا أن القانون يمكن بهذا الحكم المليونير من ارتكاب نفس الجرم متى شاء . . ثم يدفع ببساطة الألف جنيه . . وكأنه يدفع قرشا واحدا . . أو أنه يوكل محاميه . . فيبرىء ساحته ، فى حين أن المعدم لا يستطيع أن يدفع الغرامة الواجبة ، أو حتى يوكل له محاميا ومن ثم فيسجن إستيفاء للغرامة فى غالب الأحوال . .

وعلى ذلك يمكن القول من وجهة النظر الاسلامية ، أن القاعدة الصالحة للتطبيق فى هذه الحالة أساسها يقوم على أنه لا فرق بين عربى ولا أعجمى ، ولا غنى ولا فقير « ولا ضرر ولا ضرار » . .

ومن القاعدة الاسلامية يظهر لنا أن المساواة الظاهرية فى القوانين الوضعية ليست كافية فى هذه الحالة وقد نتج عنها هذا الظلم ، حيث أنها سارت بين

المعدم والمليونير من حيث الغرامة المادية ، ثم ان المليونير فى هذه الحالة استطاع أن يفلت من العقوبة ، وحتى إذا ما سدد الغرامة فلن يؤثر ذلك عليه ماديا بأى حال من الأحوال . . ولكنها بالنسبة للمعدم تعد عقاباً شديداً ومن الممكن أن تؤثر عليه مدى الحياة . . وكان القانون الوضعى لم يحقق المساواة بالرغم من أنها أحد شعاراته ، فقد أصبح العقاب بالنسبة للمعدم قاسياً وبالنسبة للمليونير سهلا يسيراً . .

ولذلك فإن التكييف القانونى لهذه الجريمة ، حسب قواعد الشريعة ، إنما ينبثق من النظر إلى مصلحة الجماعة . وللجماعة أن تضع جزءا رادعاً يتساوى فى تأثيره على جميع الناس ، فيردع المليونير كما يردع المعدم سواء بسواء . . بحيث تتحقق المساواة الحقة بين الناس . .

إن الشريعة الاسلامية تدافع عن حريات الأفراد فى كل صورها من حرمة البيت إلى حرية الفكر إلى حرية الاعتقاد الدينى ، إلى حرية الانتقال ، تصديقاً لقوله تعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (البقرة : ٢٥٦)

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس : ٩٩)

ويتفوق التشريع الاسلامى على كل القوانين الوضعية فى التكييف القانونى للملابسات المختلفة . .

ويضع القواعد المرنة بشكل يجعلها قابلة للتطبيق فى جميع الظروف . . بحيث تنسحب على كل جريمة أو رذيلة أو فساد أو إفساد فى الأرض وبذلك لا يمكن لأى آثم مهما استخدم من الحيل الإفلات من توقيع العقوبة المقررة عليه ، وذلك مع مراعاة العدل بين الناس جميعا ، حتى ولو كانوا أعداء الإسلام . .

﴿ وإن حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (النساء : ٥٨)

ولا غرو أن نقول أن المثل الذى سقناه يظهر إلى حد كبير أن الجمود المزعوم فى التشريع الاسلامى لا أساس له ولا دليل عليه ، وأن القواعد القانونية فى التقنينات الوضعية هى التى يشوبها الجمود والإفتقار إلى العدل الحق الذى تزعم أنها تنتمى إليه والواقع أنها تفتقر إليه ، لذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ . . (النساء : ٨٧)

٣

٣ ـ الحكماء مطلب الأمة .

يصرح بعض المفكرين هذه الأيام بأن هناك افتقارا إلى الفلاسفة فى عالمنا العربى والاسلامى المعاصر . . ويبينون لنا أن أسباب ذلك الجمود فى التفلسف راجع إلى ضحالة الثقافة وعدم وجود الأصالة الفكرية . .

والحق أن هناك أسبابا أخرى لم يذكرها هؤلاء المفكرون رغم وجاهتها وقربها من واقعنا الحياتى . .

ومن تلكم الأسباب وجود المجتمعات العربية فى فرقة إجتماعية وسياسية واقتصادية . . وهذا بدوره يؤثر فى انتقال الفكر من مجتمع عربى إلى مجتمع آخر ، ومن ثم من مجتمع اسلامى إلى مجتمع اسلامى . . فخطوط الإتصال مازالت مقطوعة وإن وجدت بين مجتمعين عربيين أو أكثر فان ذلك يتم الى حين ولا يستمر كثيرا . .

والمفكر يحتاج إلى وسط مناسب ينتقل فيه ، فإذا إنعدم هذا الوسط كان الإنتقال مستحيلا بين المجتمعات الإسلامية بعضها وبعض . .

وفى الفكر الغربى الحديث نجد أن النظريات الجديدة تنتقل رغم وجود عائق اللغة بين المجتمعات الأوربية والأمريكية بسرعة مذهلة ، وما أن تظهر نظرية جديدة فى إحدى البلدان الأوربية حتى تجد صداها فى أمريكا فضلا عن الدول الغربية الأخرى . . وتنتشر النظريات الجديدة وتبسط بطريقة يمكن

لعامة الناس أن يتفهموها ويتناقلوها بينهم دون أدنى صعوبة . .

ولاشك أن هذه النظريات تمثل تيارات جديدة كردود فعل للأفكار التى لا يقبلها أو التى يرفضها الكثيرون . . فهى بمثابة تعبير عن وجهة نظر جديدة يصقلها المفكر بالحجج والأسانيد لتعبر عن مضامين لمطالب الحياة فى فترة من فترات العصر . .

ويمكن أن نمثل لذلك بالبراجما نية الأمريكية والبنثامية الإنجليزية ، والتيار الوجودى الفرنسى وفلسفة القوة الالمانية وغيرها كثير فى الفلسفات المعاصرة .

فموقف الفلاسفة الغربيين فى نظرتهم وآرائهم الجديدة ، يعبر عن هضم لثقافة العصر ، ثم تقييم لهذه الثقافة من وجهة نظر ذاتية ، بعضها نظرة إعتراض أو شك فى الواقع أو السلوك أو الحياة ، يتبلور فى هضم الثقافات الحديثة أو المعاصرة ثم محاولة لإقامة نظرية جديدة تخالف أو تناقض النظريات السائدة أو القديمة . .

هو تغيير إذن نتيجة للشعور بالملل من القديم ومحاولة لإظهار عقمه وتهافته ثم بناء جديد كمحاولة لإثبات صدقه وواقعيته . .

لكن هذه النظريات ما تلبث أن تتهاوى ، إذ ما يمضى وقت حتى تأتى نظرية جديدة تتناقض مع النظرية القديمة ، وتثبت ضعفها وتبرهن على كذبها أو بعدها عن الواقع المشاهد المحسوس أو الملموس . .

وهذه التيارات الفكرية تزداد أحيانا وتقل أحيانا بحسب متناقضات تخلق مشارب ونظريات جديدة للحياة . .

وإذا ما تعمق الانسان فى هذه الفلسفات فاننا نجدها تحمل جذورا قديمة إلا أنها تنبت أشجارا وأوراقا جديدة . . فالعقل الانسانى لا يستطيع أن يفرغ فكرا من العدم ولا يأتى بالمعجزات ، وإن كان يستحدث شيئا فإنما يصيغه فحسب بصياغة معاصرة بحيث يبدوا وكأنه إبداع وخلق جديد . .

فالفلسفات الحسية والمادية والطبيعية ونظريات اللذة والمنفعة والجنس والوجودية الحديثة فى صورها المختلفة ، كل هذه النظريات لها جذور بعيدة فى القدم عمد الفكر الإنسانى فى العصور المتطاولة أن يتخذ بعضها منهجا له وسلوكا فى الحياة ، وكلما تشبع بها الناس وملوها طلعت علينا نظرية تناقضها

لتحل محل النظرية القديمة التى عملوا على هدمها . .

فأفلاطون قديما نقد نظريات الطبيعيين الأوائل والايليين جميعاً ، وأقام صرح مذهبه على عالم المثال ، ثم جاء أرسطو من بعده محاولا أن يجعل المثال ليس فى العالم المعقول كما ذهب أفلاطون ، وإنما فى العالم المحسوس الذى نعيشه . .

وفى مقابل نظريات اللذة تقف النظريات المثالية فى مواجهتها لتعكس فكرا بعيدا عن الحس والجسمية . . ثم تأتى نظريات أخرى لتتوسط بين النظريتين المثالية والحسية . .

وهكذا نجد الانسانية تلهث وراء الإشباعات المادية تارة والاشباعات الروحية تارة أخرى ، فاذا ما عجز الفكر الانسانى أن يطفىء ظمأ الطالبين ، توسط بين المادية والروحية ، فأخذ من هذه بقدر ومن تلك بقدر ، لكنه ما يلبث أن يضيق ذرعا فيتمرد على كل شىء ويفلسف واقعه بحسب ميوله وأهوائه محاولا إشباع نهمه بأى طريق . .

فالفكر الانسانى دوماً فى التغيير ، لا يتوقف أبدا عن التجديد ولو كان هذا التجديد إرتكاسا وإنتكاسا وردة عقلية . .

ولهذا السبب لا يمكن القول أن الفيلسوف المعاصر قد استفاد بتجارب الاقدمين ، أو أنه وصل فى فلسفته الأخلاقية أو بحثه فى الوجود أو المعرفة إلى منتهى غاية الواصلين . .

لكنه مع ذلك لا يمكن إنكار أهمية ظاهرة التفلسف ، حيث أنها نظرة متعمقة تتمتع بشىء كثير من المعقولية ، بالإضافة إلى أن الفيلسوف يعاون على تعميق مفاهيم الإنسان العادى الغامضة بحيث تبدو فى صورة واضحة للعيان ، بدلا من أن تكون إحساسية وأفكاره غامضة لا تفهم على الإطلاق . .

ولاشك أن الفكرة الجيدة تأخذ طريقها إلى قلوب الناس قبل عقولهم ، وإذا ماهضمت أصبحت سلوكا وأخلاقا وقيما . . والعكس بالعكس فإن الفكرة المنحرفة يمكن أن يحاكيها الجهلة ، وينقاد إليها أصحاب النفوس الضعيفة . ليدفعوا بها كل نقد أو نصح يمكن أن يوجه إليهم . . ومن هنا تبدو اخطار

التفلسف وأهميته بين الخاص والعام ، فما من سلوك سوى أو شاذ إلا وكان وراءه فلسفة ما ، وما من تغير إجتماعى أو سياسى للأفضل أو للأسوأ إلا وقد حركته فكرة طيبة أو رديئة . .

وإذا كان الفكر الفلسفى لا يؤثر تأثيرا سريعا ومباشرا فى الأفراد والمجتمعات إلا أنه لا يمكن إنكار آثاره العميقة على المدى البعيد . فالفكرة ربما تهمل سنوات وسنوات أو قرون ثم ما تلبث أن تعاود الظهور ، وتسيطر على أذهان الناس بعد كمونها ، فيتخذونها شعارهم ومبدأهم فى الحياة لسنين وقرون . . وهكذا فان الكفر الفسلفى يمكن أن يؤثر تأثيرا عميقا فى قلب الإنسانْ وعقله ، ومن ثم فى الشعوب والمجتمعات المختلفة . .

لهذا فان الفكر الفلسفى فى الأمة العربية بخاصة والإسلامية بعامة فى حالة كمون رغم وجود التناقضات بين المجتمعات العربية والإسلامية التى تساعد على ظهور نظريات جديدة تفسر الحياة الإجتماعية والأخلاقية . .

وبالرغم من وجود هذه التناقضات فإنه فى تصورنا ـ لن تظهر عما قريب ظاهرة التفلسف نظراً لعوامل متعددة ليس من بينها الافتقار إلى الفيلسوف ذاته ، ذلك لأن فى الامة الاسلامية عقولاً مفكرة لا تقل قدرة على التفلسف عن عقول المفكرين الغربيين .

لكن سبب كمون ظاهرة التفلسف راجع إلى إنشغال الناس بالاشباعات الاقتصادية التى يجدوا مشقة فى اشباعها ، الأمر الذى يتطلب جهداً ووقتا يستحوذ على كل تفكيرهم ، فكيف يمكن التفلسف والأمعاء خاوية تستحث الفرد على طلب الغذاء ، إلا أنه متى أخذ الفرد الحد الأدنى من الغذاء وضمن ذلك فى المستقبل ، فإنه مما لاشك فيه سيطرح جانب الخمول ليبدأ من جديد فى التفكير المتعمق المنظم . .

ولا يعتد بالقول بأن هناك بعض المجتمعات الإسلامية تعيش الآن فى ترف إقتصادى ، إذ أن تلكم المجتمعات لا تمثل أكثر من خمسة بالمائة من المسلمين . بالإضافة إلى أن ذلك الترف الإقتصادى إنما نشأ طفرة وليس متدرجا فى مراحل ، ثم ان هذه المجتمعات الصغيرة مازالت تعمل على التهام الثقافات المحلية والعالمية ، بعد أن مضى عليها وقت طويل وهى تغرق فى الفاقة والجهل والأمراض . .

ونحن لا نريد أن ندعو إلى التفلسف لنحاكى المجتمعات الأوربية الحديثة إذ أن ذلك النوع من التفلسف استفراغ وليس هضما طبيعيا للأفكار . .

إنما التفلسف تعبير عن موقف يجب أن يتبع من ذاتية الأمة ، إذ أن أفرادها هم جزء لا يتجزأ منها ، وهم المعبرون عن طموحاتها وأمانيها المستقبلية . .

هناك ثقافة غربية تغزو الأمة الاسلامية شاءت أم لم تشأ ، وهناك محاولات عديدة لإيقاف غزوها ، لكن ليس هناك بعد ، الفكر المتعمقة وهى الأصل الثالث لبناء صرح الموقف الإسلامى المعاصر . . ذلك لأن هناك نوعين من الانفصال الفكرى بين المثقفين ، بالإضافة لقطع سبل الحوار والمناقشة بينهم ، وعدم وجود قنوات طبيعية لإظهار وجهات النظر وفهم كل فريق لآراء الآخر . .

قد يوجد حقاً بعض الاتهامات والطعون فى نظرة كل فريق إلى العالم والواقع والحياة ، وتتصاعد أدخنة كثيفة لتحجب الرؤيا فلا يرى كل فريق وجه الآخر . .

وإذا ظهر أحد المفكرين المجتهدين محاولا إلتقاط وجهة نظر الفريقين وجمع شمل المفكرين ، فإنه يحارب من كل من الفريقين ، حيث أنه لم يأخد بنظرة أى منهم إذ أنه يحمل فى طيات فكره بعضا من نظرة خصومهم . .

وإذا قدر للأمة الإسلامية أن تفيق من سباتها ، فإنه لن يتحقق ذلك فى تصورنا إلا إذا هضمت التراث الإسلامى ، وتطلعت بعد ذلك إلى الثقافة الغربية لتنهل منها ما تشاء ، بعد ما تكون قد تجهزت بدروع واقية من شريعتها ودينها القيم . وإذا لم يتحقق لها ذلك فإنها ستذوب حتماً فى الثقافة الغازية ، كما هو حادث لفريق من المسلمين الذين يديرون المؤسسات الثقافية ، أو يتجمد الفريق الآخر فيعيش فى عزلة عن المعاصرة ، ويظل يردد كلام الأولين فى القرن الرابع الهجرى دون أن يبحث عن البدائل التى يمكن أن يقدمها فى مواجهة الفكر الأوربى الغازى ، بل يخرج لنا بعض كتب التراث ليضيف إلى هوامشها بعض التعليقات أو الشروح اللغوية لبعض مصطلحاتها . .

ويظل الفكر فى غيبة عن الوجود وقد حبسه كل فريق فى غرف متناثرة بعيدة بعضها عن بعض ، وبرغم أنهم يقطنون بيتاً واحداً ، فإن كل فريق لا يعرف

عن الآخر شيئاً ، وحتى لو علم شيئاً فإنه يعلمه بصورة مشوهة إذ تنقل إليه فى صورة تهدد وجوده نفسه . .

وعلى سبيل المثال هناك فكر ماركسى يدعو لنفسه باسم الاشتراكية ، وفكر ليبرالى يدعو إلى تمجيد الفرد والحرية . وأما الفكر الثالث فإنه يمثل العقيدة الإسلامية فى ثباتها ووضوحها ويسرها وفطرتها وبساطتها فى التطبيق . .

لكن أصحاب الفكر الإسلامى لا يعبرون عنه إلا بطريقة مشوهة ، وكأنهم ينعتون الإسلام بالإسراف تارة والتقتير تارة أخرى ، إذ أنهم يتركون الأصول ويهتمون بالفروع والأوراق ، وكيف تنبت الأوراق مالم تركز على الجذور ، فتتعهدها بالرعاية . . وكأنهم يظنون أن الناس جميعاً على معرفة مسبقة بخصائص وأصول الإسلام ، ولذلك ينصب جل اهتمامهم على بعض المظاهر الشكلية التى لا تؤثر فى قليل أو كثير فى إيمان المسلم . .

ويتلقف خصوم الإسلام من الماركسيين والليبراليين هذه المظاهر الشكلية فى حرص شديد ، لينشروا على الملأ أن الاسلام هو عبارة عن تلك الشكليات التى تتعارض مع أسلوب الحياة المتمدينة ، وكأنهم يقولون بصوت واحد أن الاسلام هو ردة ورجعية عن التقدم الحضارى . . وربما يقنع هذا الزعم الكثير من الذين لا يفقهون شيئاً عن أمور دينهم ، فيسايرون هذه الدعاوى الطاعنة فى الدين القيم والشريعة الغراء . .

ولا يقف هذا التصارع بين أصحاب الماركسية والليبرالية وبين المسلمين ، بل يمتد أيضا بين الماركسيين والليبراليين أنفسهم كمحاولة لإثبات وجودهم فى واقع الأمة الاسلامية . .

وتنحاز بعض المجتمعات العربية والاسلامية إلى الماركسية حينا ، وتلبس إزارها ثم ما تلبث أن تجده مرقعا وضيقا ، لا يحقق لأفرادها إلا التعاسة والشقاء ، فتنفض هذه الازار لترتدى مسوح الليبرالية الفضفاضة فتشعر بالغربة . وتمرض هذه المجتمعات مرضا شديدا يمنعها عن الجهاد ، فتركن إلى الخمول وتصبح أكثر تخلفا وتفككا . .

إن جمع شمل الأمة الإسلامية لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الفكر ، والفكر الآن غائب عن الوجود ، فكل مجتمع من المجتمعات الاسلامية يفكر

فى نطاقه المحلى بمايحقق إشباعاته ، دون أن يهتم بالمجتمع الأم ، وكأنه أصبح راشدا وقد فطم من عهد بعيد ، لذلك يجب أن يتصرف فى حرية تامة . . ومن هنا كثرت الخلافات والاحقاد بين حكومات الأمة ، الأمر الذى جعل ألحانهم جميعا نشازاً لا تسمع حتى لدى شعوبهم . . وقد نسى الجميع أنه لن تقوم لهم قائمة إلا بالوحدة والرجوع إلى هدى الدين . .

ولايمكن أن يقوم حل إلا عن طريق افساح المجال للقنوات الفكرية للتعبير الحر الصريح لإصلاح ما أفسدته الأهواء الذاتية . .

والإيثار هو المعامل الناجع الذى يمكن أن يربط بين شعوب الأمة العربية ويحقق لها التوحد مرة أخرى بعد أن أصبحت دويلات مغلوبة على أمرها . .

ولن يقبل الإيثار كقيمة عظيمة من القيم الإسلامية ، إلا عن طريق التبادل الثقافى والاقتصادى والتعاون فى مجالات الحياة المختلفة بين شعوب الأمة . .

فإذا ماتم ذلك عملا وفعلا فان الفكر الاسلامى سينبت شامخا فى هذا الزمان كما كان فى عصوره الزاهرة . .

والأمة الاسلامية لا تحتاج إلى فلاسفة ليخترعوا لها أنساقاً ومذاهب وأفانين من عند أنفسهم ، يمتزج فيها الحق بالباطل والخطأ بالصواب ، الأمة الاسلامية لا تحتاج إلى فلاسفة ذاتيين ، إنما تحتاج إلى حكماء يأخذون مفاهيمهم وقيمهم وفكرهم من الينبوع الذى لا ينضب ، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

الأمة الاسلامية الآن تحتاج على الحقيقة إلى المفكرين الاسلامية الذين يستطيعون أن يهضموا الثقافة الغربية ، ثم يضيفوا إضافات حية إلى التراث الانسانى والحضارة الحديثة . إن الحكماء بالمعنى الاسلامى ليسوا الفلاسفة ، فالحكيم هو الذى يسير على المنهج الربانى ، وهو صاحب فطرة سليمة وعقل رشيد فلا يجنح إلى المادية فيسرف فى الأمر ، ولا يتقوقع وهذا موقف المتبطل السلبى .

إن الحكيم هو المتوازن المعتدل الذى يعتبر الدين القيم والشريعة السمحاء ، هاديا لعقله ونفسه وقلبه جميعا ، ومن هنا يهدى إلى الحكمة ، والحكمة هى أعلى مرتبة يمكن أن يحظى بها انسان فى أى زمان وأى مكان ،

مصداقا لقول عز من قائل :

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

نحن نحتاج فى الوقت الحاضر إلى حكماء لا فلاسفة حتى نسترجع حضارة المسلمين الزاهرة التى أشرقت على العالم كله لعدة قرون ، فملأت الدنيا علماً ورشداً وعرفانا .

ولن يتحقق للمسلمين غاياتهم العظيمة إلا بنصرة دين الله ، ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالحكمة ، وبالحكمة وحدها يتقدم المسلمون فى مناحى الحياة المختلفة طفرات ، فيتجاوزوا وأسبقت إليه الحضارة الغربية فى خطوات قليلة .

ooo
oo
o

الباب الثاني

المنهج العلمى وتصنيفات العلوم عند المسلمين

المقدمة

قبل أن نتعرض لتصنيفات العلوم عند العرب والمسلمين ، يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء لنرى إلى أى حد قد تأثروا بالفكر الأفلاطونى والأرسطى فى تصنيفاتهم للعلوم ، وإلى أى حد يصدق القول بأن الفلسفة الاسلامية بل والفكر الاسلامى هو امتداد طبيعى للفلسفة اليونانية ؟!

ولقد غلا كثير من المستغربين والمستشرقين فى القول بأن المسلمين كفلاسفة وعلماء ، لم يأتوا إلا بشذرات يسيرة من الفكر الجديد ، وأن كل ما فعلوه إنما هو شروح لفلسفات ما سبقهم من اليونانيين .

وهذا القول فيه غلو وإسراف ، بل تعصب شديد ضد العرب والمسلمين ، فالفكر الإسلامى المزدهر فى القرون الوسطى عندما كان الأوربيون فى ظلمة الجهالة ، قد أشرق وأن نور العلم الإسلامى بخاصة والعربى بعامة على ، قد ملأ الدنيا رشداً وعرفانا .

لقد تدارس المسلمون العلوم المختلفة بعد أن صنفوها تصنيفا جديدا يتلاءم مع هداية الدين ، والدعوة إلى التوحيد ، وبرز فلاسفة وعلماء من المسلمين أمسكوا بعجلة القيادة للفكر الانسانى لقرون متطاولة ، فأخذ عنهم القريب والبعيد ، وتعلم على يديهم الأعجمى والعربى والأجنبى ولم يبخل العلماء المسلمون بعلمهم على أحد ، ليس خوفا من العباد ، وإنما خشية من الله الذى أمر العالم المسلم بأن لا يدخر وسعاً فى تعليم غيره ونشر العلم على الجميع .

فالعلم بالمعنى الاسلامى كالماء والهواء يجب ألا يحجر ، بل على كل من تعلم علماً عليه أن يعلمه للآخرين ، سواء كان ذلك الآخر من المسلمين أو من غير المسلمين .

وبذلك فتحت سماحة الاسلام ذراعيها ليأتى إليها من كل حدب طلاب العلم والدارسين ، لينهلوا من علوم المسلمين ويستفيدوا من فكرهم الخصب ، وشريعتهم السمحاء ، ودينهم القيم ، فتعلموا اللغة العربية وآدابها وانتهلوا من مناهل علوم القرآن والعلوم العملية ما وسعهم إلى ذلك من سبيل ، وهذا ما سنتعرض إليه بالتفصيل فى الفصول اللاحقة من هذا المؤلف .

ο ο ο
ο ο
ο

١

١ ـ خصائص المنهج العلمى وأصوله .

● أولا : العــلم :

تنزل القرآن الكريم لتستكمل به رسالات السماء ، ويختتم به الشرائع مبينا فيه الله تعالى للناس طريق الحق وطريق الباطل ، وما يكفل للناس جميعا ـ أمما وشعوبا وقبائل ـ السعادة فى الدنيا والآخرة . . .

والإسلام كخاتم الرسالات السماوية يهتم اهتماماً عظيما بالعلم والعلماء لا نجد له من مثيل فى أى من الشرائع السماوية الأخرى أو النظم والقوانين البشرية والوضعية ، يقول عز من قائل عن منزلة العلماء :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾
(المجادلة : ١١)

إن مفهوم العلم فى الإسلام ليس فى كثرة التحصيل والدرس فحسب ، وإنما العلم الصادق هو الذى ينتفع به الناس ، كما أنه الذى يسبغ على صاحبه الحكمة فيصبح طبعاً ملازماً له فى سلوكه الأخلاقى :

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

يقول الرسول ﷺ :

---

(١٣) لمزيد من الايضاح الرجوع إلى مؤلفنا نحو علم نفس إسلامى .

﴿ أكرموا العلماء لأنهم ورثة الأنبياءفمنأكرمهم فقد أكرم الله ورسوله ﴾
(رواه الخطيب عن جابر)

وغاية العلم فى النظرة الاسلامية هو خدمة البشرية والانتفاع به فى أعمال البر والخير يقول الرسول ﷺ :

﴿ أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل أمكنه طلب العلم فى الدنيا فلم يطلبه ورجل علم علما فانتفع به من سمعه منه دونه ﴾
(رواه ابن عساكر عن أنس)

ويفضل الاسلام العلم عن العبادة ، لأن العبادة ، علاقة خاصة بين العبد وربه أما العلم فانه عبادة عامة لذلك يقول الرسول ﷺ :

« عالم ينتفع بعلمه خير من ألف عابد » (رواه الديلمى عن على)

والعالم الحق لا يبخل بعلمه [٢] . . لانه يعلم أنه من فضل الله وعطايا الله ومنن الله عليه ، وليس علمه تشريعا جديدا ، أو نظاماً استحدثه . أو خلقاً أوجده من عدم ، إنما هو عبد مخلص لله مجاهد فى سبيله ، سائر فى طريقه ، متوكل عليه بالكلية ، فيما يرتزق به من معارف يحمد الله عليها ، وعليه أن يجود بعلمه لمن يطلبه من المستحقين ، إذ أن كتمانه شح وبخل وأثرة وأنانية ، يقول الرسول ﷺ :

« كاتم العلم يلعنه كل شيء حتى الحوت فى البحر ، والطير فى السماء »
(رواه ابن الجوزى عن ابن سعيد)

● ثانياً : العالم :

العالم فى الإسلام ذو درجة عظيمة ومكانة عالية ، فالعلماء هم أمناء الرسل مالم يخالطوا أهل السلطان ويداهنوهم ، يقول الرسول ﷺ :

« أكرموا العلماء فانهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله »
(رواه الخطيب عن جابر)

فالعالم فى الاسلام ليس الذى يعلم العلم فحسب ولا يعمل به ، إذا العلم مقرون بالعمل فالعالم الذى يقبل على طلب العلم ليفسد فى الأرض ، أو ليهدم

- راجع الشيخ ابو طالب المكى - قوت القلوب الجزء الأول ص ١٥٧ - ١٦٥ .

القيم العليا ، أو يظلم الناس ، أو يبتعد عن مكارم الأخلاق ، أو يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف ، لا يعد فى نظر الاسلام عالماً وإنما جاهلا مفسداً :

« ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم »

(آل عمران : ٦٦)

« ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وماليس لهم به علم »

(الحج : ٧١)

ليس العالم إذن ذلك المنافق والمرائى الذى يضلل الناس ويخدعهم ، يقول الرسول ﷺ :

« ويل لأمتى من علماء السوء » . (رواه الحاكم عن أنس)

« العالم والعلم والعمل فى الجنة ، فإذا لم يعمل العالم بما يعمل كان العلم والعمل فى الجنة والعالم فى النار »

(رواه الديلمى)

فالعالم بالمعنى الاسلامى هو المخلص الطائع العارف بالله ، الذى أوتى الحكمة ، العالم بما يعلم ، فإن العلماء هم المقصود بهم قوله تعالى :

﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾

(آل عمران : ٧)

والعالم الذى يرسخ فى نفسه علم اليقين لا يحصل علمه بطريق الكسب والتحصيل فحسب ، وإنما لصدقه وإخلاصه يعلمه تعالى ويلهمه بالحق ويثبت قدمه بالقول الثابت ، يقول تعالى :

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾

(ابراهيم : ٢٧)

● ثالثاً : *طالب العلم :*

ينظر الإسلام إلى طالب العلم على أنه شريك للعالم فى الخير ، وقرينه فى الجنة ، ويدعو الرسول - ﷺ - إلى طلب العلم لأنه السبيل الأمثل الذى به يتمكن طالب العلم من أن يصبح عالماً بقول الرسول - ﷺ -

« العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس لا خير فيهم »
(رواه الطبرانى عن أبى الدرداء)
« تعلموا العلم ما شئتم فوالله لا تؤجرون بجمع العلم حتى تعلموا »
(رواه أبو الحسن بن الأحزم عن أنس)

ويحث الرسول الكريم الناس على طلب العلم لينعم المسلمون به وليسترشدوا به وليعلموه لغيرهم حتى أنه يجعل سلاح العلم أقوى أسلحة المسلم فى الحياة . إذ به ينتصر على أعداءه فيقول :
« أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً يعلمه أخاه المسلم »
(رواه ابن ماجه)

كما يؤكد الرسول ﷺ منزلة طالب العلم الرفيعة فيقول :
« طالب العلم طالب الرحمة ، وطالب العلم ركن الاسلام ، ويعطى أجره مع النبيين »
عن أنس رضى الله عنه

لقد خير سليمان [٣] بين المال والملك والعلم ، فاختار العلم ، فأعطى الملك والمال ، بالاضافة إلى العلم . . وسبب إختيار سليمان للعلم أن العالم يشهد بعين فؤاده ويقين روحه وحكمة عقله جميعا أن لا إله إلا الله فيصل إلى أنوار التوحيد ، وفى هذه الدرجة يعرف أن :
﴿ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (الأنفال : ١٧)
ويوقن أن :
﴿ ماخلقت هذا باطلاً سبحانك ﴾ (آل عمران : ١٩١)
ويهدى إلى :
﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣)
ويعلم أنه :
﴿ يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض ﴾ (الجمعة : ١)
ويشهد أنه :
﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾
(المجادلة : ١١)

(٣) سليمان بن داود عليه السلام .

فكيف يترك سليمان ـ عليه السلام ـ نعمة العلم النافع فى الدنيا والآخرة ليحظى بمتاع الدنيا القليل . ان النبى سليمان كان حكيماً فى اختياره :

﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ (الدخان)

● رابعاً : العالم والجاهل والأمى :

يميز فى الإسلام عن العالم بأنه الراسخ فى العلم ، الصادق الحكيم ، الموقن بوحدانية الله والذى يشهد ـ على الحقيقة ـ بأن ل إله إلا الله ، العامل بما يعلم ، المتأمل فى حكمة الله البالغة ، وقد وردت فى هذا المعنى آيات الله البينات فى قوله تعالى :

﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .
(آل عمران : ٧)
﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ (يونس : ٢)
﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .
(المجادلة : ١١)
﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ .
(آل عمران : ١٨)
﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ .
(البقرة : ٢٦٩)

العالم على الحقيقة هو صاحب النفس المستقيمة ، والقلب السليم ، والعقل المستنير ، فما يعلمه ينسبه لله ، وما يجهله فلا يفتى به ، ولا يجتهد برأيه فيه ، حتى لا ينحرف إلى الغفلة ويقع فى الظن والوهم والريبة والشك . .

أما الجاهل فهو الذى يتبع هواه ، ويظلم نفسه ، وينقاد إلى طيش عقله وغروره ويطيع شهوات نفسه ، فيظن كذباً ورياء أن قوله حق وعلمه صادق وهو أبعد ما يكون عن الحق والصدق :

﴿ ان يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾
(النجم : ٢٨)

والجاهل عندما يفسر أمرا من الأمور يضع نسبة خاطئة أو علاقات باطلة أو

ظواهر متوهمة ، فيزعم مثلا :

« أن اللذة غاية الحياة »

أو يدعى :

« أن الغريزة الجنسية هى أساس تكوين الشخصية الانسانية »

أو يظن :

« أن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ، ولا أثر لوجود خالق خلقها » .

فالجاهل أبدا يجهز نفسه بأسلحة واهية ، ومزاعم كاذبة ، وعلوم ظنية لا يؤكدها دليل ولا يقبلها منطق سليم ذلك لأن نفسه منحرفة عن طريق الاستقامة : والجاهلون نوعان :

١ ـ المجاهر بغير علم . .

٢ ـ المجاهر بغير علم ولا هدى . .

وهذا الصنفان غافلان تأييداً لقوله تعالى :

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾
(الكهف : ٢٨)

أما العالم فنظرته إلى الأمور صحيحة ، يأخذ علمه من الله ويسعى مجاهداً فى سبيله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشهد أن ما يأتيه من علم تفضل من الحق تعالى :

﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ (النساء : ٨٧)

ويختلف الأمى عن الجاهل ، كما يختلف عن العالم ، فإذا كان الجاهل لديه نسبا ظنية يجزم بها رغم أنها غير واقعية ، كما أنه لا يمكن اثباتها عقليا أو عمليا فإن للعالم نسبه صحيحة وواقعة ومجزوم بها ، ويمكن اثباتها ، أما الأمى فليس لديه على الاطلاق نسبا يدعيها ، وبالتالى لا يجزم بها أو يحاول فرضها أو إثباتها ، فهو لا يدخل فى دائرة العلماء ، كما أنه لا يدخل فى دائرة الجهلاء .

فإذا لقن الأمى العلم فيصبح له بذلك نسباً صحيحة يمكن أن يجزم بها ، وأن يثبتها . فيسمى بذلك عالماً ـ أما إذا لم يعلم العلم ويعرف بالنسبة الصحيحة يبقى على ماهو عليه من الأمية . .

٥ ـ خصائص المنهج الاسلامى

يستقى المنهج الاسلامى أصوله من شريعة الله التى لا تبديل فيها ولا تناقض أو إختلاف ، ولا تحتاج إلى عناء وتفلسف وكثرة جدل ولجاج من أجل الإيمان بها والموافقة عليها ، وتفهم معانيها وألفاظها ، كما هو مشاهد فى المناهج العلمية الموضوعية والمذاهب الفكرية ، والنظريات الفسلفية الذاتية . .

ويمكن تبيان بعض خصائص هذا المنهج (٤) على قدر ما تيسر لنا تفهمه من كلمات الله التامات ، وإستيعابنا من فضل نبيه الأمين محمد ﷺ وهذه الخصائص هى :

١ ـ فطرى . .
٢ ـ كامل . .
٣ ـ ثابت . .
٤ ـ صادق . .
٥ ـ شامل . .

● أولا الفطرية :

إن من خصائص المنهج العلمى الإسلامى أنه يخاطب الإنسان بلغة يفهمها دون عناء ، وذوق خاص يلهم به بلا تكلف ، وفكر يتأمله دون غموض ، وحقائق ينشرح بها الصدر دون تعقيد . ومعان تقذف إلى فؤاد فلا يكذبها يقول عز من قائل :

﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ (الروم : ٣٠)

إذن هناك فطرة سليمة فى الإنسان (٥) إلا أنه إذا استكان لجبلات النفس طغى عليه الضعف البشرى ، وملكته الشهوة ، ونسى وغفل أمر الله ، وأطاع عقله واتبع غواية الشيطان ، أما إذا جاهد النفس والشيطان ، استقام فى طريق الحق ورحمه الله وهداه إلى فطرته السليمة . .

---

(٤) راجع : ابو الأعلى المودودى ـ مبادىء أساسية لفهم القران ص : ٥٦ ـ ٦٩ .

(٥) راجع : عبدالعزيز جاويش ـ الإسلام دين الفطرة ص : ٤٢ ومابعدها

فإقامة الوجه للدين هى فطرة سليمة فى الإنسان إذ هى استرسال مع الله ، واسقاط للتدبير معه تعالى ، وتوكل دائم عليه فى كل أمر وفعل ، وعدم الإعتراض بالكلية على مشيئته وقضائه . .

والرجوع إلى الفطرة السليمة رجوع للحق [٦] وهو الأصل ، هو من فضل الله ورحمته وهديه فيسعى الإنسان إلى مخالفة الأهواء والظنون الفاسدة فيتعرف على نفسه « ومن عرف نفسه عرف ربه . .

● ثانيا الكمال :

إن المنهج الإسلامى الذى يستلهم أصوله من القرآن الكريم ، والسنة المحمدية الشريفة وهو أفضل منهج يمكن أن يختاره الإنسان فى هذه الدنيا ذلك أنه يمتاز بالكمال فى كل شيء ، فلا يجد المتأمل متناقضا فيه ولا نقصا ولا عوجا ، كما نجد فى المناهج البشرية :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾
(الحج : ٧٣)

إن أى منهج يضعه الانسان من عنده مهما وعدا أصحابه بادعاءات كاذبة ، وشعارات باهتة ، ومزاعم باطلة ، ومن أنه يستهدف تحقيق السعادة لطالبيه ، ما يلبث أن يكشف عند التجربة فساد دعاويه . .

إن الكمال الذى يحققه الإيمان بمنهج الله لا يحققه أى من هذه المناهج مهما صورت للناس على أنها تستهدف العدل والحق ، ذلك أن أكثرها فى تلك المناهج التى يشرعها البشر يتنافى مع الحقائق الإلهية ، إذ لا تتبع حكمة الله البالغة ، ودينه القيم ، وآياته التامات الكاملة :

﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾
(البقرة : ١٠٦)

إن الكمال فى التشريع الإلهى يحمل للانسان معنى العزة ، إذا اتبع طريق الاستقامة والإعتدال والقسط والقصد والحق ، وهذا الكمال يتوخى الوسط العدل الذى لا تبذير فيه ولا تقتير ، ولا إسراف ولا تفريط ، وإنما هو الخير

---

(٦) المرجع السابق ص : ٢٢ وما بعدها .

الفاضل الذى يعبر عن الخير والحقيقة فى كل شىء :

﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾
(الاسراء : ١١٠)

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾
(الاسراء : ٢٩)

فالكمال هنا فى إتباع النفس للوسط العدل الذى هو الصراط المستقيم ، فكما أن الكون كله يتبع هذا الوسط ، كذلك فإن الأمة الإسلامية أمة وسطا ، وهذا الوسط معناه الحكمة التى هى الخير الكثير :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ (البقرة : ١٤٣)

لذلك فإن منهج الله وشريعته أكمل رسالة وأتمها وأقوم دينا ، وأرضى لله عقيدة وحكما :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (المائدة : ٣)

● ثالثا : الثبات

إذا تيقن الإنسان بفطرته السليمة أن طريق الله هو الحق فإنه يربط الله على قلبه ، ويثبت أقدامه، فلا يشك فى أمر الله ، ولا يتردد فى طريقه ، إذ تفتح أمامه السبل ، كما وعد الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾
(محمد : ٧)

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾
(إبراهيم : ٢٧)

والمنهج الإسلامى ثابت فى حقائقه ، يحظى فيه المؤمن بدرجات تزداد يوما بعد يوم من العلم والمعرفة واليقين ، فلا يخذله أو يتركه تعالى مادام سائرا فى طريق التوحيد والإيمان :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾
(المجادلة) ١١)

منهج الله ثابت فى الزمان والمكان ، والله لا يستحى أن يقول الحق :
﴿ وآتيناك بالحق ، وإنا لصادقون ﴾ (الحجر : ٦٤)

● رابعا : الصدق

يختلف معنى الصدق فى المنهج الإسلامى عنه فى المناهج الحديثة التى تستهدف الموضوعية دون الإعتداد بصدق الذات العارفه ، إذا تهتم فى المقام الأول بصدق المقدمات وصدق النتائج فحسب ، ومن الملاحظ إن هذا الصدق الذى تنشده هذه المناهج يتغير بتغير الظروف والأمكنة ، ويكتشف الباحث أن ما أثبت صدقه بالأمس يظهر كذبه اليوم . .

أما المنهج الإسلامى فإنه يستقى أصوله من الشريعة الغراء ، ومن الله العالم على الحقيقة ، لذلك فإن صدقه كامل فى كل شيء :
﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ (النساء : ٨٧)

ويبين لنا الرسول ﷺ فوائد الصدق ، وخساسة الكذب ، فيقول : « يظل الرجل يصدق ويصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويظل الرجل يكذب ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ويرى الإمام الترمذى أن الصدق يتعلق بناحيتين :
١ ـ ناحية عقلية . . .
٢ ـ ناحية أخلاقية . .

فالصدق من الناحية العقلية يعنى العدل ، والعدل أساس المعرفة ، وأما الصدق المتعلق بالناحية الأخلاقية فإنه يعنى الحق والحقيقة ، وبذلك يكون الصدق صورة متكاملة للعالم من الناحية العقلية والسلوكية ، أو من حيث العلم والعمل ، أو من حيث الذات والموضوع . .

فالصدق صورة متطورة للمعرفة تبدأ من الحق وتنتهى إليه . وللصدق مقومات ثلاث :
١ ـ المثل العليا . .
٢ ـ علم الاسرار . .
٣ ـ البصيرة . .

● خامسا : الشمول

إن منهج القرآن الكريم يربط التعاليم الخلقية بالنظام الكونى ، فيدعو إلى الاستقامة وإتباع الخير فى الوقت الذى تشير فيه الآيات القرآنية إلى بديع خلق السموات والأرض وما سخر للانسان من أنهار وبحار ودواب وجبال وشمس وقمر وسحب يربط ذلك بالنصيحة والعبرة ، كما نجد آيات التخويف للكافرين ، والتأنيب للغافلين ، تتبعها آيات التبشير للصادقين والتثبيت للمخلصين ، مع تقرير الثواب والعقاب لكل فريق . .

القرآن الكريم إذن يعالج أكثر من موضوع فى آن واحد دون أن تختلط المعانى وتتفرق السبل ، إنما يتم الترابط بين الموضوعات فى إبداع محكم ، وأسلوب معجز فى إطار شمولى عام :

﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعقلون ﴾ (فصلت : ٣)

إن ما يستهدفه تعالى من الدين معرفة الله ، وهى توحيد ، والتوحيد يحتاج إلى العلم ، كما يحتاج العلم إلى الصدق واليقين ، ومن هنا يهتم المنهج الإسلامى بمخاطبة الناس جميعا . . مؤمنهم وكافرهم ، أبيضهم وأسودهم ، مخلصهم ومنافقهم ، تائبهم وظالمهم ، عالمهم وجاهلهم . .

والشمول فى المنهج الإسلامى ، آية من آيات الله البينات ، تتحدى من يجاهر بغير علم ولا هدى ، ويناطح حكمة الله البالغة ، إذ أنها واضحة تماماً تشهد بالصدق :

﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ (الطلاق : ١٢)

● سادسا : العمومية

يخاطب الله تعالى الناس كل الناس ، بآياته المعجزات ، كافرهم ومؤمنهم حتى يتحقق ما استهدفه تعالى من الدين ، وليقبل كل إنسان هذا الخطاب بحسب إدراكه للحقائق ، وفهمه للأمور ، وقدرته على الإستيعاب ، فكل ميسر لما خلق له :

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (البقرة : ٢٥٦)

وإذا وعى الإنسان وعقل ماهداه الله إليه بفطرته السليمة ، سار فى طريق

الحكمة وشرح قلبه الى نور الإيمان ، وثبته تعالى بالقول الثابت :

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾
(إبراهيم : ٢٧)

ومن حكمة الله البالغة أن يكون خطابه للأمى غير خطابه للجاهل ، كما أنه غير خطابه للعالم ، فما يصلح لنفر من الناس شفاء وعلاجاً ، ربما يصلح لآخرين زيادة فى العلم ، كما أنه يصلح لنفر ثالث توجيها وإرشادا ، فكل خطاب من الله يصلح لكل مقام ، وكل إناس يفهمون من كلامه تعالى حسب درجاتهم ، وكل كلام يصدر عن الله تعالى فيه حكمة بالغة للناس جميعا دون إسراف أو إقلال ، إنما بلاغة فى القول والمعنى ، تستهدف غاية حكيمة ، وقصداً عدلا صالح فى كل زمان ومكان .

فالمنهج الإسلامى منهج متكامل ، لا يركز على ناحية واحدة فى الطبيعة أو الكون ، أو على فكرة محددة ، أو صياغة معينة ، أو تشريع يقصد به الوصول إلى مصالح مؤقتة ـ كما تفعل القوانين الوضعية والتشريعات البشرية ـ إنما سبحانه تعالى يشرع للانسان فى كل مكان وزمان للصلاح والإصلاح . .

هذا التكامل فى المنهج لا نجده فى أى من الشرائع والأنظمة والقوانين ، سواء الحديث منها أو القديم . .

أصول المنهج العلمى الإسلامى

١ ـ الوسط العدل :

الوسط الإسلامى ليس وسطاً حسابياً أو تقريريا ، إنما وسطاً عدلاً وميزاناً قسطاً تم به خلق السموات والأرض والإنسان ، فكل شىء فى هذا الكون يسير بميزان قسط فلا ينحرف قيد أنملة عن مساره وإلا إختل التوازن وعمت الفوضى ، وأستشرى الفساد (٧) . .

وكما رفع الله تعالى كل شىء بميزان عدل ، أوصى الإنسان أن يتبع هذا الميزان العدل فى كل شىء ، فى نفسه ومع غيره وفى علاقته بربه :

---

(٧) راجع أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام ص ٢٤ أبو الأعلى المودودى .

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ (الرحمن : ٧، ٨)

ففى كل أمة من الأمم القديمة والحديثة على السواء غلاة ومتبطلون ، مسرفون ومقترون ، مبذرون ومتجلون ، ولقد شاءت حكمة الله البالغة أن يكون الوسط العدل الذى هو الخير الفاضل شريعة الأمة الاسلامية ومناجمها :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ (البقرة : ١٤٣)

فالوسط العدل هو مفتاح السعادة للجسم والنفس ، فهو ينظم حياة الإنسان دينا ودنيا ، روحاً ومادة ، عقلا وقلبا ، علما وعملاً ، فلا يجعل لغريزة أن تتسلط على لطيقة ، ولا يجعل للطيفة أن تحرمه من غريزة ، فهو بذلك ميزان عدل تتكامل به قوى الإنسان النفسية والعقلية والحسية والسلوكية جميعا للوصول إلى كما لانها الأخلاقية فى الدنيا والآخرة . .

٢ ـ الاجتهاد لا التقليد :

يأمر الله تعالى بالجهاد والإجتهاد ، ويتفضل على المجتهدين والمجاهدين بالدرجات العليا ، ويخصهم بالرسوخ فى العلم وأهلية شهود الحق منّة وفضلا ، ويرفعهم إلى مراتب الحكمة والخير الوفير والنعمة الكبرى :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾
(المجادلة : ١١)

﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ (آل عمران : ٧)

﴿ شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾
(آل عمران : ١٨)

أما المقلدون بغير وعى ، والمحاكون بغير تأمل وفهم والذين قالوا :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾
(الزخرف : ٢٣)

﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ (الشعراء : ٧٤)

فالإسلام ينظر إليهم نظرته للصبى غير المميز الذى يحتاج إلى وصى يتولى شئونه ويتحكم فى ماله ونفسه جميعا ، لأنه عديم الأهلية فى التصرف ، لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل ، ومثل هؤلاء المقلدين كمثل الذين

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾
(الملك : ١٠)

إن الدين إنما ينشد الصلاح والإصلاح للجسم والنفس والعقل ، والمنهج الإسلامى يحقق العدل والأمن والسلام ، وينبذ كل صور الفساد والفوضى فى النفس والكون والخلق . .

٣ - اليسر :

وردت آيات بينات كثيرة تدعو إلى التيسير فى كل شىء . كما أنه تعالى عبر عن القرآن الكريم تعبيرا يحمل معنى اليسر إذ قال تعالى :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾ (القمر : ٢٢)
﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ (الدخان : ٥٨)

فاليسر بهذا المعنى أصل من أصول المنهج الإسلامى ، وغاية من غاياته الفريدة إذ أنه توسعة وفضل ورحمة ، يهيأ قلوب العباد للايمان ، حتى يظلهم الأمن والأمل والسكينة فيوفقوا إلى إتباع الخير والحق والعدل بلا خوف ولا مشقة ولا عنت ولا تردد :

﴿ قال رب إشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ﴾ (طه : ٢٥ ، ٢٦)

والتيسير قاعدة قرآنية أساسية مبلغة للناس جميعا حتى يعملوا بلا خوف ويأمنوا وينعموا ويهتدوا إلى طريق الله وكما أن الله ميسر عليهم ، فإن ذلك يقتضى منهم التيسير مع بعضهم البعض عملا بأمر الله . .

وإذا كانت القواعد الإسلامية تحمل معنى الشدة على الكفار وتحمل معنى الرحمة للمؤمنين ، فإنها تحمل معنى التسامح والعفو والمغفرة عن التائبين :

﴿ فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾

(الليل : ٥ - ١٠)

إن هذا التيسير يعطى شريعة الله البالغة قوة ذاتية هادفةوقدرة على الامتداد تسمح بأن تطبق قواعدها على الناس جميعا ، فمن تأمل القانون الالهى وجده ميسراً يفوق كمالا وواقعية وشمولية جميع الشرائع والقوانين القديم منها

والحديث على السواء ، إذ أن الله يخاطب النفس الإنسانية بلغت ميسرة شكلا ومضمونا :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (البقرة : ١٨٥)

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (الطلاق) ٤)

ooo
oo
o

٢

٢ ـ تصنيف العلوم عند أرسطو .

لا شك في أن أرسطو قد تأثر بأفلاطون على الرغم من نقده له ، إلا أنه يختلف معه فحسب من حيث المنهج ، إذ أن أرسطو كان على علم تام بالنظام العام لمذهبه ، لذلك فقد صدرت كتبه كلها تدل على إتجاه منهجي عميق يحاول فيه أن يقسم إنتاجه العلمى بوجه عام ، والفلسفة وموضوعاتها بوجه خاص إلى أقسام وفروع .

ومثال على صدق ما نقول أن أرسطو قد قسم فى كتابه « الجدل » (٨) الفلسفة وموضوعاتها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يتعلق بالمشاكل والموضوعات الأخلاقية .
القسم الثانى : يتعلق بالمشاكل والموضوعات الطبيعية
القسم الثالث : يتعلق بالمشاكل والموضوعات المنطقية .

إلا أن تلامذة أرسطو وشراحه قد تعارفوا على تقسيم موضوعات الفلسفة التى يعالجها أرسطو إلى قسمين فقط :

١ ـ العلم النظرى . .
٢ ـ العلم العملى . .

فما هو العلم النظرى والعملى وما هو الفرق بينهما فى تصور أرسطو ؟

يرى أرسطو أن العلم النظرى يستهدف غاية وحيدة ، وهى الوصول إلى الحقيقة ، بمعنى أن هذا العلم إنما يتطلب الحقيقة لذاتها دون النظر إلى أى

(٨) د . محمد على ابو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفى ـ ص ٣٣

منفعة عملية أو مصلحة شخصية .

أما العلم العملى فهو الذى يستهدف إلى المنفعة العملية ، وهذا واضح فى كتاب « الأخلاق النيقوماخية » الذى يتعرض فيه إلى التفرقة بين المعرفة لذاتها والمعرفة العملية .

وإذا كان شراح أرسطوا قد قسموا موضوعات الفلسفة إلى قسمين كما سبق الإشارة ، إلا أنه يبدو أن أرسطو نفسه يقسم موضوعات الفلسفة ، ويميز بينها فى مجموعات ثلاث :

أ ـ العلوم النظرية .
٢ ـ العلوم العملية .
٣ ـ العلوم الشعرية (الانتاجية) .

ولقد عرفنا من قبل العلوم النظرية عند أرسطو على أنها تطلب من أجل الحقيقة لذاتها ، وأن العلوم العملية فإن غايتها هى المنفعة ، فما هى العلوم الشعرية وموضوعاتها عند أرسطو إذن ؟!

واضح أن أرسطو يعنى بالعلوم الشعرية الانتاج الفنى وخصائصه ، كما هو واضح فى كتابه « الشعر » والموضوعات التى يتطرق إليها أرسطو فى كتاب « الشعر » هى موضوعات من الخطورة والغموض بحيث كانت هدفاً لألوان لا حق لها من التأويل والفهم المتباين ، وأخطر هذه الموضوعات جميعا مسألتان :

١ ـ المحاكاة .
٢ ـ التطهير .

ذكر أرسطو فى كتابه « الشعر » أن الفن عبارة عن محاكاة ، ويبدو أنه أخذ هذا التعريف عن أفلاطون ، إذ قال أفلاطون أن للفن محاكاة ، ويعنى أفلاطون بالمحاكاة تقليد النفس للآخرين ، ويدل تعريف أفلاطون هذا على نوع من الموضوعية المطلقة فكأن الفنان أو الشاعر يوضع فى مقابل الموضوع الذى يحاكيه ، وكأن هناك نوع من القبول بين الفنان وبين الشىء يحاكيه ،

وكأن الفن بهذا المعنى عبارة عن محاكاة للأموالطبيعية والأمور الخيالية سواء بسواء .

ويهمنا هنا أن أرسطو يأخذ تماماً بهذه الآراء الأفلاطونية دون أن يضيف إليها شيئا من عنده .

إلا أن أرسطو بما يختلف عن أفلاطون فى تحديد موضوع المحاكاة من الناحية العملية ، إذ أن أرسطو يعتبر المحاكاة هى قانون الفن ، أى أن جميع الفنون تختلف وفقا لخصائص المحاكاة نفسها ، بل تختلف بحسب وسائل المحاكاة أيضا من حيث الإيقاع واللغة والإنسجام (٩) .

ويستخدم أرسطو تعبير « التطهير » فيما يتعلق بالفن فيقول أن المأساة تحقق عن طريق إثارتها للرحمة والخوف ، التطهير من هذه الإنفعالات ، وهو يستخدم التطهير قاصداً به معنى فسيولوجيا ، خصوصاً فيما يتعلق بالأمزجة الرديئة ، وكأن الذين يعانون من الخوف والانفعالات مثل الغضب والشهوة والرحمة يمكن أن يعالجوا فى رأى أرسطو عن طريق مشاهدة المأساة فى المسرح ، فتشدهم وتثير انفعالاتهم ، فيقع لهم سلوى مصحوبة بلذة ، وكأنه أمر علاجى طبى لا يستغرب من أرسطو وهو إبن طبيب .

إلا أنه من ناحية أخرى لا يمكن أن يقتصر على أن التطهير فى المأساة يعنى به أرسطو معنى فسيولوجيا فحسب ، إذ أن ذلك تفسير سطحى ، ولابد أن يكون أرسطو قد ربط التطهير بمعنى أرفع من ذلك ولابد أن يكون له أصل دينى يتصل بالطقوس والشعائر والعبادات التى كان يهتم بها اليونان فى الاعياد العامة والخاصة . وباجمال لابد أن يكون أرسطو يعنى بالتطهير ذلك العنصر الروحى الذى ينقى النفس من شوائبها وآفاتها ، عندما تشاهد المسرحية فيحدث نوع من التوحد أو التقمص للنفس البشرية لأبطال الرواية أو المسرحية ، فيكون المشاهد ملاحظاً وملاحظا ، أو مُشاهداً ومشاهدا وهذا ما يسمى بالتجربة المزدوجة .

بعد أن أوضحنا الفروق بين العلوم النظرية والعملية والشعرية ، بقى لنا أن نقسم كتب أرسطو فى هذا الفروع ، فالقسم الأول وهو العلوم النظرية

---

(٩) « الشعر » لأرسطو طاليس ـ ترجمة د . عبدالرحمن بدوى

تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام نظرية :

(١) العلم الرياضى .
(٢) العلم الطبيعى .
(٣) ما بعد الطبيعة (الميتا فيزيقا) .

وتبحث هذه العلوم الثلاثة فى الوجود من حيث هو موجود ومتحرك ومحسوس ، وهذا مجال العلم الطبيعى ثم تبحث فى الوجود حيث هو موجود وله مقدار معين وعدد مجرد عن المادة وهذا موضوع العلم النظرى فى أعلى درجاته ، من حيث إنه وجود بالإطلاق بدون تحديد مادى أو رياضى وهذا هو موضوع علم ما بعد الطبيعة أو كما يسميها أرسطو « الفلسفة الأولى » ، كما يسمى العلم الطبيعى « بالفلسفة الثانية » ، وأما العلوم الرياضية فلم ينظر إليها نظرة مثالية كما نظر اليها أفلاطون ، كما أنه اعتبرها من الميتافيزيقا واعتبرها أعداد مثالية ، إنما بحث فيها أرسطو على أن الرياضة علوم متواضعة ليست فى شرف الميتافيزيقا وقوتها ، إذ أنها فحسب تقوم على تجريد الموضوع الطبيعى من خصائصه المحسوسة وأنها ليس كما يتصورها أفلاطون تقوم على ما هيات مفارقة ، كتلك المثل التى قال بها أفلاطون من قبل .

وأما تقسيم العلوم العملية عند أرسطو فهى تتحدد فى الموضوعات الآتية :
١ ـ الأخلاق .
٢ ـ السياسة .
٣ ـ تدبير المنزل .

بقى المنطق ، فهل يعتبره أرسطو علما من العلوم ، أو مدخلا لكل العلوم ؟!

يبدو أن أرسطو لم يدخل المنطق فى تصنيفه للعلوم النظرية ، أو العملية أو الشعرية ، حيث إعتبر أن موضوعه ليس الوجود ، إنما رأى المنطق هو علم قوانين الفكر بصرف النظر عن موضوع الفكر ذاته التى هى الموجودات ، ولو أن كثيرا من المفكرين من بعده وكذا شراحه خلطوا بين المنطق والوجود واعتبروا المقولات الأرسطية مقولات وجودية أو على الأقل هى أساس للتجربة الوجودية .

وعلى أى حال فإن المنطق فى تصورنا إنما هو مقدمة لابد منها فى دراسة الموجودات الطبيعية ، فهو الآلة أو الميزان أو الأداة التى يستخدمها الباحث فى كل علم من العلوم ، ولذلك سمى المنطق الأرسطى بالمنطق الصورى .

وسنعرض هنا لكتب أرسطو فى المنطق والطبيعة والأخلاق ، وقبل إستعراضنا لها نود أن نشير إلى أن المؤرخين قد قسموا مؤلفات أرسطو إلى قسمين : ١ ـ مؤلفات الشباب ٢ ـ مؤلفات الكهونة .

فأما مؤلفات الشباب فقد ضاعت جميعا ولم يصلنا منها شىء ، لذلك فإن تقسيم كتب أرسطو التى سنذكرها فهى مؤلفات الكهولة التى يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام (١٠) :

١ ـ الكتب المنطقية وشتمل على :
- المقولات (قاطيغورياس) .
- العبارة (بارى أرمينياس) .
- التحليلات الأولى أو القياس (أنالوطيقا الأولى) .
- التحليلات الثانية أو البرهان (أنالوطيقا الثانية) .
- الجدل أو الموضاع الجدلية (طوبيقا) .
- الأغاليط (سوفسطيقا) .

٢ ـ الكتب الطبيعية وتشتمل على :
- السماع الطبيعى .
- كتاب السماء .
- الآثار العلوية .
- الكون والفساد .
- فى النفس .
- فى الحس والمحسوس .
- فى الذكر والتذكر .
- فى النوم واليقظة .
- فى الأحلام .

---

(١٠) د . محمد عبدالرحمن مرحبا ـ الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ ص ٤٤، ٤٥ .

- فى تعبير الرؤيا .
- فى طول العمر وقصره .
- فى الحياة والموت .
- فى التنفس .
- فى أجزاء الحيوان .
- فى حركة الحيوان .
- فى توالد الحيوان .

٣ - الكتب الميتافيزيقية أو العلم الإلهى أو (كتاب الحروف : وهى أربعة عشر مقالة مسماة بأسماء الحروف اليونانية .

٤ - الكتب الأخلاقية والسياسية وتشتمل على :

- الأخلاق إلى نيقوماخوس .
- الأخلاق إلى يوديموس .
- الأخلاق الكبرى .
- كتاب السياسة .
- نظام الأثينيين .

٥ - الكتب الفنية :

- فى الشعر .
- فى الخطابة .

وتبدو أصالة العرب العلمية فى أنه لم يأخذ جلتهم بتصنيف أرسطو للعلوم ، إذ أن للعرب تصنيفا آخر ، بمعنى أدق تصنيفات أخرى تختلف من حيث التأثر والأصالة عن تصنيفات أرسطو ، يمكن أن نعرض لها على سبيل المثال وليس الحصر ، فهناك تصنيف جابر بن حيان ، وتصنيف فليسوف العرب الكندى ، والمعلم الثانى الفارابى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، ورائد الرياضة الأول الخوارزمى وحجة الإسلام الغزالى ، وطاش كبرى زاده ثم المؤرخ العربى ابن خلدون .

○ ○ ○
○ ○
○

٣

٣ ـ تصنيفات العلوم عند المسلمين .

إن الخطوة الأولى التى يجب أن يقوم بها أى باحث فى علم من العلوم ، هو رسم حدود هذا العلم وتفصيل أجزاءه وتحديد علاقته بالعلوم الأخرى . وتصنيف العلوم يرتبط إرتبطا وثيقا بالمنهج ، ومن ثم بأهمية كل علم ودرجته فى الأفضلية بل وفى البحث والدراسة .

ويعتبر جابر بن حيان عام ١٦٠ هـ أول مصنف للعلوم العربية فى الإسلام ، فكتابه « الحدود » وكذلك كتابه « إخراج ما بالقوة إلى الفعل » ، لا يتبع فيهما التصنيف التقليدى فى تقسيم العلوم كما جاء عند أرسطو . وكذلك فإننا نجد الفارابى عام ٣٣٩ هـ فى كتابيه « إحصاء العلوم » « والتنبيه على سبيل السعادة » تعريفا ببعض العلوم ، مثل تعريفه للعلم الطبيعى ولعلم المناظر . كما نجد أيضا تصنيفا « للكندى » عام ٢٦٠ هـ ، بالإضافة إلى تصنيفات أخرى للعلوم عند ابن سينا والخوارزمى ، وابن خلدون ، ورسائل اخوان الصفا ، وكذلك نجد من أكبر التصانيف وأشملها تصنيف « طاش كبرى زاده » عام ٩٦٨ هـ ، الذى جعل تصنيف العلوم ذاته علما من العلوم له موضوعه وأدواته وغايته .

ويجدر بنا أن نعرف ما هو المراد بالتصنيف للعلوم ، وهناك معنيان [١١] :

الأول : إنه العملية الذهنية التى يتم من خلالها إدراك الوحدة أو التشابه ، وهذا هو معنى منطقى لتصنيف العلوم .

---

(١١) د . جلال موسى ـ منهج البحث العلمى عند العرب ص ٥٥ .

الثانى إنه ترتيب واقعى للأشياء الفعلية بحيث يمثل الترتيب المحرد وهذا المعنى العملى

فالتصنيف بالمعنين هو تصور للمعرفة الإنسانية ، وعلاقة المعارف البشريه بعضها ببعضها الآخر ، ومن ناحية أخرى فإن التصنيف يقصد به ترتيب العلوم من حيث الخصوص والعموم ، ولكى يتم ذلك لابد من منهج علمى يرتبط بهذا التصنيف ، وفى هذا المعنى يقول الفارابى عام٣٣٩ هـ عن تصنيفه :

« قصدنا أن نحصى العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف ما يشمل عليه كل واحد منها وأجزاء ماله ـ العلم ـ من أجزاء » .

أى أن الفارابى يعتمد على الإحصاء بإعتباره متعلقاً بتصنيف العلوم حيث أنه يقول : « نعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منهم » .

ولو أن هناك الكثير من المعارضين لرأ الفارابى الذين يزعمون أنه قد حول تصنيف العلوم إلى علم احصائى ، فإن ردنا عليهم أن الخطوة الأولى فى أى علم من العلوم هو رسم حدود هذا العلم وبيان أجزائه وعلاقة بعضه ببعض وبغيره من العلوم ، لنعرف ماذا يقدم هذا العلم وماذا ينظر فيه ، فهو يعتمد على الإحصاء ولا يخرجه فى نفس الوقت عن كونه تصنيفه للعلوم .

وقد أقام أفلاطون تصنيفاً للعلوم يعتبر الأول من نوعه فقد قسم العلوم إلى تصنيف نظرى لها ، وتصنيف عملى ، أما أرسطو فقد ميز بين ثلاثة أنواع من التفكير :

أولها : العلوم النظرية .
ثانيها : العلوم العملية .
ثالثها : الصناعات الإنتاجية .

أما المنطق فيعتبر مدخلا لكل العلوم ، حيث سماه الآلة وذلك باعتباره الأداة التى يستخدمها الباحث فى كل العلوم

فالعلوم النظرية عند أرسطو تشتمل على : العلم الالهى والعلم الرياضى والعلم الطبيعى .

أما العلوم العملية فهى الأخلاق والسياسة والاقتصاد ، أما الصناعات الإنتاجية فهى الخطابة والشعر ، ونحن نعترض على قصر أرسطو للصناعات الإنتاجية على الخطابة والشعر ، إذ أن هناك صناعات أخرى لم يذكرها ضمن تصنيفه .

● تصنيف جابر بن حيان

وللعرب تصنيف آخر للعلوم غير تصنيف أرسطو الذى لم يأخذ به كثيراً من العلماء العرب ، فتقسيم جابر بن حيان عام ١٦٠ هـ فى كتابيه « الحدود » .

وما بالقوة إلى الفعل (١٢) ، يبين جابر إن المقصود بالتصنيف على الحقيقة ألا يخرج من علم ما هو فيه ولا يدخل فى علم ما ليس منه ، وهذا معناه تحديد الموضوعات والمعانى حتى لا يلتبس على الباحث الأمر فضلا عن عدم الجهل بمعالم وحدود العلم .

وقد قسم جابر بن حيان العلوم فى تصنيفه إلى قسمين :

١ - علوم الدين .

٢ - علوم الدنيا .

وبعد ذلك قسم علوم الدين إلى قسمين :

أ - علوم شرعية . ب - علوم عقلية .

ثم قسم بعد ذلك العلوم الشرعية إلى قسمين : ظاهرة وباطنة .

كما أن العلوم العقلية منقسمة إلى علوم معاد وعلوم حروف .

ثم أن علم الحروف ينقسم إلى قسمين :

أ - قسم طبيعى . ب - قسم روحانى .

ثم قسم الطبيعى إلى الكيفيات الأربعة : (الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة) والقسم الروحانى ينقسم إلى نورانى ، وظلمانى .

وقد جعل جابر بن حيان العلوم الدينية مقدمة على العلوم الدنيوية ، وذلك فى تصورنا على أساس أن العلوم الدينية أطول فى زمن الانتفاع بها من العلوم

---

(١٢) د . جلال محمد موسى - منهج البحث العلمى عند العرب - ص ٩٥ . ومابعدها .

الدنيوية حيث أن الدين ينتفع بعلمه فى الدنيا والآخرة .

ثم صنف العلوم الدنيوية تصنيفات أخرى ، فجعل منها الشريف والوضيع ، فالشريف كعلم الكيمياء ، والوضيع كعلم الصنعة أو الصنائع ، ونرى أنه قد تحيز لعلم الكيمياء وإعتبره أشرف العلوم الدنيوية قاطبة .

وواضح من المقارنة أن جابر بن حيان لم يتبع التقسيم الأرسطى - الذى يقسم العلوم إلى علوم نظرية وعملية وصناعات إنتاجية ، ولجابر تصنيف آخر للعلوم قسمها فيه إلى سبعة أقسام ، وهذا التقسيم إستوحاه من الأفلاك السبعة أو الكواكب السبعة ، فقسم العلوم إلى : علم الطب ، وعلم الصنعة ، وعلم الخواص وعلم الطلسمات وعلم إستخدام الكواكب العلوية ، وعلم الطبيعة ، وعلم الصور .

● تصنيف الكندى :

أما الكندى ٢٦٠ هـ فيجعل الفلسفة هى علم كل شىء ، ثم يقسمها فى تصنيفه إلى علم وعمل أو فلسفة نظرية وفلسفة عملية ، وظاهر أنه يقلد بذلك أرسطو إلا أنه فيما يتعلق بالعلم النظرى فإنه يقسمه إلى علم الأمور الإلهية وعلم الأشياء المصنوعة أو المخلوقة ، وبذلك يختلف عن أرسطو فى هذا التصنيف (١٣) ، وينم عن اهتمامه بالدين الموصى به فى مقابل الفلسفة .

● تصنيف الفارابى :

أما تقسيم الفارابى للعلوم (١٤) فقد أوضحه فى رسالته « التنبيه على سبيل السعادة » ، وهو يقسم العلوم - مثل أرسطو - إلى علوم نظرية وعملية ، وفى هذا التقسيم أيضا لا يغفل الدين ، فيصنف العلوم النظرية إلى التعاليم « الدينية » والعلم الطبيعى وما بعد الطبيعى .

أما العلوم العملية فقد حذا فيها حذو أرسطو . فقسمها إلى قسمين : علم الأخلاق وعلم السياسة ، ولم يذكر علم تدبير المنزل فى هذا القسم كما ذكره

---

(١٣) د . جلال موسى : منهج البحث العلمى عند العرب ص ٦٢ .
(١٤) المرجع السابق ص ٦٣ ومابعدها .

أرسطو .

وقد جعل الفارابى العلم الطبيعى هو ما ينظر إلى الأجسام الطبيعية وفى الأعراض التى قوامها هذه الأجسام ، أى أن هذا العلم يختص بظواهر لا علاقة للانسان بها مثل السماء والأرض والنبات والحيوان . . . الخ .

ويرى الفارابى إن هذه الأجسام الطبيعية قد وجدت لغرض وغاية ، وكل جسم وكل عرض له فاعله ، مكون له وأوجده ، وقد قسم العلوم الطبيعية إلى ثمانية أقسام وهو تقسيم مشابه لتقسيم أرسطو .

ولا نستطيع أن نطيل فى تصنيف الفارابى ، وإنما يكفينا أن عرضنا لبعض أوجه الأتفاق والإختلاف بين أرسطو والفارابى .

● تصنيف ابن سينا :

وقد تأثر بتقسيم الفارابى تلميذه الشيخ ابن سينا وذلك واضح فى رسالته فى أقسام العلوم العقلية (١٥) .

وقد امتدح طاش كبرى زاده ٩٦٨ هـ تصنيف ابن سينا للعلوم ، وامتدح رسالته فيها وأخذ عنه .

ويبدأ ابن سينا تصنيفه ببيان ماهية الحكمة ، فيراها تتضمن نوعين من المعرفة :

١ ـ المعرفة النظرية ٢ ـ المعرفة العملية .

وكأنه بدأ بالحكمة التى جعلها الصناعة التى يستفيد منها الإنسان ويحصل ما فى الوجود كله فى نفسه ، ويعرف ما عليه من الواجب وما ينبغى أن يكتسبه من الأفعال والأعمال ، وكان ابن سينا يجعل رأس العلوم موافقا لقول عز من قائل :

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

ومع ان ابن سينا قسم فى تصنيفه العلوم إلى نظرية وعملية ، إلا أنه جعل

---

(١٥) د . جلال موسى : منهج البحث العلمى عند العرب ص ٦٨ .

على راسها الحكمة ، وهذه ليست إضافة فسحب بل إنها تجعل التفكير الانسان يستمد معارفه من علم الله ، وكأنه ديّن الفلسفة فجعلها تخضع للتعاليم السماوية .

ولقد جعل فى تصنيفه الجانب النظرى يعالج ما عليه للوجود كله فى نفسه ، أما الجانب العملى فجعله الواجب الذى على المرء أن يؤديه من أجل الوصول إلى السعادة .

وخلاصة القول أن تصنيف ابن سينا يتأثر بتصنيف أرسطو الذى أوردناه من قبل ..إلا أنه يختلف كما ذكرنا فيما يتعلق برأس العلوم التى جعلها الحكمة .

● تصنيف اخوان الصفا :

وهناك تصنيف آخر لاخوان الصفا [١٦] لا داعى لذكره كله ، إذ الذى يهمنا هو اعتبارهم علم السياسة من ضمن العلوم الإلهية ، وتقسيمهم له إلى خمسة أنواع :

١ ـ سياسة نبوية .
٢ ـ سياسة ملوكية .
٣ ـ سياسة عامة .
٤ ـ سياسة خاصة .
٥ ـ سياسة ذاتية

ويفهم من ذلك التقسيم ربط الدين بالفلسفة ، ليتمكنوا ، فى زعمهم من إصلاح الشرائع ـ عن طريق الفلسفة ، لذلك فقد رفعوا الفلسفة إلى القمة باعتبارها انها الحاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية .

● تصنيف الخوارزمى :

وللخوارزمى عام ٣٨٧ هـ تصنيف آخر [١٧] وهو يختلف تمام الاختلاف عن التصانيف السابقة ، إذ جعل الخوارزمى فى كتابه « مفاتيح العلوم » الذى

---

(١٦) د . جلال موسى منهج البحث العلمى عند العرب ص ٧٤ .

(١٧) المرجع السابق : ص ٧٦ .

قسمه إلى مقالتين :

مقالة فى العلوم الشرعية ، ومقالة فى علوم العجم واليونان ، أى أنه جعل للعلوم جنسين أحدهما من أصل عربى والآخر من أصل أجنبى .

ففيما يتعلق بالعلوم الفلسفية إتبع فيها تقسيم أرسطو السابق ذكره ، إلا أنه أزاد فيما يتعلق بالمنطق ، فاستفسر فى الجدل عن طبيعة المنطق ، هل هو قسم من أقسام الفلسفة أم هو مقدمة لها ، وعرض لجميع الأراء السابقة عليه ، كما أنه إعتبر علم الحيل (علم الميكانيكا) منفصلا عن العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية .

● تصنيف الامام الغزالى

ولحجة الإسلام ـ الامام الغزالى عام ٥٠٥ هـ تقسيم آخر للعلوم فهو يقسم المعرفة إلى علمين :

علم بإكتساب دروس وتحصيل ، وعلم إلهامى . فأما العلم الإكتسابى فهو يحتاج إلى المكابدة والمجاهدة والمعاناة ، وأما العلم الإلهامى ، فأنه يقذفه الله فى قلب العبد فيصبح علماً وعالماً ومعلوما . ثم انه يقسم العلم الإلهامى إلى وحى وهو خاص بالأنبياء ، وإلهام وهو خاص بالأولياء .

● تصنيف ابن خلدون :

وقد اعتمد المؤرخ العربى العظيم ابن خلدون عام ٨٠٨ هـ على تصنيف الخوارزمى للعلوم المتداولة فى عصره فقسمها إلى [١٨] :

١ ـ العلوم الحكمية الفلسفية .

٢ ـ علوم نقلية وضعية .

تعتمد على الخبر ومأخوذة من الشريعة الالهية .

فالعلوم الحكمية الفلسفية يشترك فيها العالم كله على اختلاف شعوبه وأممه ، أما العلوم النقلية فهى مأخوذة عن الملة أو الدين الإسلامى .

---

(١٨) د . جلال موسى . منهج البحث العلمى عند العرب ص ٧٧ ومابعدها .

وبذلك يضع ابن خلدون تمييزا واضحا بين العلوم الإلهية والعلوم الكسبية ، وهذه هى الإضافة الهامة التى أتى بها ابن خلدون فى تصنيف العلوم .

ويلاحظ أن هناك إختلافاً فى النظرة بين ابن خلدون والخوارزمى فيما يتعلق بالعلوم الأجنبية ، فقد سماها ابن خلدون بالعلوم العقلية التى تشترك فيها جميع الأمم ، كما أن ابن خلدون استعمل تعبير العلوم النقلية بدلا من إستعماله إصطلاح العلوم الشرعية كما جاء فى تصنيف الخوارزمى .

ولا نرى إن هناك خلافاً بين العالمين - مهما اختلفت مسمياتها - فبعض الفقهاء يذكرون العلوم النقلية على أنها العلوم الشرعية ، كما أنهم يسمون العلوم الأجنبية بعلوم اليونان أو بغيرها من المسميات ، وقد جعل ابن خلدون العلوم الحكمية الفلسفية تشتمل على المنطق والعلم الطبيعى والإلهى والرياضى ، على أنه فصلها تفصيلا آخر بعد أن ذكر أقسامها ، فهو يقسم تقسيما رباعيا للعلوم الرياضية ، ثم أنه يقسم العلوم الفلسفية تقسيما سباعياً فيقول : أصول العلوم الفلسفية سبعة ، المنطق ثم الأرثماطيقى ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الإلهيات .

ويعود فيذكر لكل واحد منها فروعا .

ونلاحظ أن فى تصنيف ابن خلدون ارتباكا وتخلخلا وإضطراباً واضحاً فى تقسيمه للعلوم فى مقالته فيما يتعلق بالعلوم العقلية وأصنافها ، على أن ما يعنينا فى تقسيم إبن خلدون تلك التفرقة التى أنشأها بين العلوم الأجنبية وبين العلوم النقلية فجعل هناك علوماً مقتصرة على أهل الأمة الإسلامية دون غيرهم ، وجعل هناك علوماً مشترك فيها الأمة مع غيرها ، هذا ما يجعله مفكراً إسلامياً واضح التفكير سليم القصد والغاية ، حيث أنه جعل للمسلمين أصالة فكرية منبثقة من تعاليم الدين تفرعت عنها علوم لو لم يوجد الإسلام ما وجدت تلك العلوم .

● تصنيف طاش كبرى زاده

ويتضح لنا من سرد بعض التصانيف العربية والاسلامية إن العرب ابتداء من جابر بن حيان والفارابى قد وضعوا تآليف مستقلة فى التصنيف ، أو على

الأقل أضافوا إلى تصنيف أرسطو طاليس الجديد والمبتكر ، حتى جاء « طاش كبرى زاده » الذى جعل تصنيف العلوم علما مستقلا له أهدافه وغايته وأدواته ، إذ يقول فى ذلك (١٩) :

« تأمل فيما قدمت إليك من العلوم إسما ورسماً وموضوعاً ونفعاً » ، ومعنى هذا إن التصنيف يشتمل على كل خاصية من خواص العلوم المختلفة من حيث الموضوع والتحديد والغاية .

ويعتبر تصنيف « طاش كبرى زاده » أكمل التصنيفات العربية (٢٠) وقد أورده فى كتابه « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » ، وقد جعل تصنيف العلوم علماً مستقلا بذاته ، ويؤكد ذلك قوله :

« هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ، ليحصر بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم ، كما يمكن التدرج فيه من الأخص إلى الأعم كذلك » (٢١) .

وواضح من هذا التعريف أن طاش زاده جعل العلم الإلهى أعم العلوم ، وجعل جميع العلوم مندرجة تحته ، وهذا بخلاف التصنيف الأرسطى فى تقسيمه للعلوم ، فلم يتكلم عن العلم الإلهى بصفته أنه أعم العلوم ، وكأن طاش زاده إرتبط فى تصنيفه بالمنهج الإسلامى ، وجعله يتضمن عملية التكثير من فوق إلى أسفل أى من علم أعم إلى علم أخص ، وتقسيم الجنس إلى أنواع ، والنوع إلى أصناف .

ومعنى ذلك أن طاش كبرى زاده تضمن منهجه منهجا من مناهج التصنيف وهو المنهج الاستنباطى ، أى المنهج النازل من أعلى إلى أدنى أو من المقدمات إلى النتائج أو من العموميات إلى الخصوصيات .

كما أن طاش زاده إستخدم منهجاً آخر فى نفس الوقت ، وهو منهج صاعد من أسفل إلى أعلى أى من الجزئيات إلى الكليات أى من الجزئيات إلى المبدأ

---

(١٩) د . جلال موسى : منهج البحث العلمى عند العرب ص ٨٠ .

(٢٠) المرجع السابق ص ٨٠ .

(٢١) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ الجزء الأول ص ٣٢٤ .

الكلى ، وهو المنهج الاستقرائى الذى ادركه طاش كيرى زاده بفراسته ، وكأنه إستخدام المنهجين الاستنباطى والاستقرائى معا ، وهو أحدث مناهج التصنيف فى العصر الحديث قد سبق به طاش زاده مناهج الغربيين بقرون عديدة .

فلقد جمع طاش كبرى زاده بين طريقتى التحليل والتركيب أو الاستنباط والاستقراء فى تصنيفه للعلوم . ولا وجه لمقارنة تصنيف أرسطو بتصنيف طاش زاده ، وذلك لتقدم المعرفة وتميز فروعها فى عصره ، بحيث أصبح للمباحث الصغيرة مؤلفات مستقلة ، ويعتبر طاش كيرى زاده أفضل من بحث فى تصنيفات العلوم على الإطلاق ، وقد وفق وأجاد فى تعريفه وتقسيمه ، ولقد تبع كثير من أصحاب التصانيف طاش كيرى زاده فى تصنيفه مثل حاجى خليفة وحسن صديق خان والمولوى التهانوى صاحب كشاف مصطلحات الفنون ، فأخذ كل ما قيل عن التصانيف وحشده في كتابه (٢٢)

ويتضح من تصنيف العلوم عند العرب أن العرب قد فاقوا غيرهم من فى الثقافات المختلفة ، فإن التصنيف مرآة تعكس المعرفة البشرية فى عصرها ، ويدلنا على أن العرب قد أضافوا إضافات واضحة فى حقول المعرفة ، وإنهم كانوا الرواد الأوائل للغلوم الحديثة والمعاصرة ، وإنهم سبقوا بيكون وديكارت - كما سنشير فى الفصول القادمة - بقرون عديدة فى مجال المنهج الذى تفتخر به أوربا على أنه من إستحداثاتها أو إستكشافاتها .

---

(٢٢) منهج البحث العلمى عند العرب ص ٨٠ ومابعدها .

الباب الثالث

اضافات المسلمين فى العلوم الحياتية والعملية

المقدمة

إن منهج المسلم الحياتي يركز على الإهتمام بالدنيا والآخرة ، فلا يغفل عن حظه الدنيوى كما لا يسرف فيه ، وكذلك الأمر بالنسبة للحياة الباقية ، فهو يعمل فى دنياه من أجل آخرته بحيث تصبح الدنيا قنطرة توصله إلى السعادة الأخروية ، وهذا مستقى من الحديث النبوى الشريف بإعتبار الدنيا مزرعة الآخرة .

يربط المسلم إذن بين العلوم جميعاً ، العلم الكلى والعلم الجزئى ، العلم النظرى والعلم العملى ، العلم الدنيوى والآخروى ، بدون فصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا بإعتبار أن الأخيرة إنما هى مرتبطة بالأولى فلا فصام فى شخصية العالم المسلم بين عقله وقلبه ، وبين علمه وذوقه ، بين دينه ودنياه .

ذلك كما هو ملاحظ فى هذا الباب إرتباط العلوم الحياتية ، التشريع والتربية والأخلاق وعلم النفس الإسلامى والعمران وغيرها من العلوم الحياتية بالعلوم العملية والتطبيقية والمعملية مثل الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من العلوم ، بحيث تظهر شخصية العالم الشمولى الذى يستطيع أن يبحث فى العلوم الكلية والعلوم الجزئية ، النظرية والعملية جميعا .

وإذا ما درسنا بعض الشخصيات من العلماء المسلمين ، نجدهم أنهم يبحثون فى جملة من العلوم ، وفى تخصصات مختلفة مما ينم من غزارة معارفهم ، وشمولية نظرتهم ، وإكتمال فكرهم ، وهذا ثمرة طيبة لإستقاء علومهم من القرآن الكريم والسنة المحمدية . فلا شك أن القرآن الكريم ، ولو أنه كتاب غير متخصص فى علم من العلوم ، إلا أنه يعاون معاونة إيجابية

العالم الذى لديه الموهبة والاستعداد فى البحث ، الوصول إلى نتائج إيجابية فى الموضوعات التى يبحث فيها ، مستلهما من آيات الله البينات ، ومن السنة الشريفة ، ما يرشده إلى الحق والحقيقة .

والشخصيات من العلماء المسلمين التى بحثت فى علوم مختلفة شخصيات كثيرة . بل لا نغلوا إن قلنا أن أى عالم مسلم فى عصور الإسلام الزاهده ، قد بحث فى أكثر من علم واحد ، ونضرب لذلك مثلا بالإمام الغزالى الذى إهتم بعلوم متعددة ، وكذلك قبله الكندى والفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا ، وبعده ابن القيم الجوزيه والمحاسبى وغيرهم كثير .

وهذا يدل على إرتباط العلوم فى النظرة الإسلامية بعضها مع بعض ، فالعالم الحق هو الذى يستطيع إستيعاب أكثر من علم واحد ، حتى لا يصبح عالماً فى علم ، جاهلا فى علوم أخرى ، وكلما إزداد علما كلما إزداد تقرباً إلى الله ، وربما تقرن الحكمة بمعرفة العلوم الحياتية والعملية معا ، فالحكيم إنما هو الذى يستقى من الله علمه ، ثم يجعله نبراساً يستضىء به فى تجاريبه العملية والمعملية ، وما يقصر عن الوصول إليه من نتائج يرجعها إلى عيب فى نفسه ، ويعاود الكرة ، ويصلح أمر نفسه ، حتى يلهمه الله بالحق ، ويصل إلى مبتغاه من العلم والمعرفة .

لذلك فإن العلماء المسلمين لم يتملكهم القنوط واليأس أبدا ، إنما كانت رحلتهم العملية عبارة عن مجاهدة وسعى دائب من أجل إستكشاف السنن وإستجلاء ماخفى عليهم من الأشياء الخفية ، وهم على إستعداد دائم للبحث والفحص والتأمل والتمحيص ، مهتدين بقول عز من قائل :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾
(المجادلة : ١١)

من ذلك النبع الفياض إستقى العلماء المسلمون فصوصهم وجواهرهم التى أشرقوا بها على العالم علماً وفكراً وسلوكاً .

وفى هذا الباب تعرض لبعض العلوم الحياتية والعملية على قدر ما تيسر لنا إستيعابه منها ، والتى سبق بها المسلمون العالم كله بقرون عديدة ، ثم أخذها عنهم غيرهم من الأمم والشعوب وتقدموا بها حتى وصلوا إلى حضارة القرن العشرين .

١

١ ـ التشـــريع .

ما من انسان مصنف ، مستقيم النفس ، راشد العقل ، سليم القلب إلا ويرى أن تشريع الله أحق بالإتباع ، وكلما يزداد الانسان تأملا لآياته البينات ، ويعمق النظر فى الأحكام والمعاملات والحدود والعبادات ، كلما يزداد يقينا أن الإسلام دين الحق الذى لا يأتيه الباطل من يمين أو شمال أو من خلف أو أمام .

لقد مر على الإنسانية أكثر من ألف وأربعمائة عام على بزوغ فجر الإسلام ، جربت خلالها أنظمة وقوانين وعقائد مختلفة ، وأمتحنت بالتطبيق العملى شرائع أقتبستها من القدماء أو إخترعتها عقول بشرية ونفوس إنسانية ، ومازالت حتى الآن تجرب كل يوم تقانين جديدة أو مستحدثة . . ثم ما تلبث أن تغير إزارها كل حين إما بإرتداء مسرح الرهبان ، أو التخلى عنها والإكتفاء بألبسة البحر العارية . .

ومادامت القوانين الوضعية والتقانين البشرية ليست صادرة عن وحى السماء ، فإنها ستكون مما لاشك فيه عبارة عن تجاريب تصلح مظهريا فى ظروف أو بيئات أو مجتمعات معينة ، ولا تصلح فى ظروف وأزمنة أخرى ، فكراً وسلوكاً وتطبيقاً . .

والتشريع لا يحتمل التجربة ، إذا يختلف فى تطبيقاته عن العلوم العملية والمعملية ، فإذا صلحت التجربة كطريق تمتحن فيه صدق الفروض العلمية من كذبها ، مما يستكشف عنه الجديد والميسر والمستحدث وينبذ القديم

والمعقد . . فإن ذلك يمكن أن يطبق فحسب فى الكيمياء والفلك والرياضة والطب والصيدلة والمكانيا وغير ذلك من العلوم التطبيقية والعملية . .

إلا أن المنهج العلمى التجريبى كقانون لا يصبح صالحاً ، إذ تعدى حدوده وأراد أن يتجاوز سياجه ليطبق قواعده على العلوم الحياتية ، مثل الأخلاق والتربية وعلم النفس والاجتماع والإقتصاد والتشريع . .

ذلك لأن العلوم الحياتية تتعلق بحياة الانسان سلوكا وفكرا وغاية وعقيدة ، فإذا كانت عقيدة الانسان فاسدة ، فإن ذلك سيؤثر حتما على نظرته للحياة . ومن ثم سلوكه النفسى والاجتماعى ، وعلى قيمه وأخلاقياته ومفاهيمه ومثله العليا . . الأمر الذى يجعله ينحرف عن الإعتدال والإستقامة والقوامة والتوازن . .

فإذا كان هذا الشخص المنحرف العقيدة كاتباً أو مفكراً مؤلفاً أو فليسوفاً . . فإنه سيصبغ مؤلفاته بفكره القاصر ، وعقله العاجز ، ونفسه الكذوب ، ومن ثم سيخرج لنا منهجا أو نظاماً أو فكراً منحرفا ، إما فى غلو وإسراف وإما فى نقص وتقتير ، وكلا الأمرين بعيد عن الصلاح والاصلاح . . لذلك فإن التمسك بشريعة الله التى أوحى بها إلى رسوله محمد ﷺ باعتبارها الشريعة الخاتمة وأمر ضرورى إذا أريد للإنسان أن يتقدم فى طريق السعادة والأمن فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة . .

إن شريعة الله صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وقد ثبت بالأدلة والبراهين ، أن أعظم القوانين البشرية الصالحة هى التى تستقى أصولها ونصوصها من التشريع الإسلامى وتأخذ من القرآن الكريم مادتها فى التطبيق والعمل . .

ومثال ذلك القواعد القانونية التى اقتبست من الشريعة الإسلامية مثل نظرية التعسف فى إستعمال الحق وحق الارتفاق وغش الصبى والتقانين الجديدة فى المساواة والأخاء والعدالة بين الناس ، لقد توصل كثير من المفكرين الغربيين إلى أن التشريع الإسلامى هو أفضل التشريعات فى العالم القديم والحديث ، الصالح للتطبيق على الناس أجمعين .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾

(الروم : ٣٠)

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (الأحزاب : ٦٢)

﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ (فاطر : ٤٣)

إن عظمة التشريع الاسلامى أن قواعده ثابتة وفى نفس الوقت مرنة بحيث تمتد لتشمل الناس جميعا أبيضهم وأسودهم ، غنيهم وفقيرهم ، أميرهم ، وبسيطهم . . وهذا مما تعجز عنه كل التشريعات البشرية والقوانين الوضعية والنظم الانسانية . .

كما أن التشريع الاسلامى ينظر إلى مصلحة الفرد والجماعة ليس بنظرة وقتية ، وإنما نظرة دائمة تتجاوز مرحلة الدنيا إلى الحياة الباقية ، ومن هنا كانت لقواعده القدرة والصلاحية للنظرة الشمولية الجامعة ، بحيث تهتم من جميع الجوانب بمصالح الانسان الحياتية والعلمية والسلوكية الدنيوية منها والأخروية ، وهذا لا يمكن أن يحققه أى تشريع بشرى أو عقيدة أخرى غير عقيدة الاسلام .

﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ (النساء : ٨٧)

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ (آل عمران : ٨٥)

١

٢ ـ التربيــة والأخــلاق .

شغل العلماء المسلمون ردحاً طويلا من الزمن بالإفاضة فى شرح منهج التربية الإسلامية ، وركز ائمة الصوفية على تربية المريد مستقين علومهم من القرآن الكريم والسنة والنبوية .

ويعتبر الصوفية بحق من أفضل الذين عالجوا موضوعات التربية على الإطلاق . ذلك لأنهم لم يهتموا بالجانب الظاهرى فى السلوك فحسب وإنما ركزوا على الجانب الباطنى أيضا .

إهتم الصوفية إذن بالظاهر والباطن جميعا . فهناك التكاليف والفرائض والواجبات المقررة شرعا وعقلا ، كما أن هناك الإخلاص والصدق والنية وهى أمور تتعلق بأعمال القلوب .

فليس المهم فى النظرة الإسلامية أداء التكاليف والفرائض مع عدم توافر النية الحسنة ، إذ أن ذلك يعتبر من الرياء ، والرياء هو الشرك الأصغر كما ورد عن الرسول ﷺ .

لذلك إهتم العلماء المسلمون بتربية الانسان المسلم تربية تركز على سلامة القلب وحسن النية بالإضافة إلى أعمال الجوارح .

ويقتضى هذا الأمر عملية التخلية والتحلية ومعنى ذلك سلب الأوصاف المذمومة من عادات أخلاقية وأفكار خاطئة ، ثم إستبدالها بأوصاف محمودة وعادات وقيم ومفاهيم صحيحة .

فالعملية التربوية فى رأى العلماء المسلمين إنما هى تقوم على التخلية والتحلية ، أى السلب والايجاب ، وهذا بخلاف مناهج التربية الغربية التى تهتم فى المقام الأول بالتوافق مع البيئة ومع النظم الإجتماعية فحسب ، دون الاهتمام بالجانب الباطنى فى الانسان .

ويعتبر الإمام أبو حامد الغزالى (١) من أعظم العلماء الذين أهتموا بالعملية التربوية من خلال نظرة إسلامية ، فهو رائد بحق لا منازع له حتى الآن فيما وضعه من النظم التربوية الإسلامية الواجبة الإتباع .

وقد ربط الإمام الغزالى بين التربية وبين علم النفس ، فاهتم بتربية النفس والسياسة النفسية ، ومعالجة آفات النفس ، ومعرفة النفس ، ومرتبة النفس ومحاسبة النفس ، وذكر عيوبها ونقائصها وأمراضها الظاهرية والباطنية ، وواجبات المربى .

كما أن الإمام الغزالى خرج الينا بنظرة جديدة فى إصلاح الأنحراف الأخلاقى ، وبين بالأدلة والبراهين ، أنه يمكن علاج المنحرف والشهوانى والجاهل ذلك عن طريق التحلية والتخلية ، والترهيب والترغيب والمحاكاة والتكلف ، والتطبع والتعلم الشرطى الذى سمى برد الأفعال المنعكسة .

وهذه النظرة تختلف تماما عن نظرة علماء وفلاسفة التربية الغربيين الذين يزعمون انه من الصعوبة بمكان تغير أخلاق الانسان من الانحراف إلى السواء ، بإعتبار أنها تراكمات تكونت فى المراحل الأولى من الحياة الإنسانية .

يختلف الإمام الغزالى عن علماء التربية المعاصرين ، فى أنه يمكن إصلاح طبع الخيل الشرسة عن طريق الترويض فتصبح الخيل ، الشرسة الجامحة سهلة القياد .

فإذا كان من الممكن تغير طباع الخيل فأنه من الأيسر تغير أخلاق الإنسان من الإنحراف إلى السواء أو من العدوان إلى الإعتدال .

وإذا رفضنا إماكنية تغير أخلاق الإنسان فإن معنى ذلك عدم أمكان رجوع

---

(١) راجع إحياء علوم الدين الجزء الثامن ص ١٣٤٢ ، ١٣٦٠ (كتاب الشعب) .

العاصى إلى حضيرة الإيمان ، ومن ثم عدم قدرة الإنسان على التوبة ، وكان ذلك يلغى رسالة الأنبياء الذين يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر .

فالتربية الإسلامية تقوم على أساس صحيح يواكب الفطر السليمة والعقول الرشيدة والنفوس المستقيمة ، ومهما درسنا فلسفات التربية فى الغرب الليبرالى والشرق الشيوعى ، فإننا لن نجد منهجا تربويا صالحا للتطبيق لكل زمان ومكان مثل منهج التربية الإسلامية .

ومهما جربت الأمم والشعوب مناهج بشرية ونظم إنسانية فى فلسفات التربية فلن نجد أى منها يستطيع أن يلبى حاجات الفرد والبيئة والمجتمع لخلق الإنسان الصالح ، مثلما نجد ذلك فى منهج التربية الإسلامية ، لذلك يعتبر العلماء المسلمون بحق رواداً أوائل فى مناهج التربية ونظمها مثل الإمام أبو طالب المكى صاحب قوت القلوب ، والغزالى فى «الاحياء» والمحاسبى فى «الرعاية» وعبدالقادر الجيلانى فى «الغنية» وابن عطاء السكندرى فى «التنوير فى إسقاط التدبير» . وأبو الحسن البصرى فى «أدب الدنيا والدين» وابن القيم الجوزيه فى «زاد المعاد» وغيرهم كثير .

إن فلسفات التربية فى العصر الحديث تعارض بعضها بعضاً ، بحيث أنه لا يمكن أن نقرر أى منها على طريق الحق وأى منها فى طريق الباطل ، سيما وهى تتغير كما تتغير موضات الأزياء حيث يثبت كل يوم عقمها فى الواقع والحياة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الفلسفات التربوية المعاصرة لم توصل الانسان إلى التكامل الأخلاقى المنشود ، ولم يصبح انسان العصر أكثر حكمة أو تكاملا أخلاقياً ، عما كان عليه انسان الجاهلية الأولى ، بل ربما نجد على النقيض من ذلك .

: نجد فى القرن العشرين رغم التقدم المادى الهائل ، إنتكاس وإندحار فى العملية التربوية والأخلاق ، بحيث لا يمكن أن يقال أن الأخلاق تتقدم تقدماً طرديا متوازيا مع التقدم التكنولوجى .

لذلك فإن البشرية فى مسيس الحاجة الآن إلى الاستعانة بمنهج التربية الإسلامية الذى إستقاه العلماء والمسلمون من القرآن الكريم والسنة

المحمدية . ليعرفوا تماما أنه الحق الذى يصلح فكراً وسلوكاً وتطبيقا .

التطبع الاجتماعى عند ابن خلدون :

إهتم ابن خلدون عام ٨٠٨ هـ فى مقدمته الشهيرة التى جمع فيها أغلب آرائه فى العلوم الحياتية ، كالتربية والإجتماع والأخلاق والتشريع والسياسة ، إهتم بعلملية التطبع الاجتماعى عند الطفل ، ووضع منهجاً فى تربية الطفل يقوم على التدرج فى تطبيع الطفل إجتماعياً وفى ذلك يقول :

« إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين يكون مفيداً ، لو تم ذلك بالتدريج شيئاً فشيئاً ، وقليلا قليلا . . فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب » .

وواضح من رأى إبن خلدون انه لو تم تلقين الطفل علوم مختلفة تتداخل بعضها مع بعض ، كما هو حاصل الآن فى مدارسنا وجامعاتنا ، والتى تهتم بالكم لا بالكيف ، وبشحن الذاكرة دون الفهم ، وإستخدام الحافظة دون إعمال الذهن وتشغيل قوى المخيلة ، واضح ان ابن خلدون يرفض هذه الطرقة المستخدمة الآن فى عملية التعليم ، ويرى التدرج قليلا قليلا ، وشيئاً فشيئا ، فى مسائل كل باب من أبواب العلوم المختلفة بحيث يستطيع الطفل إستيعابها وهضمها ، بحيث تصبح فكرا وسلوكا وعملا .

ويستطرد ابن خلدون فى مقدمته ناصحاً المعلمين فيقول :

« ويراعى قوة عقل « التلاميذ » وإستعداداتهم لقبول ما يلقون حتى ينتهى « المعلم » إلى آخر أبواب ذلك الفن .

ويستهدف ابن خلدون من ذلك تكوين ملكة عند الطفل عن طريق تغذية عقله الذى لم يكتمل بعد ، بحيث يتدرج معه شيئا فشيئا ، مع قابليته وإكتماله مع الزمن ، لتقبل العلوم الأكثر صعوبة وفهما حتى تكتمل ملكة ذلك العلم عند الطفل .

وعندما تكتمل هذه الملكة يقول ابن خلدون [٢] :

« عند ذلك يحدث ملكة « للطفل » لذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة ،

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٠ وما بعدها .

وهنا يجب الرجوع مرة أخرى إلى ذلك الفن ، إلى رتبة أعلى منها ، ويستوفى المعلم الشرح والبيان ، ويذكر الآراء ، ووجهات النظر وبذلك تتكون الملكات بعد إستيعاب « المتعلم » كل مسائل « العلم » المغلق والغامض منها .

وهذه طريقة متبعة الآن بالنسبة للمراحل المختلفة فى التعليم ، فمثلا يدرس الطفل فى المرحلة الابتدائية تاريخ مصر بطريقة مبسطة ، ثم فى المرحلة المتوسطة من التعليم ، يدرس تاريخ مصر بطريقة أكثر توسعا حيث إكتمل عقله أكثر لإستيعاب مواد التاريخ ، فإذا انخرط فى الجامعة ، وتخصص فى التاريخ ، بعد أن تكون قد تكونت عنده ملكة هذا الفن ، فإنه يستطيع أن يدرس تاريخ مصر والعالم بتوسع وإستفاضة .

فإذا استخدم منهج آخر بحيث يشحن عقل الطفل بمولد التاريخ فى المرحلة الابتدائية ، ولم يكتمل عقله بعد ، كان ذلك مضرا للطفل ، كما يقول ابن خلدون أكثر مما يفيده ، وضاع الهدف المأمول فى ذلك الفن ، حيث أن ملكة الطفل مازالت ضعيفة وجزئية لا تستطيع أن تستوعب كل أبواب ذلك العلم دفعة واحدة .

ويختلف ابن خلدون مع حجة الإسلام الغزالى فى أسلوب القهر والتأديب للطفل ، كطريقة لعملية التعلم والتطبع الإجتماعى ، فيرى الإمام الغزالى أن هذه العملية تحتاج إلى الثواب والعقاب ، بحيث إذا اجتهد الطفل اثيب على عمله ، واذا قصر عوقب على تقصيره .

إلا ان ابن خلدون يختلف مع الإمام الغزالى فى هذه النقطة ، ويرى أن أسلوب القهر والتأديب لا يأتى بنتيجة بل على العكس من ذلك تماما ، يخلق فى النفس الأوصاف المذمومة ، ويورد فى مقدمته هذا النص [٣] « إن إرهاق الحد بالتعلم « الضرب » مضر لاسيما فى أصاغر الولد، لأن من كان مرباه بالعسف والقهر ، سطا به القهر ، وضيق عن النفس إنبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث خوفا من إنبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له عادة وخلقا ، وفسدت معانى الإنسانية عنده وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ، وصار عيالا على

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٠ الشدة على المتعلمين مضرة بهم

غيره ، وأكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل »

هذا النص الرائع فى عملية التطبع الاجتماعى ، يظهر فيه ابن خلدون الاضرار التى تنجم عن استخدام الضرب والقسوة مع الأطفال ، إذ أن الشدة الزائدة تولد فى الطفل الاكتئاب ، وتذهب بنشاطه وتدفعه الى الكذب والرياء والنفاق ، وإستخدام المكر والحيلة والخداع حتى لا تمتد إليه أيدى المربين بالعقاب والشدة .

كما أن إستخدام القسوة والعنف مع الطفل ، يجعل الطفل خنوعا سلبيا مترددا ضعيفا قليل الاعتماد عن نفسه ، متجمدا كسولا عن إكتساب الفضائل والقيم والخلق الحسن .

وينتهى ابن خلدون من بحثه فيما يتعلق بعملية التطبع الإجتماعى ، إلى إهداء بعض النصائح للمربيين والمعلمين بألا يتشددوا مع التلاميذ ، ولا يستخدموا التأديب والقهر كوسيلة لتلقين التلاميذ العلوم والآداب المرعية .

ويتكلم ابن خلدون عن ضرورة القدوة الحسنة للطفل ، كوسيلة هامة فى عملية التطبع ، فيرى أن المحاكاة والتقليد للمثل العليا ، التى يراها فى أسرته ومدرسته ، أهم بكثير من النصح والإرشاد المباشر ، وفى ذلك ينصح المعلم مبينا له الطريقة المثلى لتربية الطفل فيقول :

« وليكن إصلاحك لتلميذك إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ماصنعت ، والقبح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيكرهوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه ، وأروى لهم من الحديث أشرفة ، ومن الشعر أعفه ، ولاتنقلهم من علم لآخر حتى يحكوه ، فإن إزدحام العلوم فى القلب مشغلة للفهم ، علمهم سنن الحكماء (٥)

هذه بعض النصائح التى يوجهها ابن خلدون للمعلمين مبينا أن الطفل إنما يحاكى معلميه ومربيه ، وأن ما يصدر منه من سلوك هو بالنسبة لهم السلوك

---

(٤) سبق الإمام الغزالى ابن خلدون فى الافاضة على التنشئة الاجتماعية للطفل وذكر المحاكاه والتقليد والطبع - لمزيد من الاطلاع فى هذه النقطة الرجوع الى كتابنا « نحو ثقافة اسلامية » الباب الرابع

(٥) المقدمة . ص ٥٤٠ وما بعدها

الصحيح الواجب الاتباع ، فإذا كان المعلم راشدا صاحب مكارم الأخلاق ، اقتدى به التلاميذ واتبعوه وكان قدوة طيبة لهم ، لذلك فإن على المعلم أن يروى لهم أشرف الحديث وأعف الشعر ، وأن يشرح لهم ما تستطيع عقولهم إستيعابه من علوم حتى لا يكرهوا ما يلقى إليهم ، وتنشغل قلوبهم عنه . نتيجة لازدحامها وشحنها بالغث والثمين .

ويختتم ابن خلدون هذا النص مبينا انه لا عذر للمربى أو للمعلم فى اتباع منهجا آخر غير الذى أورده ، ولا عذر له أن يتعلل بأسباب تجعله متعسفاً قاسياً مع التلاميذ ، كأن يزعم أن التلاميذ يحتاجون إلى القسوة أو الشدة فى تأديبهم أو أن أسرهم لم تحسن تربيتهم ، لذلك فإنهم يحتاجون إلى التأديب والقهر والشدة ، فإن ذلك فى رأى ابن خلدون يدل على تقصير المعلم فى تأدية رسالته نحو تلاميذه . إذ هو الذى يحتاج إلى التربية ، والتقويم لا التلاميذ أنفسهم وفى ذلك يقول :

« ولا تتكل على عذر منى لك ، اتكلت على كفاية منك »[٦] .

لقد شارك ابن خلدون الامام الغزالى فى بلورة النظرية التربوية من وجهة النظر الاسلامية ، وبين منهجه فى التربية الذى يقوم على الترغيب أكثر من الترهيب ، مختلفا بذلك عن الامام الغزالى الذى يأخذ بالترهيب والترغيب فى العملية التربوية ، وإن كان العالمين يأخذان بالمبدأين الا أن ابن خلدون أميل الى الترغيب ، والغزالى الى الترهيب فى تأديب الطفل ، ونرى أنه ليس هناك اختلاف بينهما الا فيما يتعلق بالبيئة وظروف المجتمع التى ربما يحتاج إلى استخدام معامل الترغيب أكثر فى زمن معين ، ومعامل الترهيب أكثر فى زمن آخر .

ولقد أوضح ابن خلدون كما أوضح الامام الغزالى قبله بقرون ، أهمية المحاكاة والتقليد فى العملية التربوية ، ووجوب تلقين الطفل فى السنوات الأولى من عمره بواسطة والديه ومعلميه ، أفضل الأساليب التربوية والتى تستخدم بعضها فى الوقت الحاضر فى المجتمعات المتحضرة ، وتزيد عنها فى تحصيل الطفل أمور دينه وإختيار القدوة الطيبة التى يقتدى بها الطفل وهى شخصية الرسول ﷺ .

---

(٦) المقدمة . ص ٥٤٠ وما بعدها .

ويؤكد ابن خلدون على ضرورة وضع منهج متفق عليه لما يلقى على الطفل من علوم ومعارف ، إذا أن اختلاط العلوم بعضها مع بعض ، يرهق ذهن الصبى ويجعله لا يفهم الهدف ، فلا يستطيع استيعابها دفعة واحدة ، وهذا يضر بالطفل أكثر مما يفيده . . وبذلك يكون ابن خلدون قد أسهم بما لا يدع مجالا للشك فى وضع نظرية الإسلام فى عملية التطبع الاجتماعى .

١

٣ - علم الاجتماع ورائده .

يبدو للباحث المتخصص من أول وهلة أن علم الاجتماع الحديث ينتسب شكلا وموضوعا وتعريفا وفكرا الى التراث الاسلامى ، ومن يعقد مقارنة بين المفكر الإسلامى ، ابن خلدون المولود ٧٣٥ هـ - ١٣٢٢ م ، وبين أوجست كونت المفكر الفرنسى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، يجد أن ابن خلدون رغم أنه قد سبقه ببضع مئات السنين إلا أنه أخصب فكرا ، وأتم علما ، وأعظم رأيا ، وأكمل فهماً ، للدراسات الاجتماعية النظرية منها أو المسحية والحقلية . .

لقد اعتبر العلميون الغربيون أن اوجست كونت هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع الحديث وروجوا له فى كتاباتهم وابحاثهم الانسانية والاجتماعية ، رغم أنه لم يكن يؤمن بما يقول ، ودليلنا على ذلك أنه انسلخ عن علم الاجتماع ، الحديث كما تنسلخ الحية عن جلدها ، ثم انه أصيب بلوثة فى عقله ، فإدعى النبوة نتيجة الغرور والاغترار ، وإنتهى به الأمر إلى الجنون حيث مات فى أحد المصحات العقلية . .

ولقد جاء بعده تلميذه الأكبر إميل دور كايم ، ليؤكد ما قاله استاذه ويؤسس أول مدرسة إجتماعية أسماها بالمدرسة الوضعية . .

ولقد لقب الفرنسيون أميل دور كايم بأبى علم الاجتماع ذلك لأنه أول من عرف فى تصورهم ذلك العلم تعريفا واضحا سار عليه الإجتماعيون من بعده ، فلقد أشار فى تعريفه إلى أنه العلم الذى يدرس الوقائع والحوادث الإجتماعية . .

لكنا لا نتفق مع هؤلاء فى رأيهم القائل بأن دور كايم هو السباق إلى هذا التعريف ومن ثم فليس هو إذن بأبى علم الاجتماع ، فلقد سبقه إلى هذا التعريف ابن خلدون المفكر المسلم الذى توفى بالقاهرة عام ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م أى قبل أكثر من خمس قرون ، وهو بذلك أجدر بحمل لقب الرائد والمؤسس والأب لعلم الإجتماع ، يقول ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة ص ٤٣ عن ضرورة هذا العلم :

« فإذن هذا الإجتماع ضرورى للنوع الإنسانى ، وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراده الله من إعتبار العالم بهم واستخلافه إياهم ، وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم ، وفى هذا الكلام نوع إثبات للموضوع فى فنه الذى هو موضوع له ، وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن » . . . الخ .

ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون بين أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة العمران البشرى ، وهو تعبير رائع شامل يجمع فى ثناياه الحوادث والظواهر والوقائع الإجتماعية والانسانية . . ويمكن القول بإختصار أن إبن خلدون عرف علم الاجتماع بأنه دراسة واقعية للحياة الاجتماعية . .

ولقد سبق ابن خلدون كل علماء الاجتماع فى تحديد خصائص ذلك العمل بل وتفوق عليهم فى تبيان الطرق والوسائل التى يستخدمها الباحث عند دراسته للحوادث والظاهرات الاجتماعية يقول فى ذلك :

« إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ إنه خبر عن الاجتماع الانسانى ، الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات . . الخ [٧] .

ثم يستطرد قائلا [٨] :

« ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته ، وله أسباب تقتضيه ، فمنها التشيع للآراء والمذاهب . . وإذا كانت النفس على حال من الاعتدال فى قبول

---

(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ .

(٨) المقدمة : ص ٣٥ وما بعدها .

الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه . .

وهذا الذى يعرضه إبن خلدون لم يعرفه الغربيون إلا فى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد كان المفكرون الإجتماعيون يخلطون بين تاريخ الوقائع والحوادث الإجتماعية ، وبين آرائهم الشخصية ونزعاتهم الذاتية ، بل يتحيزون فى دراستهم الإجتماعية ضد المجتمعات النامية أو ضد السود فيغيرون فى الحقائق ويشوهون الوقائع بما يوافق أهوائهم (٢)

لقد بين ابن خلدون أن وظيفة الباحث الاجتماعى تقتضى منه أن يفحص كل خبر يعرض عليه وأن يكون معتدل النفس حتى يظفر فى دراسته بحقائق وحوادث صادقة . . أما المتشيع والمتحيز فإنه ينقل عن العمران البشرى والإجتماع الانسانى ما تحركه إليه نفسه المنحرفة . أو ما يدفعه إلى تعصبه وتحيزه لرأى معين أو فكرة مسبقة ، وهذا ليس من العلم فى شيء . .

لقد نادى علماء الاجتماع المحدثون بنفس الآراء الاجتماعية التى كان ينادى بها ابن خلدون ، منذ أكثر من خمسة قرون ، فقد أعلنوا أن الباحث يجب أن يكون ملتزما بالموضوعية العلمية ، فلا ينحاز لموضوع معين ولا يميل بالرأى إلى رغبة ذاتية أو إلى الأهواء أو يتعصب لعقيدة معينة أو مذهب يعتنقه عندما يدرس مجتمع ما أو ظاهرة من الظواهر . .

ويؤكد ابن خلدون ان ما يقع فيه كثير من العلماء والباحثين من الأخطاء ناتج من تفسيرهم الحوادث تفسيرا ذاتيا ، وذلك من واقع قصص يتناقلونها أو روايات يسمعونها عن بعض الشعوب أو البلدان أو من زيارات عبارة لبعض الدول ، يشاهدون فيها بعض الوقائع والأحداث والظاهرات ، ثم يبنون على كل ذلك نظريات ومسلمات ويجعلونها دون فحص أو تمحيص مبادىء لفهم طبيعة العلاقات الانسانية ، أو محكات للنظم البشرية . .

يبين ابن خلدون أن ذلك ليس من شيمة العلماء ، فإن على المؤرخ والباحث أن يحلل الأحداث تحليلا نقديا وعقليا قبل أن ينقلها إلى الناس ، وإلا جاءت دراساته بعيدة عن الدقة العلمية ، مختلطة ومشوهة ، فضلا عن عدم استساغتها عقلا ومنطقا . .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة عن هذه الروايات التى لم يتوخ فيها الدقة والفحص والتحليل والنقد ، ما رواه المسعودى عن الاسكندر الأكبر ، يقول المسعودى(٩) : عندما أراد الاسكندر الأكبر أن يشيد مدينة الاسكندرية ، إعترضته شياطين البحر ، ووقفت تمنعه عن تنفيذ ما أراد ، فصنع الاسكندر صندوقا زجاجيا كبيرا هبط به إلى قاع البحر . . حيث تمكن من تصوير هذه الشياطين ثم صنع على هيئتها تماثيل معدنية ووضعها على الشاطىء . . فلما شاهدتها شياطين البحر ، فرت بعيداً عنها وإختفت بدون رجعة . . . وذلك تمكن الاسكندر من بناء مدينة الاسكندرية » . .

يعلق ابن خلدون على رواية المسعودى تلك ويبين إن هذه الرواية لا يمكن قبولها عقلا ومنطقا للأسباب الآتية :

١ ـ ان شياطين البحر المذكورة عبارة عن خرافة لا وجود لها ، إذا أن الشيطان لا صورة ثابتة له إذا لا يمكن أن يتشكل فى صور مختلفة . .

٢ ـ ان الصندوق الزجاجى الذى يزعم ان الاسكندر قد صنعه ، يحتاج إلى الهواء البارد عندما يهبط به إلى قاع البحر (ويقصد بالهواء البارد الأوكسجين) ، ومن ثم فإن الشخص الذى ينزل به إلى القاع سيختنق حتما وهو داخل الصندوق ، وذلك لاحتواء الصندوق على الهواء الحار (يقصد أكسيد الكربون والنتروجين) .

ويجمل ابن خلدون الأسس التى يجب أن يقوم عليها علم العمران البشرى أو علم الاجتماع كما يسمى الآن ، يجعل تلكم الأسس فى النقاط الآتية :

١ ـ انه علم مستقل تماما عن غيره من العلوم ، وله موضوع محدد هو العمران البشرى أو الاجتماع الانسانى . . وما يلحق بذلك العمران وهذا الاجتماع من العوارض والأحوال . . وهو ما يسمى الآن بالتغيرات الاجتماعية .

٢ ـ أن هدف هذا العلم تحرى الصدق والصواب فى تاريخ الحوادث الاجتماعية وعرض المظاهر التى تتسم بها الدول والبلدان عرضا أمينا . .

٣ ـ أن علم الاجتماع يختلف عن علم السياسة وعلم الخطابة وعلم الكلام

(٩) مروج الذهب . المسعودى .

فلكل منها منهجها وخصائصها . .

٤ ـ إن علم العمران أو الاجتماع علم نافع ، إذ أنه يستهدف حفظ النوع وبقاؤه وتفهم العمران البشرى ودراسته . . .

ثم يقول ابن خلدون فى تواضع وثقة (١٠) :

« ولعمرى فإنى لم أقف على الكلام فى ذلك العلم فى منحاه لأحد من الخليقة . . وذلك لغفلتهم أم أن هناك من كتب فيه ولم يصل إلينا » . . .

وهذا يبين أن ابن خلدون على الحقيقة هو الرائد والمؤسس الأول لعلم الاجتماع بل والانثروبولوجيا الاجتماعية (علم الانسان الاجتماعى) ، وقد سبق الاجتماعيين والانثروبولوجيين الغربيين بقرون عديدة فى وضع أسس العلوم الاجتماعية والانسانية والحياتية ، وما أكثر ما اعطى العلماء المسلمون ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ooo
oo
o

(١٠) مقدمة ابن خلدون ٣٨ .

١

٤ ـ الأنثروبولوچى .

زعم العلماء الغربيون أنهم إكتشفوا علماً جديدا هو علم الإنسان الإجتماعى ، وأسموه بالأنثربولوجيا ، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وأدعوا أن من رواده رادكليف براوه ، ومارجريت ميد ، وليفى ستروس ، وإيفانز بريتشار وغيرهم كثيرا .

وهذف هذه الدراسات سواء كانت الأنثروبولوجيا البنائية ، أو الثقافية ، دراسة المجتمعات المحدودة والبسيطة خوفاً من إندثارها ، وذلك بقصد الوصول إلى نظرية تفسر الحياة فى تلك المجتمعات :

ولذلك فإن الأنثربولوجيين يهتمون بالوظائف الإجتماعية والبناء الاجتماعى ، ومن ثم يدرسون العقائد والتقاليد والعادات والعرف والآداب المرعية ، ليتمكنوا من فهم تلك المجتمعات .

يستخدم الأنثربولوجيون المعاصرون المنهج العلمى فى دراستهم الحقلية والمسحية بقصد تحقيق فرض من الفروض التى يحاولون إثبات صحتها من كذبها بطريقة الملاحظة المباشرة وغير المباشرة وإستخدام الاستقراء والاحصاء والدراسة المقارنة .

ولو رجعنا لعدة قرون أى للقرن العاشر الهجرى ، لوجدنا أن الامام الشعرانى قد قام بدراسة مسحية على الطوائف الصوفية فى مجتمع القاهرة ولقد إختار عينات عشوائية ممثلة للطرق الموجودة فى المجتمع القاهرة عبارة عن مائة

مريد من المنخرطين في الطرق الصوفية [١١] .

واستهدف فى دراسته إثبات صحة الفرض الذى وضعه ، وهو أن هناك فى عصره اندحار فى أخلاق الصوفية فى عصره عن أخلاق الصوفية فى العصور السابقة عليه ولقد استعان الشعرانى بالملاحظة المباشرة وغير المباشرة ووصف أخلاقيات المريدين فى عصره وصفا دقيقا يدل على انخراطه فى الطريق الصوفى وفهم دقيق للمارسات والأذواق والمشارب والمواجد الصوفية .

ثم عقد مقارنة بين صوفية عصره وبين الصوفية من السلف الصالح ، وأظهر فى نتائج بحثه بأدلة دامغة وبراهين قاطعة اندحار وإرتكاس الأخلاق فى عصره عن العصور السابقة عليه ، مما يثبت أن الغرض الذى وضعه فى دراسته كان صحيحا وأن الدراسة الحقلية والمسحية أثبتت صدقه .

ثم عقد مقارنة بين صوفية عصره وبين الصوفية من السلف الصالح ، وأظهر فى نتائج بحثه بأدلة دامغة وبراهين قاطعة اندحار وإرتكاس الأخلاق فى عصره عن العصور السابقة عليه ، مما يثبت أن الغرض الذى وضعه فى دراسته كان صحيحا وأن الدراسة الحقلية والمسحية أثبتت صدقه .

ونستخلص من ذلك أن ادعاء الغربيين أن الأنثربولوجيا بشقيها البنائية والثقافية يرجع الفضل فى اكتشافها إلى الغربيين قول مرفوض ، ودعوى ينقصها البرهان والدليل . فإن الامام الشعرانى قد سبق هؤلاء العلماء الغربيون على الأقل بخمس قرون فى الدراسات الأنثربولوجية وتفوق عليهم فى هذه الدراسات . .

إذ أنه أدخل المعامل الروحى الذى يفتقر إليه أغلب علماء الأنثربولوجيا المعاصرين [١٢] . فهو عندما درس المجتمع الصوفى فى القاهرة عاش بين أفراده ملاحظا ومتذوقا لمشاربهم ، متفهما لمصطلحاتهم وإشاراتهم ومعانيهم ،

---

(١١) قام المؤلف بتحقيق مخطوط الكوكب الشاهق للشيخ الشعرانى : نشرته دار المعارف المصرية سنة ١٩٨٢ طبعة اولى .

(١٢) كوكب الشاهق للشعرانى . تحقيق المؤلف . ولمزيد من الاطلاع فيما يتعلق بهذه الدراسة الرجوع إلى مقدمة المخطوط . المحقق .

ولغتهم ، مقارناً بينهم وبين الصوفية من السلف الصالح ، مما أعطى لدراسته ثراء وعمق يعجز عنه أى عالم أنثربولوجى معاصر ، إذ أن العلماء الأنثربولوجيين المعاصرين إنما يهتمون بالعلاقات الظاهرية التى تتفاعل بعضها مع بعض ، وذلك لفهم أبنية المجتمع ووظائفه ، دون التركيز على المعامل الروحى الذى هو الاساس فى فهم السلوك الاجتماعى والقيم والمفاهيم الانسانية .

ومن هنا نكتشف كل يوم جديدا ، فإن هناك كنوزا مازالت مخبوءة فى دهايز النسيان لم يفض بكارتها أحد من الباحثين إلى الآن .

فالتراث الاسلامى يزخر بالجوهر واللآلى والبواقيت ، ولا يحتاج من العلماء إلا أن ينفضوا عن أنفسهم دعاوى المستغربين والمستشرقين الذين يزعمون أن المسلمين أصحاب عقلية تحليلية ، وأنهم لم يأتوا بشىء جديد يضفوه للتراث الاسلامى .

على علماء الاسلام أن يشمروا سواعدهم وينهضوا إلى كتب التراث لينهلوا منها زادهم ، ويثبتوا للعالم أجمع أن الحضارة الغربية الحديثة إنما هى وليدة الحضارة الاسلامية فى عصورها الزاهرة ، وأنه إذ كان المسلمون يأخذون اليوم ببعض ثمرات التقدم الغربى الحديث ، فإننا لا نبالغ إذا قلنا هذه بعض بضاعتنا ردت إلينا .

ο ο ο
ο ο
ο

١

٥ - علم النفس .

تختلف نظرة علماء المسلمين عن نظرة العلماء الغربيين فى مفهوم علم النفس ، إذ أن علماء النفس الغربيين يركزون على البيئة ، باعتبارها المحور الأساسى الذى يتفاعل معه الفرد تفاعلا تبادليا ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، مما يتشكل معه سلوكه وتصرفاته وأخلاقياته .

وعلى ذلك فإن البيئة فى نظرهم تمثل الدور الأساسى فى تكوين شخصية الفرد ، وعلى الفرد أن يتنازل عن بعض إشباعاته ومتطلباته ،عندما تطغى عليه البيئة فى صورة قوانين وأعراف وتقاليد ونظم اجتماعية .

ونحن لا ننكر أن البيئة لها أثرها فى التربية النفسية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ :
«المولود يولد على الفطرة ووالداه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » لكن نقطة الخلاف أن البيئة ليست وحدها التى تلعب الدور الرئيسى فى تكوين الانسان ، إذ أن البيئة فى المفهوم الغربى إنما هى تعبير عن المجتمع الصغير أو المجتمع المحلى ، الذى يعايشه الانسان ، وينظر إليها نظرة أفقية تعطى مساحة معينة لها تأثير محدود على شخصية الانسان .

لذلك فإن مفهوم العلماء المسلمين يختلف اختلافا بينا عن المفهوم الغربى ، كما أنه أشمل وأعم وأعمق فهما لحقيقة الانسان .

وإذا كانت نظرة علماء الغربيين نظرة أفقية فحسب ، فإن نظرة العلماء المسلمين رأسية وأفقية معا ، فلا ننكر تأثر الفرد بالبيئة ، كما اننا لا ننكر النظرة

الرأسية باعتبار ان الانسان مرتبط بخالقه وفاطره وموجده فالنظرة الرأسية تعنى أن هناك امداد واستمداد من الله ولله وأن ذلك يؤثر فى النظرة الأفقية باعتبار أن الانسان يؤثر ويأتثر حسب قيمه ومفاهيمه واخلاقياته بالبيئة المحلية أو البيئة العالمية . .

والنظرة الاسلامية بهذا المعنى انما هى النظرة الى الملأ الأعلى السرمدى الأزلى حيث يتصل الانسان بخالقه فى شكل اتباع لأوامره ونهى عما نهى عنه وتفويض وتسليم واسترسال معه تعالى .

فهناك تأثير وتأثر بالله ولله كما هناك تأثير من البيئة للفرد وبالعكس وسواء كان الانسان عاصيا أو طائعا مؤمنا أو كافرا ، فإنه مرتبط لا محالة بالله ، فهناك نوع من الترابط بين الخالق والمخلوق ، بين النفس والله رضى الانسان بذلك أم أبى ، وافق هواه أو ظلم نفسه ، أو اتقى واهتدى إلى الحق المبين .

ومن هناك يتبين المتأمل أن علم النفس الاسلامى ، إنما يركز فى المقام الأول على علاقة الانسان بربه ومن ثم باخوانه ومجتمعه .

وان المرض النفسى إنما هو ثمرة فجة للاعتراض والتحدى والشرك الاصغر والشرك الأكبر لإرادة الله ومشيئته ، وأن السواء والصحة والنفسية مرجعها إلى التقوى والورع والخشية ونقاء السريرة ـ وهذا تظهره دراسات المسلمين وعلى رأسهم حجة الإسلام « الغزالى » .

لقد بينوا السلوك النفسى السوى مقتدين بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد برعوا فى تبيان حقيقة النفس واقسامها وخصائصها وأوصافها وصفاتها والأمراض التى تصيبها والآفات التى تتعرض لها ، والنقائص التى تؤثر فيها ، مثل العجب والغرور والطمع والشره والحرص والرياء ، ثم بينوّا العلاجات لهذه الأمراض والآفات والنقائص من الهدى النبوى وآيات الله البينات .

لقد فهم العلماء المسلمون النفس البشرية فهما طيبا من خلال تعمقهم فى آيات الله البينات واقتدائهم بالرسول (ﷺ) فى العلاج النفسى ما يعجز عنه أعظم الاطباء فى العصور القديمة والحديثة على السواء ، ولقد عالج الرسول

(ﷺ) أمراض نفسية يعز علاجها على أعظم أطباء هذا العصر (١٤) .

عالج أمراض الصرع الروحانى والأرق والوسواس والاكتئاب والزمت والحصر والقلق المزمن والحزن والمصائب والكروب والهم والغم والفزع والخوف والجزع والغضب والطمع والحسد والحقد والعين والسحر .

وهذه العلاجات التى ذكرناها إنما هى خاصة بالطب النفسى فحسب ، لكن الرسول (ﷺ) عالج أيضا الطب البدنى وربط بين الطب النفسى والطب البدنى فى علاجاته ، فقد احس أبو هريرة بوجع فى بطنه فأرشده الرسول (ﷺ) إلى الصلاة فقام وصلى فبرأ من مرضه .

لقد ربط الرسول (ﷺ) فى علاج أبى هريرة بين الطب النفسى والطب البدنى ، إذ أن الهم والكرب يمكن أن يؤثر فى امراض المعدة فإذا خرج الكرب من النفس ، وسكنت الهموم ، فإنه يمكن أن يبرأ المريض من أوجاعه نتيجة إنشغاله بأمر أهم وهو فى الصلاة .

والمعروف أنه إذا انشغل الانسان بمشكلة لا يستطيع لها حلا ، فإنه إذا لم يتوسل بالله ويصبر فى الله أقعدته الأمراض ، ومن ثم تراكمت عليه الهموم والأوجاع لكن هذه الحالة التى عالج فيها الرسول ﷺ أبا هريرة ، إنما هى حالة خاصة يصلح معها هذا العلاج ، وربما يصلح علاجا آخر بدنيا أو نفسيا فى حالة أخرى .

وليس هذا الكنات مقصود به شرح التطبيب النفسى فى الإسلام ، إنما التأكيد على أن المسلمين قد سبقوا الغربيين بقرون متطاولة فى دراسة السلوك الفردى وتشخيص الأمراض النفسية وعلاجاتها مهتدين بالهدى النبوى .

ومن ناحية أخرى فإن المسلمين لم يهتموا بالطب النفسى العلاجى فحسب ، كما هو فى العيادات النفسية فى العصر الحديث ، إنما اهتموا أيضا بالطب النفسى الوقائى ، أى قبل أن يصل المريض إلى الحاجة الماسة إلى العلاج ، لذلك كانت الأمراض النفسية فى صدر الإسلام نادرة الحدوث .

فقد كان الصوم والصلاة والاستعاذة والاستغفار وكظم الغيظ والصبر

(١٤) للمزيد من الاطلاع راجع زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزية .

والذكر الدائم ، عبارة عن طب وقائى يمنع تراكم الأمراض النفسية من خواطر شيطانية ووساوس وكروب ، يمنعها من النفاذ إلى قلب الإنسان ، ومن ثم يصبح قلب المسلم على الدوام مستفرغا ومحصنا من ولوج الآفات والأمراض التى تسبب له تراكمات وأزمات نفسية ولا ريب أن المسلمين وعلى رأسهم (ﷺ) وهو الهادى البشير هم الرواد الأوائل للطب النفسى الوقائى والعلاجى على السواء ، ولقد تبع الرسول فى هديه النبوى ثلة من العلماء والحكماء أمثال :

الحسن البصرى - اليافعى المكى - المحاسبى - وحجة الإسلام الغزالى ، وغيرهم كثير .

ooo
oo
o

٢

١ ـ الطــــب .

يتحدث غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » والذى يعتبر من الكتب الهامة فى تقرير أمجاد العرب فى العلوم المختلفة باعتبارهم روادا للحضارة الأوربية الحديثة ، يتحدث فى فصل من فصول كتابه[١٥] عن العلوم الطبيعية والطبية عند العرب ، وعن كتب العرب فى النباتات والمعادن والمتحجرات . وعن مؤلفات العرب فى الطب وما أحدثوه من تقدم هائل فى هذا الميدان ، ثم يعرض إلى أبرز الأطباء العرب كالرازى وابن سينا وابن رشد وغيرهم .

يحدثنا عن التقدم العظيم فى ميدان الطب ، وعن إدخال العرب الكثير من الأدوية والعقاقير ثم يخلص إلى القول :

« إن العرب هم الذين [ابتدعوا الصيدلة] » .

وينهى غوستاف لوبون هذا الفصل بالإشادة بالعرب ، وما أسهموا به من تقدم فى مجال الجراحة الطبية .

ويهمنا أن نذكر أن الطب كان مرتبطا بالصيدلة ، بحيث أن الطبيب كان فى نفس الوقت صيدلانى أيضا ، إلا أننا نجد فى كتابى المرشد ومحنة الطبيب لأبى

(١٥) حضارة العرب ـ الفصل الثالث ـ العلوم الطبيعية والطبيه عند العرب .

بكر الرازى أخبارا متفرقة تظهر رأيا اخر فيها يتعلق بعلم الصيدلة [١٦] يرى الرازى إستقلال علم الصيدلة عن الطب ، وإعتباره وحدة مستقلة ، وهذا لا يمنع الطبيب الجاهل بمعرفة العقاقير من القيام بممارسة التطبيب ، ويرى أنه من الضرورى امتحان من يطلب الرخصة لمزاولة المهنة . ثم يقول : « أما إمتحانه بمعرفة العقاقير ، فأرى انها محصلة ضعيفة أى « لا يعول عليها » .

ويستطرد قائلا : « إن هذه الصناعة هى خاصة بالصيدلى أولى منها بالطبيب المعالج ، إلا أن تقصير الطبيب فى معرفة الأدوية الكثيرة الإستعمال يدل على قلة علمه ومزاولته وخبرته وتجربته » .

وأما المطالبة بمعرفة الغريب والنادر من الأدوية والعقاقير ، والفرق بين الجيد والردىء ، منها فليس ذلك خاص بصناعة الطب ، إذ أنه يمكن أن يكون طبيب فاضل « حاذق » برغم أنه قليل المعرفة بكثير من خلال العقاقير » .

ويهمنا فى هذا النص الذى أورده إستخدام كلمة ضربه معناها تجربة ، وهذا يؤكد على أن العرب عرفوا المنهج العلمى التجريبى فيا يتعلق بالعلوم العملية والتطبيقية . ولقد سبق الرازى فى إستخدام هذا اللفظ « ضربة » جابر بن حيان الذى قال « من كان ضربا كان عالما حقا ومن لم يكن ضربا لم يكن عالما » .

ومن هذا يتضح أن الطب الإسلامى طب تجريبى ، قام على أساس علمى بخلاف الأمم والشعوب الأخرى التى كانت تعتمد على السحر والشعوذة فى الممارسات الطبية ، وسنعرض لذلك عند بعض الأمم والشعوب .

● *التطبيب عند الفراعنة :*

لقد إهتم المسلمون بالأدوية والعقاقير ، وإستخدامها استخداماً علميا تجريبيا ، وذلك بخلاف الأمم والشعوب الأخرى ، فقد كان الطب عند المصريين رغم علو شأنه ، وإستخدام معارفهم الطبية فى علاج الجسم الإنسانى

---

(١٦) منهج البحث العلمى عند العرب ـ جلال محمد موسى ـ دار الكتاب اللبنانى ص ٢٤٥

(١٧) منهج البحث العلمى عند العرب د جلال موسى دار الكتاب اللبنانى ص ٢٤٥ ومابعدها

والأمراض ، وإستخدام الأطباء كالكالحين والجراحين وأخصائى أمراض البطن والاسنان والرأس ، إلا أن الطب كان عندهم من وحى هرمس « مستودع الأسرارالسحرية» وكانوا يظنون أن أسباب الأمراض راجع إلى الأرواح الشريرة التى تستولى على الأجساد فتمرضها ، وكان طبهم يعتمد على إخراج العامل المرضى من الجسم وإستعمال الأوفاق والأحجبة والتعاويذ لأخراج الأرواح الشريرة . واختص الكهنة من الفراعنة بصناعة الطب . وبزعم أن صناعة الطب راجعة إلى الملكة ايزيس التى ادعت فيها بعد أنها من الآلهة .

نخلص من ذلك أن صناعة الطب والعقاقير نبتت عند الفراعنة من السحر لذلك لم تتقدم الصيدلة أو التطبيب من تقدم كبير عند الفراعنة ، برغم ذلك التقدم الملحوظ فى صناعة التحنيط ، إذ كان يعتقد الفراعنة أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل ، كما كان يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل (١٨) .

● التطبيب عند الصينيين :

زعم الصينيون أن الطب ظهر عندهم من زمن قديم وأن امبراطورهم « هوانج » فى سنة ٢٦٠٠ ق م ألف كتابا فى الطب ، وأن هذا الكتاب مايزال موجودا حتى الآن .

لكنه من المؤكد أن الصينيين كانوا يخلطون بين الحكمة التجريبية وبين الخرافات الشعبية ، بل أنهم كانوا يعزون حدوث الأمراض إلى الحر والبرد والجفاف والرطوبة (٢٠) .

وقد تحذلق الأطباء الصينيون ، وزعموا أن للحميات ألف نوع ، وأن للنبض أربع وعشرين حالة ، لذلك لم تتقدم القوانين السرية عند الصينيين تقدما يذكر ـ وكما هو معروف عند الصين القديمة ، انها عجزت عن حل أبسط المشاكل لأى مجتمع منظم ، إذ كانت الفضلات والقاذورات لا يتخلص منها

---

(١٨) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ص ٢٠ ومابعدها .

(١٩) الطب النبوى ـ ابن القيم الجوزيه ـ تحقيق د . عبدالمعطى القلعجى ص ٨ .

بطريقة صحية ، كما كان القمل وغيره من الحشرات كثير الإنتشار ، ولم يعرفوا شيئا عن تنقية المياه ، وهذه أمور تعد من أبسط القواعد الصحية ، إذ كان الصينى القديم يعتاد أن يهرش جسمه وهو مطمئن هادىء ، لذلك لم يتقدم الطب عندهم تقدما يستحق الذكر .

ولقد أراد فلاسفة الصين البحث عن الوسائل التى تطيل العمر ، وسعى « هونج » مع بعض تلاميذه إلى الجبال ، سعوا وراء الهدف المجهول ، وبحثوا فى هذا الوهم عن دواء يطيل الحياة ثم رجعوا بخفى حنين .

● التطبيب عند الهنود :

فى كتاب « أترافافيدا » وهى من أهم المدونات فى الطب الهندى ، نجد قائمة كبيرة لأمراض مقرونة بالأعراض ، لكننا نجد فى نفس الوقت أن هذه القائمة محاطة بكثير جدا من السحر والتعاويذ وكان الطب هو ذيل للسحر ، فكان الطبيب يستخدم بعض الوسائل البدنية لشفاء المريض على أساس أن تلك الوسائل هى عامل مساعد فيما يكتبه له من تعاويذ وأحجبة أو صبغ روحانية ، فارتبطت التعاويذ السحرية بالوسائل الدنيوية فى طب الهنود .

● التطبيب عند اليونان :

كان الطب عند اليونان كما كان عند غيرهم من الشعوب الأخرى سحريا فى مبدأ أمره ، وكان يعد من الصناعات السرية التى كان يحرص عليها رجال الدين ، إذ كان المريض ينقل إلى المعبد فيزوره الإله فى زعمهم ، وأن المريض فى هذه الليلة يرى رؤيا تدل على الداء والدواء .

ولو استثنينا فضل أبو قراط الذى يعد أعظم أطباء اليونان فى زمانه فإننا نجد السحر عندهم عبارة عن تعاويذ وأسحار وممارسات للكهنة وفحسب .

لقد خلص أبو قراط حقا الطب اليونانى مما اختلط به من الشعوذة ، والإعتقاد فى الأرواح الشريرة ، وأعتمد على الطب الوقائى وذلك عن طريق دراسة أحوال الداء فى أول ظهوره ، والقضاء عليه قبل أن يستفحل فى البدن ، وفى ذلك يقول أبقراط :

« أن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إما عليها وإما على

المريض ذاته [٢٠] .

ومن ناحية أخرى يقول أبقراط :

« أن قوة الجسم وبنيته هى أهم علاج لكل مرض ، لذلك لم يكن يستخدم العقاقير إلا قليلا ، ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى صغيرا جدا إذ يتكون معظمه من المسهلات .

ويلاحظ أن طب « أبو قراط » يبدو فيه التشخيص للأمراض ضعيفاً للغاية إذ أنه لم يكن يهتم بقياس النبض ، وأن الحمى تعرف فحسب عن طريق اللمس البسيط .

كما أن « ابو قراط » خلط بين الطب والفلسفة ، وظهرت نظريته فى الاحلاط الأربعة التى يزعم فيها أن البدن يتكون من الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، وأن الإنسان يتمتع بصحته الكاملة ، متى امتزجت هذه العناصر بنسبها الصحيحة ، وأن الألم ينشأ من نقص فى هذه الأخلاط .

وقد تبعه جالينوس اليونانى فى تعاليمه ، وخاصة فيما يتعلق بنظرية الأخلاط الأربعة ودون ذلك فى كتبه .

● التطبيب عند الفرس :

لم يكن الطب الفارسى إلا مزيجا من الطب اليونانى والهندى والمصرى ، ولقد دخل الطب إلى بلاد الفرس إبان حكم ملكهم « سابور » ، كما استقدم ملوك الفرس بعض الأطباء المصريين ، فتعلموا منهم التحنيط غير أن كتابهم المشهور « زندافيستا » لم يكن يحتوى إلا على خليط من الرقى والتعزيمات لإلهى الخير والشر .

● التطبيب فى الجاهلية :

لم يكن التطيب فى الجاهلية إلا عبارة عن بعض التجارب القاصرة ، والوصفات المتوارثة التى يقوم بها بعض المشايخ وكبار السن ، ولم يكن هناك قانون لصناعة العقاقير أو الأدوية ، وكان الكى هو عماد معالجتهم لكل مرض

---

(٢٠) الطب النبوى . مقدمة الكتاب ص ٧ ـ ٥٠ .

أو داء ، كما كان يعتقد العرب فى الجاهلية بالأرواح الشريرة ، بإعتبارها سبب جميع الأمراض ، وانه لم يكن يشفى منها إلا عن طريق السحر ، وذلك على يد الكهان والعارفين والمشعوذين .

وكانوا ينسبون إلى النجوم فى شروقها وغروبها أمراضا ، وأوبئة وعاهات وتأثيرات من خير وشر ، كما كانوا يعتقدون أنه إذا فشى مرض فى الجرذان صح وخصب الناس ، كما أن صياح « الديك فى دار » معناها ينم عن مرض للرجال ، كما أن أنين دجاجة فى بيت فأنه نذير لمرض للنساء ، [ومن المعروف أن العرب فى الجاهلية كانوا يعتقدون فى بعض التعاويذ والرقى والتمائم والخرزات ، وكان لهم أفكارا سخيفة من جهة العلاج ، منها إذا أفرط رجل فى الفسق قوىّ بين ألينه فيشفى من دائه . كما أن تعليق الحلى والجلاجل شفاء من لدغ العقرب أو الثعبان » .

ودعواهم هذه يفسرونها بأن منع اللديغ من النوم بإنشغاله بأصوات الحلى والجلاجل خوفا من أنه إذا نام سرى السم فى جسده .

الطب عند المسلمين

خرج العرب على العالم بعد أن فتحوا البلاد المجاورة ونشطت العلوم والفنون المختلفة ، وفى أواخر العصر الأموى ، بدأت حركة واسعة الانتشار لإستيعاب العلوم السائدة فى ذلك العصر ، فاستقى العرب العلوم من مصادر مختلفة مثل الاسكندرية وإنطاكية وغيرها من البلدان .

بالإضافة إلى الاستعانة بالنساطرة الذين هربوا من بيزنطة نتيجة للاضطهاد ، وأصبحت الشام معقل العلم بعامة ، والعلوم البحتة بخاصة .

وقد انتقل علم الطب مع النساطرة إلى مدينة « جند يسابور » وفى حكم كسرى أنو شروان ٥٣١ ـ ٥٧٩ ميلادية .

تمتعت المدرسة الأفلاطونية بأثينا بتشجيع كسرى ، وتمت الحضارة الغربية بالتقائها بالحضارة الشرقية ، وبقيت لها مكانة بعد الفتح الإسلامى حتى العصر العباسى ، وفى العصر العباسى طلب أبو جعفر المنصور أفضل الأطباء فى عصره ووجد جرجس إبن جبرائيل عام١٦٠ هـ الذى استدعاه إلى بغداد وأجزل له العطاء بعد أن شفى على يده .

وقد أصبحت بغداد المركز الثقافى الرئيسى وتراجعت كل من إنطاكية والإسكندرية .

ومر الطب العربى بمرحلتين ، مرحلة الترجمة ومرحلة إضافة ، لخلاصة الفكر العربى فى الحضارة الإنسانية .

ولقد أنفق الخلفاء والأمراء بسخاء على ترجمة الكتب العلمية ، ووفد العلماء من جميع أنحاء الشام وفارس والعراق وبلاد الروم ، منهم النساطرة واليعاقبة والصائبة والمجوس للقيام بالترجمة عن اليونانية والفارسية والسريانية والقبطية واللاتينية وغيرها ، وكثر باعة الكتب والوراقين ، وانكب الناس على البحث والمطالعة .

وقد نبغ « سرجيوس » وبنى بختيو شوع الذين توارثوا إمارة الطب قرابة ثلاثة قرون ، كما نبغ زكريا يوحنا بن موسوية ٨٥٧ ميلادية الذى اشتهر كطبيب للخلفاء فى زمن الرشيد حتى المتوكل .

وبجانب تدريسه للطب فى بغداد ، ترجم الكثير من الكتب الطبية المعروفة فى ذلك الوقت .

ومن أهم تلامذته على الإطلاق حنين بن إسحاق وهو الذى ابتكر المصطلحات الطبية ، وقد عرب نحو مائتى مؤلف ، بعضها فقد أصله اليونانى ، وبقيت الترجمة العربية كمرجع وحيد لها .

أما العلماء العرب الأصلاء فى هذه الحقبة ، فقد كان منهم الحارس بن كلدة الصافى من الطائف فى أوائل القرن السابع الميلادى ، وابن التميمى الذى اشتهر بصناعة الجراحة فى زمن الرسول ﷺ ويعد من أوائل جراحى العرب المعروفين ، ثم ظهر بعده عبدالملك بن ابجر الكتانى من أطباء الاسكندرية فى العصر الأموى وكان مقربا للخليفة عمر بن عبدالعزيز ، والطبيبان أمثال وأبو الحق اللذان كانا طبيبين لمعاوية وعبدالملك .

كما ظهر فى أوائل العصر أبو الحسن عيسى الذى خدم خلفاء بنى أمية بدمشق ، وخلفاء بنى العباس ، وبعدهم الوليد بن عبدالملك ، وهو أول من انشأ البيمارستانات فى الإسلام ، كما أنه أول من أعد محجراً صحياً للمجذومين فى الاسلام كما ذكر الطبرى .

ولقد شجع الرسول عليه الصلاة والسلام التداوى ، ونهى عن السحر والكهانة والشعوذة ، الأمر الذى أعلى من شأن العلم ، فجمع بعض العلماء الأحاديث النبوية الخاصة بالطب الذى سمى بالطب النبوى ، وتبلغ حوالى ٣٠٠ حديث تحتوى على قواعد لحفظ الصحة والإعتدال فى الطعام والشراب والاستحمام والمأكول والزواج والامراض وعيادة المرضى ، وذكر بعض العلل كالصداع والرمد والجذام والحمى وأمراض البطن والتهاب الرئة والطاعون ولسعة الحية والعقرب ، وفيها أشارت إلى طرق العلاج كشرب العسل والكى والاحتجام وإراقة الجسم بالماء البارد للحمى ووقى الأوبئة .

وأنتجت حركة الترجمة فى القرن الثالث الهجرى ثمارها اليافعة ، واستوعبت الحضارة الإسلامية الحضارات السابقة وأصبحت اللغة العربية هى لغة العلم والمعرفة لقرون طويلة وظهر أعظم فلاسفة العرب ومفكريهم .

وقد وصل الطب العربى إلى ذروة عالية تميزه عن غيره ، فقد ولد فى بيئة

إسلامية لها نسيج فريد برز فى حلة جديدة ، إلا أنه كانت التقاليد تمنع من التوسع فى علم التشريح فتجمد فى القالب الذى وضعه جالينوس وأبوقراط ، إلا أن الطب فى إتجاهاته الأخرى تقدم تقدماً ملحظا مثل الملاحظة الاكلينيكية الدقيقة للمرض والمرضى ، ووصف الأمراض وتدريس الطب العملى وإنشاء وتحسين المستشفيات ، وبرع العرب فى المستحضرات والمركبات العدنية والنباتية وساعدهم فى ذلك معرفتهم بالكمياء والنبات .

لقد جرت فى قصر الخليفة الواثق فى حضور بعض الفلاسفة والأطباء محاورة فى ذكر بعض العلوم ، وسأل الخليفة الواثق عن علم الطب فقال :

« أحببت أن أعلم كيفية إدراك علم الطب ، وماهى أصوله ؟ : أيعرف بالحس أم بالقياس والسنة أو يدرك بأوائل العقل ، أم أن علم الطب يدرك عندهم من جهة السمع كما يذهب إلى ذلك جماعة من أهل الشريعة [٢١] . . ؟

وجاء فى هذه المحاورة بين جماعة الفلاسفة والأطباء ، أن الغرض من علم الطب تدبير الإجساد لحفظ الصحة الموجودة فى الجسد الصحيح وإجتلابها للعليل .

ونفس هذا التعريف نجده عند الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه « القانون [٢٢] يقول :

« إن الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زابلة » .

معنى ذلك أن « ابن سينا » إهتم بناحيتين وهو الطب الوقائى والعلاجى ، ومع ذلك أن الطب وهو علم قوانين الجسم التى يتعرف بها على أحوال بدن الإنسان من جهة الصحة من عدمها وإمكان حفظها ، وهذا ماورد فى بعض التعريفات الحديثة يقول كلور برنارد عن تعريف الطب :

« هو حفظ الصحة وإبراء المرضى من أمراضهم » .

وقد ظهر بعض الأطباء العرب ، نذكر منهم البعض فى الصفحات التالية ،

---

(٢١) مروج الذهب المسعودى ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٢) القانون - ابن سينا - ص ١ - ١٠ .

حيث أننا لا نستطيع أن نشير إلى معظم أطباء هذه العصور اليانعة فى الطب العربى ، إذ بلغ الطب فى العصر الأموى والعباسى شأوا عظيما ، حتى أن الخليفة المقتدر فرض على الأطباء تأدية إمتحان للحصول على أجازة تخولهم ممارسة المهنة وقد أناط بسنان بن ثابت أن يقوم بامتحانهم ، وتثبيت من يصلح منهم ، وقد أحصى عدد الأطباء فى بغداد عاصمة الدولة فبلغوا قرابة ثمانمائة وستين ، وفى أيام المستنجد فوضت رئاسة الطب ببغداد لأمين الدولة إبن التلميذ ، وأنيط به القيام بامتحان المتطببين . .

أ ـ الطب فى الأندلس

● ١ ـ الزهــراوى

ولد فى قرطبة ٩٣٦م وتوفى بها ١٠١٣ م .

كان معروفا عند الشعوب اللاتينية والعربية وعاصر عبدالرحمن الثالث وعمل فى بلاطه يقول عنه جورج سارتون :

« إنه كان أكبر جراحى الإسلام »[٢٣] .

أما بلدهوف فيرى أن الزهراوى لم يكن جراحا فحسب ، بل كان جماعا فى فروع الطب المختلفة .

وأهم مؤلفات الزهراوى كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف[٢٤] وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى . وظل كتاب الزهراوى هذا لمدة قرون مرجعا أساسيا للجراحين فى الشرق والغرب على السواء .

والغريب أن هذا الكتاب لم ينشر حتى الآن بالعربية ، ويشتمل هذا المؤلف على ثلاثين مقالة وتشتمل أهم أبوابه على :

مقدمة يشرح فيها الغرض من تأليف الكتاب ، ويضع خلاصة تجارب خمسين عاماً فى الصرع وعلامات الأمراض وفحص البول والنبض ، ثم تصنيفا للأدوية المركبة والترياقات والحبوب المسهلة والمقبضة والحقن والمقويات والأقراص والغراغر والأكحال وأدوية الفم والأسمدة والمراهم والأدهان وأطعمة المرضى ، ويبين أن إدمان الخمر يولد الصرع والماليخوليا وفساد العقل والفالج والرعش والخدر وأضعاف جميع عصب اليد ، وشبك الأعضاء وثقل اللسان ، وإضعاف الحركات الإرادية وأوجاع المفاصل المزمنة والنقرس ، وإضعاف الأحشاء لاسيما الكبد .

أما المقالة الثلاثية فهى أشهر مقالات الزهراوى فى كتابه التعريف فقد

(٢٣) منهج البحث العلمى عند العرب ـ جلال مسوى ـ طبعه بيروت ص ١٤٦

(٢٤) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ عبد الرحمن مرحبا ـ ص ٩٨ ومابعدها

ضمنها عرض من يريد أن يتعاطى الجراحة أن يلم الإلمام الكلى بالتشريح وغرائز الأعضاء وكتابات الحكماء ، مع مواصلة التجربة والإختبار .

ويقسم المقالة إلى أبواب ثلاثة :

الأول : فى الكى مع صور لآلات الكى والشروط اللازمة .

الثانى : فى العفن والشق والبسط والجراحة وجرد الأسنان بالحديد لتنظيفها ، ومعالجة الأضراس وطرق الخلع والآلات والمباسم والكلاكيب المستعملة مع رسوم توضيحية لها ، وتشبك الأضراس المتحركة بخيوط الفضة والذهب ، وقد أجرى بنجاح بعض العمليات الجراحية ، كما أنه يذكر فى هذا الباب طريقة إخراج الحصى من المثانة ، وحقن المثانة بالزراقة واستئصال الغدة الدرقية وكذلك أمراض النساء .

الثالث : فى جبر الكسور والفك ووصف الأضمدة النافعة فى جبر الكسور والخلع والموق .

● ٢ - أبو بكر الرازى

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى ٣١١ هـ ، ٩٢٣ م وقد لمع اسمه فى عالم الطب ، ويعتبر من العلماء النادرين فى تاريخ العالم كله ، وهو أول من إهتم بالطب السريرى فى العالم الإسلامى ، كما أنه وضع أول أسس الكيمياء الطبية ، وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى اللاتينية ، وظل دستوره الطبى حتى عصر النهضة . وقد ألف الرازى أكثر من ٢١٤ كتابا فى فنون مختلفة مثل علم النفس والأخلاق والفضائل الإنسانية وأدوات المهن الصحية ، وتتسم كتاباته بالجرأة والأصالة ، وكتب عدة مؤلفات فى التشريح منها كتبه فى هيئة الكبد والقلب والعين وغيرها ، وتوحى كتبه بأنه قام بتشريح هذه الأعضاء بنفسه ، كما كتب عن النقرس وأوجاع المفاصل وعرق النسا والفالج والقولون والعلل القاتلة والأغذية وتقاسيم الأمراض والأدوية المسهلة والكيمياء .

وأشهر كتاب له كتاب « المنصورى » الذى قسمه إلى عشر مقالات فى التشريح والأغذية والأمراض والأدوية والعلاج .

كما أن له كتاب آخر يسمى « الجامع الحاصد » فى صناعة الطب ، ويشتمل على اثنتى عشرة مقالة فى الأدوية والأغذية والصيدلة والتشريح ومنافع

الاعصاء وهذا الكتاب برجم إلى اللاتينيه وطبع مزارا ، وبلغ الحرص عليه أن ملك فرنسا طلب استعارته من مكتبة باريس ورفض طلبه إلى أن أودع قدرا جسيما من المال على سبيل التأمين ، وللرازى كتاب اخر هو « التقسيم والتشجير » يذكر فيه تقاسيم الأمراض وعلاجها ، وكتاب الطب الملوكى ، وكتاب بدء الساعة عن أمراض يمكن علاجها فى برهة وجيزة ثم كتاب « الجدرى والحصبة » (٢٥) وهو وصف دقيق للمرض وتطوراته ، وقد ساعدت الطرق الحديثة فى تشخيص هذين المرضين ، كما وصف الطاعون لأول مرة فى التاريخ ، وهى إضافة هامة ، ففرق بين ذلك المرض وبين الجدرى ، والجديرى ، ويعتبر الرازى أول من استعمل خيوطا حيوانية فى خياطة الجروح ، وأول من صنع مراهم الزئبق وأول من كتب فى طب الأطفال وقد اشتغل الرازى على ما يبدو بالتشريح من بعض الحالات التى ذكرها فمثلا يذكر أن رجلا سقط من عل ، فذهب عنه حس الخنصر والبنصر ونصف الوسط من يديه ، يقول : فلما علمت أنه وقع على أخر فقرة فى الرقبة ، علمت أنه مخرج العصب الذى بعد الفقارة السابعة . لأنه فى أول مخرجها لأنى كنت أعلم من التشريح أن الجزء الأسفل من أجزاء العصبة الأخيرة من الثابت من العنق يصير إلى الإصبعين الخنصر والبنصر ، ويتفرق فى الجلد المحيط بهما وفى فقد الحس من جلد الوسطى » ، ولقد استفاد العلماء من بعده بمؤلفاته ، خاصة وصف الأمراض حتى أن المستشرق نيوبرجر يقول عن الطب العربى عند الرازى . « أنه حلية فى جيد الطب العربى » .

وفى أوج نشاطه أصبح كبير مستشفى الرى ثم رئيس أطباء بغداد ، ولكثرة إنكبابه على الكتب والقراءة على أنوار القناديل ضعف بصره واختتم حياته بالعمى وتوفى بالرى ٣١٣ هـ ٩٢٥ م . وهو فى الثانية والستين .

● ٣ - ابن سينا من ٩٨٠ ، ٣٧٩ هـ

ألم الشيخ الرئيس ابن سينا بعلوم الفقه والقران والفلسفة والرياضة ، وعندما كان فى السابعة عشرة من عمره أصيب سلطان خراسان الأمير نوح بن منصور بمرض أعجز الأطباء ، فعالجه ابن سيناء وكتب له الشفاء على يديه

(٢٥) براث العرب العلمى قدرى طوقان ص ٢٢٠

فأجزل له العطاء ، وفتح له خزانة كتبه الحاوية لكافة أصناف العلوم والمعارف ، وفى العشرين من عمره إنصرف ابن سينا إلى الكتابة والتأليف وحضور مجالس العلم والعلماء ، وفى الثانية والعشرين [٢٦] أصبح أشهر أطباء عصره وتولى منصب رئيس وزراء شمس الدولة ، ويعتبر ابن سينا المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى ، قال عنه جورج ساوتون : « إن ابن سينا ظاهرة فكرية ، ربما لا نجد من يساويه فى ذكائه أو فى نشاطه الفكرى » ولابن سينا ستة عشر مؤلفا فى الطب ، وستة وخمسين ومائة مؤلف غيره ، وأهم كتبه الطبية القانون الذى ترجم إلى الأسبانية ، ويمثل هذا الكاب القمة التى وصلت إليها الحضارة العربية فى فنون الطب تجربة ونقلا ، واشتهر هذا الكتاب فى أوربا فى القرون الوسطى ، وكان مرجعاً رئيسيا فى جامعة مونبليه ولوفان فى أواسط القرن السابع عشر .

وابن سينا أول من وصف عضلات العين . وفرق بين اليرقان الناشىء من انحلال الكريات الدموية واليرقان الذى ينشىء من انسداد القنوات الصفروابة ، كما وصف الأمراض التى تنتقل بواسطة مياه الشرب وعزى ذلك إلى حيوانات دقيقة لاترى بالعين المجردة .

كما وصف ابن سينا بدقة بعض أمراض الجلد والأجهزة البولية والتناسلية والعصبية ، وقد ابتكر ابن سينا الطب النسوى ، فوصف حالات النفاس والعقم وحالات النواصير ، كما أنه علل تعليلا صحيحا للذكورة والأنوثة فى الجنين ونسبها للرجل دون الأنثى ، كما وصف حالات الانسداد المهبلى والأورام الليفية والاسقاط وغيرها ، كما إكتشف أن الحواس الخارجية كالبصر والسمع والتذوق لها مراكز بالدماغ .

ووصف إلتهاب الغشاء البلورى للرئتين وفرق بينه وبين إلتهاب تجويف الصدر الكائن بين الرئتين ، كما أنه قال بأن مرض السل وبعض أمراض التناسل من الأمراض المعدية .

---

(٢٦) صانعوا التاريخ العربى- فيليب حتى ، ترجمة أنيس فريحة ص ٢٨١ .

● ٤ - على بن عباس المجوسى

كان معاصرا لابن سينا لكنه لم ينل حظه من الشهرة (٢٧) ، وضع كتابا أسماه « الكتاب الملى » أو كامل الصناعة فى الطب ، وهو فى عشرين جزءاً ترجمه قسطنتين الأفريقى ونسبه لنفسه ، ثم ترجمه بعد ذلك اصطفان الإنطاكى ونسبه إلى مؤلفه الأصلى . .

ب - الطب فى مصر

انتقل إلى مصر الكثير من مشاهير الأطباء وإزدهر الطب فيها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ونذكر من أطباء مصر فى هذه الحقبة ابن الطيلان ، وله كتاب « تقديم الصحة » الذى ترجم الى اللاتينية وكتاب « دعوة الأطباء » الطبيب إبن رضوان الذى عاصر إبن الطيلان واختاره الحاكم رئيس أطبائه ومن بعده المستنصر .

ولقد شرح ولخص ابن رضوان ، الكثير من مؤلفات ابقراط وجالينوس وغيرهم ، ومن أطباء مصر ايضاً أسعد ابن الياس بن مطران ، وموسى ابن ميمون بمصر ١١٣٥ - ١٢٠٤ . وكذلك رشيد الدين بن موفق الدين يعقوب ، وضياء الدين عبدالله ابن أحمد المالكى المعروف بابن البيضا ، وابن النفيس الدمشقى الذى كان من أعلام الطب العربى فى مصر وهو أول من وصف الدورة الدموية ، وله مؤلفات عديدة منها الشامل فى الطب ، وشرح القانون لابن سينا ، وكان من أطباء مصر ايضا موفق الدين عبداللطيف البغدادى الذى كشف اخطاء جالينوس فى وصفه للهيكل البشرى ، فقد كان يظن جالينوس أن الفك الأسفل مكون من عظمتين على حين أثبت البغدادى أنه مكون من عظمة واحدة .

ونحن إذ نشير لشخصية واحدة من هؤلاء الأطباء لنعرف مدى ما توصل إليه العرب فى علم الطب من اكتشافات سبقت عصورهم بقرون ، ولنرى كيف اعتنى الخلفاء والإمراء بالمستشفيات وبالعلاج بالأدوية والجراحات والعقاقير .

---

(٢٧) للمزيد راجع الموجز فى تاريخ العرب عند العرب ص ٨٩ - ١١٠ .

٢

٢ ـ الصيدلة .

كان الصيدلى فى عصر قدماء المصريين هو الطبيب الذى يصف الدواء ثم يحضره بنفسه للمريض ، فلم يكن هناك التخصص بالمعنى الحديث معروفا قديما ، ولذلك فإن الطبيب كان يحضر الأدوية أو يشرف على الأقل على تحضيرها .

وأطلق اليونانيون على الدواء كلمة « فرماكون » كما كانوا يطلقونها على السم وعلى العقار ، وكانت تطلق كلمة « فرماكون » على السحرة أحيانا ، ويتضح أن كلمة صيدلة عربية ليست الأصل ، بل هى هندية جاءت عن طريق الفرس . وتعنى العقار أو الدواء .

وتاريخ الصيدلة نفسه هو تاريخ الأدوية وطريقة استعمالها وحفظها ، ويرى البيرونى أن الصيدلى هو محترف جمع الأدوية ، وإن صيدلانى تعريب لكلمة جيدلانى بقلب الجيم صادا . .

وينقل لنا التاريخ أنه قد جرت العادة عند قدماء المصريين فى العصور الأولى ، أن ينام المريض على محمل أمام منزله ، ويلازمه حارس يصف علته وعوارض المرض .

ولما كانت من عادة القوم حب الإستطلاع ، فقد كان يتباحث الحارس مع المارة وكان يصف له بعضهم بعض الوصفات والتجارب ثم تنشر ، وقيل إنها كانت تكتب فى سجلات وتحفظ ، ويقال إن الناس كانوا يضعونها فى ألواح ويعلقونها فى الهياكل ، ويقرر « سترامون » أن البرتغاليين إتبعوا نفس طريقة

المصريين هذه ، كما أن قدماء المصريين كانوا لا يستكبرون عن استقصاء طرق البحث والتقاط الحكمة اينما وجدت ولو من أفواه العامة ، خاصة فى علاج الأمراض المجهولة لإعتقادهم أن الشوارد القديمة التى لم تصل معرفتهم إليها ، قد تكون من المعلومات المتواترة عند أهل البادية والقرى النائية بواسطة لمجالسة لكبار الرجال المتجولين ، وقد تكون فى ذاكرة الكهول الذين تزودوا بالتجارب السابقة .

وسُمى قدماء المصريين الأدوية « باخريت » وكان إستخدامها لطرد الأرواح وللشفاء ، وكانت تأتى عن طريقة الهاتف فى المنام ، فيذكر اسمها وطريقة استعمالها . ولقد وضع الآلهة - فى تصورهم - بعض هذه الأدوية ولذلك فإنه لم يتطرق الشك فى فوائدها العلاجية .

وإستخدم الفراعنة الأدوية النباتية والحيوانية ، وإننا لا نزال نرى أن معظمها مايزال يستعمل حتى الآن ، وغالبيتها نصت عليها الدساتير الأوربية الطبية واستخدمت حتى القرن الثامن عشر . والواقع إنه رغم نفوذ السحر فإن قدماء المصريين إعتمدوا فى وصفاتهم الدوائية على المشاهدة والاستنتاج .

وقد إهتم قدماء المصريين بالعلاج بالأدوية من الظاهر والباطن ، وكانت لهم قراطيس تستخدم لكل دواء كما نعرفه اليوم . منها قرطاس ليدن وقرطاس إيبرس واعتقدوا ان الإكثار من العقاقير فى الدواء الواحد يزيد من فائدته .

وحتى القرن الماضى كانت معظم معلوماتنا الخاصة بالمادة الطبية المصرية القديمة مستقاه من مؤلفات المؤرخين اليونانيين ، فيذكر عن جالينوس وغيره وصفات طبية قيل إنها مستقاه من الأطباء المصريين ، أو كما يذكر جالينوس إنه عثر عليه بمكتبه هيكل ايمحوتب بمنفيس . وتدارس الأطباء اليونان هذه الوصفات ودرسوا المؤلفات الطبية وبقيت فى متناول الأطباء حتى القرن الثانى الميلادى .

لكن فى أواخر القرن التاسع عشر نشرت البرديات القديمة ، وعثر فى المقابر على بقايا النباتات المصرية القديمة ، فأصبح من الميسور دراستها دراسة مباشرة وتعددت الأبحاث فى هذا الميدان واشتهر من العلماء الكثيرين فى هذا الميدان .

ومن أمثلة هذه النباتات المستعملة التفاح والبصل والتوت والتين ، ووصف مرهم فى قرطاس هيرست لعلاج الروماتزم يتركب من الشحم ورواسب الخمور والبصل ، كما كان يستخدم لأمراض الصدر والقلب والمعدة والكبد ، الثوم والجميز وجوز الطيب ، وحب العزيز ، وحب البركة ، وحصا اللبان ، والحشيش .

وقد ذكر فى وصفه نافعة للالتهاب الكبدى ، الحمص والحناء والخروب ، وقد ذكر ضمن المسهلات الخروع ، حيث يستعملونه سهلا ويدهنون به شعورهم للتليين وقد وصفت الخمر فى وصفات نافعة لوجع الجن وقتل الدود والنزلات الحادة .

كما عثر فى بعض الجبانات على الرجلة والرمان والزعتر والزيتون والسمسم والذرة الرفيعة وكان يصنع منها الخبز .

وقد وجد فى قرطاس « ايرس » بعض هذه الوصفات النباتية مثل الفستق والفول والقرطم والشعير والصفصاف والتمر الهندى والقرفة وقصب السكر والكتان والكرات والكرفس والشبت والكرنب والكمون كطارد للأرياح ، ومن الأدوية الحيوانية كان منها الافاعى ودهن الاوز ، ودم الإبل ودهن البقر ولبنها وحافرها ومرارتها ولحمها وروثها ، ودهن التمساح وغدد الثور والجراد (المطحون فى هون) والجلد المحروق ، وخصية واحليل الحمار وحافره وشحمه ، وصوف الخروف ، والخنزير ولحمه ودهنه وكبد السلحفاة ودم السمان ، وقرن الظبى وروثه ، دم العجل وقرنه ، ريش العقاب ، وروث ورحم القط ، قرن الغزال وغير ذلك كثيرا .

وإنتقلت الصيدلة عن اليونان إلى النساطرة واشتهرت جند يسابور كمركز ثقافى طبى لليونانيين والرومان عند العرب ، وقد إستقدم الخلفاء أطباء جند يسابور واشتهر عندهم أسد بن جانى وحنين بن إسحاق .

لكن الطب كان يمتزج بالصيدلة حيث كان الطبيب يركب الأدوية بنفسه أو تحت اشرافه على الأقل ، الأمر الذى جعل كتب الطب تشتمل على أبواب وفصول فى الأدوية والعقاقير والأعشاب ، بيد إنه مع ذلك قد تخصص بعض العلماء فى الاعشاب وتراكيب الأدوية منهم بن ميمون وكوهين العطار وابن البيطار .. ونذكر هنا بعض أعمالهم .

١ - إبن ميمون

ولد فى قرطبه ٥٢٥ هـ عن اب إسرائيلى ، وتتلمذ ابن ميمون على أبيه ، ثم رحل إلى مراكش ، وفى أثناء تجواله درس الكتب الطبية لابقراط وجالينوس والرازى وإبن سينا وغيرهم . ثم انتهى باسترته السفر إلى مصر حيث عملا طبيبا فى بلاط صلاح الدين بالفسطاط .

وبذل إبن ميمون نشاطا كبيرا خلال ثلاثين عاما فى ميدان التأليف فكتب كتبا عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب مما جعله من أشهر مفكرى القرون الوسطى ، وأشهر كتبه « دلالة الحائرين » الذى ترجم إلى اللاتينية ، أما مؤلفاته فى الأدوية والعقاقير فهى تناهز العشرة منها :

١ - شرح فصول ابقراط .
٢ - المختصرات وهى تلخيص لجالينوس (الكتب الستة) .
٣ - فصول موسى فى الطب وهو عبارة عن مجموعة حكم طبية مستقاة من جانينوس وآخرين .

وقد ترجم إلى اللاتينية وكان ذائع الصيت فى القرون الوسطى ، وهناك كتب له فى :

١ - فى البواسير وعلاجها .
٢ - فى الجماع .
٣ - فى الربو .
٤ - فى السموم والأدوية القتالة .
٥ - فى تدبير الصحة ، وقد كتبه لابن صلاح الدين السلطان نور الدين على ونال شهرة عظيمة وهو أكثر كتبه أصالة .
٦ - مقالة فى بيان الأمراض .
٧ - شرح اسماء العقار . .

٢ - ابن البيطار :

له أشهر مؤلف وأكبر موسوعة خاصة بالأدوية المقررة فى القرون الوسطى ، ويعتبر « الكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، عملا فريدا فى القرن الثالث الميلادى الذى توقفت فيه الحركة العلمية .

وقد ولد ابن البيطار بالأندلس ثم استوطن مصر حيث عينه السلطان الكامل رئيسا للعشابين ، ولما مات السلطان ذهب إبن البيطار إلى سوريا حتى توفى ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩ م .

وكتاب الجامع يحوى أكثر من ١٤٠٠ دواء جمعها إبن البيطار فى مؤلفه ، ولم يكن معروفا عند اليونان إلا ٤٠٠ صنف منها ، والباقى أضافه العرب إلى المادة الطبية ، وقد تتلمذ عليه ابن أبى اصيبعة يقول عنه : وأول إجتماعى به كان بدمشق عام ثلاث وثلاثين وستمائة ، ورأيت حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعرافه وجود أخلاقه وكرم نفسه ، ما يفوق الوصف ويتعجب منه الإنسان . . . وكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئا كثيرا جدا » .

٣ ـ كوهين العطار :

عاش فى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى ٦٥٨ هـ ـ ١٠٢٦ م فى القاهرة وألف كتابا اسماه « منهاج الدكان » وفيه قدم إلى الصيادلة كتابا أوسع من كتاب الدستور البيمارستانى لداود بن أبى البيان ، والذى كان يستخدم هذا الكتاب فى مصر للعلاج بالمستشفيات وبسوريا والعراق . ويعطى كوهين العطار فى كتابه نصائح قيمة لمن يريد إحتراف صناعة الصيدلة . . . كما يذكر فى الفصل الحادى والعشرين قائمة للأدوية المفردة مرتبة ترتيب « ابجديا » وقد طبع كتابه هذا فى القاهرة ولايزال متداولا حتى الآن عند عطارى الشرق الأوسط .

٤ ـ داوود الأنطاكى :

وهذا الطبيب كان ضريرا وكان مع ذلك رئيس أطباء مصر ، وأشهر كتبه « تذكرة الالباب » المشهورة وهى تشتمل على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة . . .
وتشتمل التذكرة على ١٧٠٠ دواء وطبع فى مصر ومايزال يطبع حتى الآن .

٥ ـ أبو الفرج ابن القف : ٦٣٠ هـ ـ ٦٨٥ هـ

كان ابن القف معجزة بلده ، وأول نابغة فى العلوم الطبية فى عصره ويذكره

ابن أصيبعة ١١٩٦ - ١٢٧٠ يقول عنه وهو تلميذه [٢٨] :

هو الحكيم الأجل العالم أمين الدولة أبو الفرج بن الشيخ الأوحد العالم مرفق الدين يعقوب بن اسحاق بن القف من نصارى الكرك ، قصد به والده إلى (جند يسابور) لتعليمه الطب ، فتعلم كتب ابقراط ، ثم بعد ذلك تعلم العلاج من كتب ابى بكر محمد بن زكريا الرازى مما عرف به الاجسام والعلل والاسقام .

ولقد كان بدمشق مدرستين للطب بجانب المستشفيات المجهزة تجهيزا ممتازا ، وأهمها البيمارستان النورى الكبير المشهور ، وقد إمتدحه ابن بطوطه وإبن جبير اللذان اعتبروه أحد مفاخر الإسلام . ثم كان هناك ايضا بيمارستان القيمرى فى حنايا دمشق افتتح ابوابه زمن ابن القف ، وكذلك كان بيمارستان باب البريد بدمشق وقد مدح أيضا .

وفى هذا الوسط الطبى والإمكانيات الواسعة أتم ابن القف دراساته وتدريبه الطبى لمزاولة المهنة[٢٨] التى كرس حياته لها ووقع على بن القف الاختيار ليكون جراحا وطبيبا لقلعة عجلون وهو لم يبلغ الثلاثين أو بلغها . .

وترك ابن القف المدينة إلى القلعة ليؤدى واجبه ، وهناك ذاع صيته وأصبح معروفا فى الديار الشامية خاصة بعد تأليفه كتاب « الشامى فى الطب » ثم رجع إلى دمشق لتدريس الطلبة حتى مات وهو لم يتجاوز الثانية والخمسين .

مؤلفاته :

(١) كتاب الشامى[٢٩]

كتبه فى قلعة عجلون ، وهو عبارة عن اثنى عشر مقالة فى الطب النظرى والعملى .

(٢) كتاب جامع الغرض فى حفظ الصحة ورفع المرض :

أتمه فى دمشق ١٢٧٤ م يتكلم فيه عن الحوامل والاسنان وحفظ الصحة والمرضعات والعظام وغير ذلك .

---

(٢٨) راجع : أبو الفرج بن القف ـ د . سامى حمارنه ١٩٧٤ .

(٢٩) أبو الفرج بن القف ـ د . سامى حمارنه ١٩٧٤ .

(٣) جامع الغرض :

يجمع فى هذا الكتاب كثير من الأفكار الجديدة فيعلمى الأجنة والتوليد وطرق حفظ الصحة ودفع الأمراض .

(٤) الكليات من كتاب القانون فى الطب لابن سينا :

وفى هذا الكتاب يذكر قول لإبن سينا فى القانون ثم يبدأ الشرح عليه جملة وفيه الكثير من البحوث الشيقة والشروح المفيدة .

(٥) كتاب عمرة الإصلاح فى عمل صناعة الجراح :

وهو عبارة عن شرح لمهنة الجراحة فى كل نواحيها ، وقد شمل الكتاب تعريف فن الجراحة وذكر الأخلاط الأربعة وأنواع المرض والورم وأسبابه ، ومفردات الأدوية وربط الجروح وتجبير العظام وضم الرفائد ، ولقد ذكر ابن القف أنه نقل هذا عن حنين بن اسحاق والرازى والزهراوى وابن سينا .

٢

٣ ـ الكيمياء .

لم يعرف عن اليونان الإهتمام بالكيمياء ، ولم تكن لهم كتباً تذكر فى هذا العلم ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك حالهم إذا انصب جل اهتمامهم على النظريات أكثر من اهتمامهم على النظريات أكثر من اهتمامهم بالتطبيق العملى ، ولذلك نجد اليونانيين قد بزوا فى البحوث النظرية دون العلوم التجريبية ، الأمر الذى جعل العلوم التطبيقية تمثل بحث جدلى يقبل عليه البعض ويرفضه الآخر .

لذلك كانت الإسكندرية لا أثينا هى المركز الذى نشأ فيه هذا العلم (٣٠) فهناك تكونت النواة الأولى لعلم الكيمياء وفيها توسع الكهنة فى الاشتغال به زعموا أنهم حولوا المعادن إلى ذهب وفضة . .

ولما عبر العرب الجاهلية إلى الإسلام إنطلقوا فى نهضتهم وكان أول ما إتجهوا إليه علم الصنعة (الكيمياء) . وقد اهتم الأمير خالد بن معاوية الملقب بحكيم آل مروان بصناعة الكيمياء حينما حبست عنه الخلافة ، وإنصرف إلى الاشتغال بالعلم وتلقى هذا الفن من راهب إسمه « مريانوس » استقدمه من مدرسة الاسكندرية ، وكان هذا أول عهد المسلمين بالعلوم الدنيوية (٣١) .

(٣٠) د . محمد عبدالرحمن مرحبا ـ الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ص ١٠٥ .

(٣١) المرجع السابق نفس الصفحة .

وتجلى اهتمام العرب بعد ذلك فى محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، والكشف عن اكسير الحياة الذى يشفى من كل داء ، بيد أن هذه المحاولات وإن باءت بالفشل ، إلا أن العرب قد وصلوا إلى حقائق هامة لم يدركوا اهميتها ومالها من الشأن العظيم أثناء عملية البحث والتمحيص والملاحظة والإستقرار والتجربة . . فقد كشفوا قوانين وعرفوا مواد جديدة أصبحت فيما بعد الأساس الصحيح الذى قامت عله نواح كثيرة فى الكيمياء الحديثة . ويكفى العرب فخرا انهم أول من نبهوا إلى أهمية التجربة العلمية لمعرفة أسرار الطبيعة فضلا عن المواد التى إكتشفوها . .

لقد اكتشف العرب [٣٢] القلويات والنشادر ونترات الفضة وحامض الطرطير (التارتريك) وعرفوا عمليات التقطير والترشيح والتبلور والتكليس كما انهم أول من استحضر حامض الكبريتيك والماء الملكى « حامض النيتروهيدرو كلوريد » والصواد الكاوية وكربونات البوتاسيوم والصوديوم وكلوريد الأمونيوم وكلوريد الزئبق (السليمانى) والراسب الأحمر أكسيد الزئبق وملح البارود والكحول ، وغير ذلك من المواد التى تقوم عليها الصناعات الحديثة . وكشف العرب كذلك الحامض الأزوتى « الماء المحلل » كما سماه جابر بن حيان .

كما أشار ابن الأثير إلى أن العرب استعملوا موادا إذا طلى بها الخشب لم يحترق واستعملوا هذه المواد فى معركتهم مع الفرنج .

وهذه المواد مازالت باسمائها العربية تستخدمها أوربا فى لغاتها المختلفة ، وعلى سبيل المثال الكحول والصابون والقهوة والنطرون والسكر والانبيق والبورق .

ولقد اتقن العرب صناعة الزجاج وتفننوا فيه وحسنوا صناعة الورق التى اخترعها الصينيون وحل محل أوراق البردى المصرى ، وألواح الطين وسعف النخل ، وجلود الحيوان وقطع النسيج وانتقل هذا الفن إلى أوربا بواسطة العرب الذين انشأوا مصانع عظيمة فى الاندلس وصقلية ، وقد دخل الورق إلى أوربا فى وقت مناسب حيث ساعد على تطور الطباعة بها .

---

(٣٢) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ص ١٠٦ .

منهج البحث فى علم الكيمياء عند علماء الاسلام :

جعل الشيخ الرئيس ابن سينا ، علم الكيمياء أحد فروع العلم الطبيعى فهو يرى أن علم الكيمياء الغرض منه هو سلب الجواهر المعدنية خواصها ، وإستفادتها من خواص غيرها ، أو إفادة بعضها خواص بعض .

وهذا التعريف يدل على أن الفلزات وهى الجواهر التى لا تحرقها النار بل تذيبها ، يدل هذا التعريف على أن الفلزات كلها مشتركة فى التوعية ، وأن الاختلاف الظاهر بينها ، إنما هو لإعتمادها على أمور عرضية يجوز إنتقالها ، يقول ابن سينا (٣٣) :

« نحن نسلم إمكان صبغ النحاس بصبغ الفضة ، والفضة بصبغ الذهب ، وأن يزال عن الرصاص أكثر مافيه من النقص ، فإما أن يكون المصبوغ يسلب أو يكسى ، فلم يظهر ، لى امكانه بعد ، إذ أن هذه الأمور المحسوسة يشبه أن تكون هى الأصول التى بها تصير الأجساد أنواعاً » .

ثم يستطرد قائلا :

« وإذا كان الشيء مجهولا فكيف يمكن يقصد قصد إيجاد أو إفناء » .

وكان ابن سينا يقيم الحجة إلى عدم إمكانية تحويل الرصاص إلى ذهب ، أو المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، ويورد ابن سينا فى هذا النص أن مايبدو لنا من صبغ بعض المعادن بصبغ الذهب والفضة كما هو حادث الآن ، فإن هذا المعدن ليس على الحقيقة ذهباً أو فضة ، لكنه شديد الشبه بالذهب أو الفضة بإحمرار لونه أو بياضه .

وقد سبق ابن سينا فيلسوف العرب الكندى إلى هذا القول ، لكن جابر ابن حيان يعارض هذا الرأى كما يعارضه أبو بكر الرازى ، وهذا الإختلاف هو الرحمة بعينها ، لإمكان إستمرار البحث فى هذا العلم .

فجابر ابن حيان يرى إمكان تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، أو الرصاص إلى ذهب أو فضة ، ولا يعنيننا كثيرا إفكار أو إثبات تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، ولكن الذى يهمنا هو نظرة علماء المسلمين إلى علم

(٣٣) منهج البحث العلمى عند العرب ص ١١٧ .

الكيمياء ، فإبن خلدون مثلا (٣٤) يقول عن هذه الصناعة :

« هو علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة » .

ومعنى هذا التعريف أن علم الكيمياء يبحث فى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة مثل الذهب والفضة ، وذلك عن طريق الصناعة ، والمراد بالصناعة هى الصنعة ، أو كما كان يسميها العرب الحيلة ، أى بالزيادة والنقصان فى الكيفيات الفاعلة والمفعولة والمنفعلة .

يستطرد ابن خلدون فى مقدمته فى شرح هذا المعنى فيقول :

« أن هذا العمل الصناعى ، هو الذى يقلب الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة ، وهو مايسمى بعلم الكيمياء » .

ومشكلة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، ترجع إلى قياس اقامه أرسطو فى مقدمتين (٣٥) :

المقدمة الأولى : مؤداها أن الفلزات واحدة بالنوع ، وإنما الاختلاف الذى بينها ليس فى ماهيتها وإنما فى أعراضها . وهذا الاختلاف بعضه فى أعراضها الذاتية وبعضه فى أعراضها العرضية .

وأما المقدمة الثانية التى أوردها أرسطو ، فيعبر عنها بالآتى :
« أن كل شيئين تحت نوع واحد ، وإن اخلتفا بعرضى ، فإنه يمكن انتقال احدهما إلى الآخر » .

وكان العلماء المسلمين لم يهتموا برأى أرسطو ويأخذوا به كقضية مسلمة ، إنما وضعوه كفرض علمى ، وبدأوا يبحثوا فيه ، فمن قال بإمكان تحقيق ذلك الفرض ؛ ومن منهم من أنكره .

ذلك فإن العلماء المسلمين يعتبرون بحق ، علماء تجريبيين من الطبقة الأولى ، حيث يطبقون علوم النظر على التجربة ، ليتعرفوا صدقها من كذبها .

ولقد جمع جابر بن حيان بين النظر والعمل فيما يتعلق بعلم الكيمياء ، لذا فقد إعتبر علم الكيمياء ، علم وحى ونقل ، كما اعتبر ذلك بعض العلماء من

---

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٤ ومابعدها طبعة القاهرة ١٩٤٨ م .
(٣٥) حاجى خليفة ـ كشف الظنون ـ الجزء الثانى ص ١٦٢٦ .

بعده ، لكنه قد فهم تعريف جابر بن حيان خطأ ، وظن بعضهم أن مصدر هذا العلم عند جابر ، هو الوحى الذى ينزل على النبى ، وقد فهم هذا الرأى خطأ الدكتور زكى نجيب محمود ، إذ وقع فى الخطأ الذى حذر منه جابر بن حيان نفسه (٣٦) حيث قال :

« إن الإكتفاء بدراسة بعض كتبى دون بعض يؤدى إلى تكوين فكرة مهوشة ناقصة عن مذهبى » .

ويستطرد ابن حيان فى كتابه « التصريف » قائلا :

« أن من لا يقرأ كتبى كلها بكل مافيها من تفصيلات وتعليقات . . قمين أن يكون فكرة خاطئة . .

وفى تصورنا أن جابر بن حيان إنما يقصد ، فيما يتعلق بعلم الكيمياء أن جزءا من هذا العلم يعتمد على الإلهام ، بمعنى أن العالم يلهم بالفرض العلمى من الله عز وجل ومن سنة الرسول ﷺ ، ثم يحاول إمتحان هذا الفرض تجريبيا وعملياً .

وهذا ما نجده عند المخترعين والعلماء فى الطبيعيات والرياضيات والميكانيكا وغيرها فالكميائى إذا اقتصر عمله على التجريب فحسب فإنه لن يستطيع أن يخرج بجديد إلا إذا ألهم ببعض الفروض التى يحاول أن يمتحنها عملياً ومعملياً ، إذا الأفكار الجديدة لا تعتمد على التجربة ، إنما تعتمد على وحى الإلهام ، أو على النقل من السنة ، أو رأى العلماء الذين سبقوه .

ومن هنا يجب الإشارة إلى إرتباط العلوم النظرية بالعلوم العملية ، فالعلم النظرى ضرورى للباحث فى العلم العملى ، فالميكانيكى أو الكهربائى ، يبقى عمره كله ميكانيكيا وكهربائياً ، دون أن يتقدم قيد أنملة ، إذا لم يدرس من الناحية النظرية ذلك العلم ، حتى يفتح عليه ويلهم الجديد فيه فى شكل إلهامات أو فروض يحاول أن يمتحنها علمياً ومعملياً ، حتى يأتى بالجديد والمستحدث ، وكذلك الأمر بالنسبة للكيميائى مادام يقتصر عمله على الصنعة الكيميائية فحسب ، فإنه لن يتقدم إلا إذا اهتم بالعلم النظرى وتعمق فى أصول الأشياء وأنواعها وأجناسها ، حتى يلهم بإمكان إستحداث الجديد ، أو

---

(٣٦) منهج البحث العلمى عند العرب ص ١٢٥ .

إستكشاف المجهول منها . وذلك بتطبيق النظر على العمل .

وهذا ما فعله جابر بن حيان ، وهذا واضح من كلامه عن منهجه إذ يقول : « قد عملته بيدى وبعقلى من قبل ، وبحثت عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب » .

ومعنى كلام جابر بن حيان ، ليس كما فسره بعض الطاعنين من أنه يعتمد على السحر أو الوحى ، أو أنه سر من الأسرار يحرم إذاعته إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة ، إنما المقصود بمنهج جابر بن حيان ، إنه يستخدم فى منهجه الكيميائى منهجاً علمياً يعتمد فيه على العقل والتجربة معاً ، فهو يستخدم الملاحظة ويسجل الظواهر الطبيعية ، كما يمتحن ذلك بالتجربة لتلك الظواهر أو الأشياء الخفية ، وكأن علم الكيمياء ينقسم إلى قسمين :

١ ـ فلسفة ذلك العلم .

٢ ـ تطبيقاته .

ولا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ففلسفة الكيمياء تقدم الأثر على النظر أى على استخدام العقل كما يقول جابر بن حيان ، وأما التطبيقات فتقوم على استخدام اليد أى التجربة ، ولابد من الربط بينهما عن طريق الملاحظة والتسجيل والاقيسة حتى يتمكن الباحث من إستكشاف الأمور الخفية ، واستجلاء الأشياء المجهولة . بحيث تصبح عن طريق التجاريب العملية والمعملية معلومة لدينا .

وربما يرجع هذا الإلتباس إلى صعوبة اللغة التى يستخدمها العلماء المسلمون ، كإستخدام لفظ الوحى ، أو النقل ، حيث نظن أن المقصود هو وحى الأنبياء ، وأن النقل مقصود به فى زعمهم ، النقل عن الكتاب الكريم والسنة المحمدية .

والمقصود فى تصورنا هو وحى الالهام ، الذى هو من أوصاف وصفات وخصائص العالم المسلم ، إذ أن الله سبحانه وتعالى ، يقذف فى قلبه إذا كان عدلا مستقيما ، ببعض المعانى أو الالهامات فى ذلك العلم الذى يشتغل به ، فيأخذ العالم هذه المعانى والالهامات ، ليطبقها علميا أو يمتحنها تجريبياً ، ليستوضح مغاليقها ، ويستكشف غوامضها لينتفع بها الناس فى حياتهم

الدنيوية .

وإذا ما عرجنا إلى العلماء فى العصر الحديث ، فإننا نجد أن أكثر المستحدثات والمستكشفات الجديدة ، فى أى فرع من فروع العلوم العملية والتطبيقية ، إنما تقوم أساساً على إلهام يلهم به الباحث فيحاول تطبيقه عملياً ليظهر فى صورة مخترع جديد .

وما النظريات العلمية الحديثة فى مجال التكنولوجيا ، إلا نوعا من إلهامات العلماء ، تمتحن فيثبت صدقها ونفعها للناس .

وهذا يقودنا إلى نقطة فى غاية الأهمية ، وهى أن العلماء المسلمين ، هم بحق الذين وضعوا أصول المنهج العلمى الحديث ، فربطوا بين العلوم النظرية والعلوم العملية ، وبين الحدس والتجربة وبين الاستنباط والاستقراء والدراسة المكثفة للسنن الكونية وماهيات الأشياء ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الشيخ الرئيس ابن سينا ، والبيرونى ، وجابر بن حيان ، والحسن بن الهيثم ، وأبو بكر الرازى وغيرهم كثيرون .

ooo
oo
o

٢

٤ ـ الطبيعة .

لكى لا نتهم بالتعصب والتحيز للمسلمين فإننا سنحاول أن نعتمد على آراء بعض الباحثين والكتاب الذين أفاضوا فى ذكر حضارة العرب الزاهرة فى فرنسا وغيرها من البلدان ، ومن أمثال هؤلاء جان جاك روسو وفولتير وأناتول فرانس وأميل لودويغ وغوستاف لوبون وغيرهم كثير .

ولقد كان « جوستاف لوبون » أجودهم انتاجا وأكثرهم خصوبة وثراء فقد وصلت مؤلفاته ومصنفاته إلى أكثر من أربعين مجلداً . لو نظمت لأصبحت مكتبة ثقافية . كما أن له من التأليف ما يدل أنه ناقد من الطراز الأول خاصة فى كتابه الذى سنقتبس منه بعض الفصول وهو كتاب « حضارة العرب » وهو يتناول فيه تاريخ الأمة العربية ومن عاش من الشعوب فى كنفها ، وبرغم أن الكتاب فيه الحيدة إلا أنه قد تغافل عن بعض النقاط الهامة ، وهذا راجع إلى الطبيعة الإنسانية أو إلى كونه من غير أبناء الإسلام .

وسنعرض لبعض مما قاله « جوستاف لوبون » فيما يختص بالفيزياء (٣٧) :

يقول غوستاف لوبون :

ضاعت كتب العرب المهمة فى الفيزياء ولم يبق منها غير اسمائها ، ويعدد

(٣٧) غوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ الفصل الخامس ـ الفيزياء وتطبيقاتها عند العرب « ترجمة عادل زعيتر » .

لوبون أسماء تلك الكتب ، فيذكر منها كتاب الحسن بن الهيثم فى الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة ، ويتحدث لوبون عن إكتشافات العرب فيقول : « إن أهم هذه الإكتشافات ، المركبات الكيماوية مثل حامض الكبريتيك والكحول وإكتشافهم للتقطير » .

ثم يعرض لأشهر مؤلفات العرب فى هذا الميدان فيقول :

« لقد اخترع العرب البارود حيث إستعملوه فى الحروب الصليبية قبل أن تعرفه أوربا بزمن طويل .

ويستشهد غوستاف لوبون بقول « جوانفيل » أحد القواد الصليبيين ، حيث صرح بأن أفظع شيء رآه فى حياته هو قذائف اللهب التى استعملها المسلمون ، ثم يصفها فيقول : إنها ضرب من التنانين الكبيرة الطائرة فى الهواء وهو يقصد بذلك قذائف اللهب بالمنجنيق .

واستنتج غوستاف لوبون من هذه الأسانيد التى جمعها بأن المسلمين هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهلة الانفجار وفى هذا الصدد يقول :

« إن القائد المسلم الأمير يعقوب حاصر زعيم الثوار فى مدينة المهدية بأفريقيا سنة ١٢٠٥ ميلادية وأنه ضرب أسوار المدينة بمختلف الآلات والقنابل ، ولقد ضربها بآلات لم يعرفها الناس من قبل . .

ويورد غوستاف لوبون أكثر من رواية تثبت أن العرب هم أول من استعمل البارود والقذائف فى العالم ، ومن تلك الروايات التى ذكرها رواية نقلها عن ابن خلدون المؤرخ الاسلامى العظيم « ليس البارود وحده هو أهم اكتشافات المسلمين فى عصور زاهره بل هناك إكتشافات عديدة منها صناعة الورق » .

يقول غوستاف لوبون : « لذلك فإن العرب هم أول من إستخدم الورق واستخدموه محل الرق » ، كما أنهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة البحرية وفى ذلك يقول :

« البوصلة هى من اختراع الصينيين ، لكن لم يقم الدليل على استخدامهم لها فى الملاحة ، إذا كانت قليلة النفع لهم ، وقد نقل العرب إختراعها وهم أول من استخدمها من الأمم على نطاق واسع ثم نقلها عنهم الأوربيين بعد ذلك » .

● الحسن بن الهيثم ٩٦٥ م - ١٠٣٨ م

إسمه الكامل الحسن بن الحسن بن الهيثم وكنيته أبو على ، ولد بالبصرة عام ٣٥٤ هـ وعاش حياته بالقاهرة . وكان يعرف بالهيثم البصرى وابن الهيثم البصرى ، وله مؤلفات وتصانيف عديدة اشتهر بها ، وانتشرت وعرفت فى العالم الإسلامى بما فى ذلك مصر فى حكم الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى كان زميل للعلم والعلماء .

ومن الطريف مايرويه القفطى عن بن الهيثم قوله : لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته ، من زيادة أو نقصان [٣٨] . وعلم الحاكم بأمر الله ذلك فاستدعى ابن الهيثم واغدق عليه العطايا والأموال والهبات ، بيد أن إبن الهيثم وجد نفسه عند معاينته إنسياب النيل غير قادر على تنفيذ ماوعد به ، فغضب الحاكم ، إلا أنه رغبه فى تولى الوزارة فقبلها ابن الهيثم مكرها ، غير أنه ما لبث أن إدعى الجنون ، ليحمل الملك على اعفائه من منصبه ، فعزله الحاكم وحبسه وصادر أمواله ، ويبقى ابن الهيثم فى السجن حتى توفى الحاكم ، فعاد ابن الهيثم ليبرز من جديد نشاطه العلمى .

مؤلفاته :

وقد ألف فى هذه الفترة كتابه « المناظر » ويعرف علم المناظر كما ذكر الأنصارى بأنه علم تعرف به أحوال المبصرات فى كميتها وكيفيتها وباعتبار قربها وبعدها عن الناظر ، واختلاف أشكالها وما يتوسط بين الناظر والمبصرات ، وعلة ذلك ومنفعيته ، وما يغالط فيه البصر من أحوال المبصرات ويستعان به على مساحة الأجرام البعيدة والمرايا المحرقة » .

وكتاب المناظر من الكتب الهامة قديما وحديثا لا يخلو كتاب ألف فى البصريات من الإشارة إلى ابن الهيثم باعتباره أول من ألف فى هذا العلم .

يقول ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء » كان الحسن بن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء ، متقنا للعلوم ، لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه ، دائم الاشتغال كثير التصانيف وافر التزهد » .

---

(٣٨) (تراث العرب العلمى - قدرى طوقان - ص ٢٩٥ وما بعدها .

ويورد القفطى فى كتابه أخبار العلماء قوله :

« إن الحسن بن الهيثم كان عالما بهذا الشأن ، يعنى علم البصريات ، متقنا له متفننا فيه ، عليما بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل ، أخذ الناس عنه واستفادوا منه » .

وفى كتاب تراث الاسلام جاء النص الآتى :

« إن علم المناظر وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » .

ويقول الصفدى :

« إن علم المناظر والبصريات علم طريف للغاية ، ولابن الهيثم فيه كتاب جليل رتبه فى سبع مجلدات » .

ويذكر سارتون وهو أشهر مؤرخ فى العلوم فى كتابه « مقدمة فى تاريخ العلم » ان ابن الهيثم كان أعظم عالم مسلم فى علم الفيزياء ، بل أنه ليعد أعظم علماء الفيزياء على الاطلاق فى القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله » .

وفى كتاب تولانسكى « ثورة فى البصريات » الذى نشر ١٩٦٨ م ورد قوله :

«لفترة امتدت عبر آلاف السنين ، كان المعروف عن كنه الضوء وماهيته القليل ، حتى ظهر الحسن بن الهيثم العالم العربى المتوفى فى القاهرة ١٠٣٨ م ، الذى أضاف إضافات قيمة جداً إلى ما كان يعرف عندئذ عن ماهية الضوء ، فلقد جاء بتفسير ـ على سبيل المثال ـ سليم لخداع البصر عند رؤية القمر فى الأفق ، وكأنه أكبر حجما منه حينما يكون فى كبد السماء ، ثم أنه أول من هاجم نظرية الشعاع التى كانت سائدة قبل ذلك لفترة طويلة ، كما كان أول من شرح تكوّن الضوء فى المرايا المحرقة » ويستطرد قائلا :

« وبوفاة ابن الهيثم كاد تقدم البحث فى علم الضوء أن يتوقف ، حتى جاء بيكون الايرلندىعام١٢٩٤ م وكان على دراية بأبحاث ابن الهيثم ، ونجح فى اختراع النظارات لتصحيح خطأ الابصار لكبار السن ، غير أن الحاكم عندئذ خاف منها ظنا منه أنها من عمل الشيطان ، فأدخل بيكون السجن حتى توفى فيه » .

وقد أولى دكتور مصطفى نظيف العالم العربى الذى يعد رائد علم الفيزياء الحديثة ، قد أولى جل عنايته للتعريف بابن الهيثم وألف كتابه « الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية » . ونشر الكتاب عام ١٩٤٢ .

يقول دكتور مصطفى نظيف :

« لقد إزدهر علم الضوء في عصر التمدن الاسلامى ، وكان ابن الهيثم من أعظم مؤسسيه شأنا ورفعة وأثرا ، وكانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوربا فى القرن السادس عشر ، وإذا اعتبر « نيوتن » رائدا لعلم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، فإن ابن الهيثم فى نظرى هو رائد علم الضوء حتى أوائل القرن الحادى عشر » .

ولابن الهيثم بحث مستفيض فى تشريح العين وتكوين صور المرئيات فيها ، ووظيفة كل عضو من اعضائها ثم طبيعة الرؤية بالعينين معا ، ويعتبر ابن الهيثم فى بحثه هذا ، قد قفز قفزة ضخمة فى تطور المعرفة عن حاسة الإبصار وما ينتابها من أخلاط وعلل . .

لم يقتصر ابن الهيثم على إثبات الحقائق العلمية فحسب ، بل أنه كان الأستاذ العالم الذى حرص على تسجيل المبادىء والاسس التى يجب أن يلتزم بها كل باحث عن حقيقة علمية . .

يقول ابن الهيثم (٣٩) :

« ونبتدىء فى البحث بإستقراء الموجودات ، وتصفح احوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط بإستقراء ما يخص البصر فى حال الابصار ، وماهو مطرد لايتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس . ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب . مع إنتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرىء به ونتصفحه ، إستعمال العدل لا إتباع الهوى » . .

ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده ، طلباً للحق لا الميل مع الآراء أليست هذه هى بنفسها فلسفة العلم الحديث فى الدراسة والبحث . . ؟

ويعبر إبن الهيثم عن طبيعة الروح العلمية عند الباحثين ، ويتشكك فى

---

(٣٩) لمزيد من الاطلاع راجع ـ د. جلال موسى ـ منهج البحث العلمى عند العرب .

مقالة اسمها « الشكوك » عند « إقليدس » يقول : الواجب على الناظر فى كتب العلوم ، إذا كان غرضه معرفة الحقائق ، أن يجعل نفسه خصما إلى كل ما ينظر ، ويجعل فكره فى متنه وفى جميع حواشيه ، ويحصيه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليها ولا يتمسح فيها » .

ويربط إبن الهيثم اراؤه العلمية بعقيدته الإسلامية المتينة فيقول : « ولعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونضعه مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف ، ويحسم بها موارد الشبهات » .

إلا أنه يتواضع تواضع العلماء ويستطرد قائلا :

« وما نحن من جميع ذلك بكُملٌ مما هو فى طبيعة الإنسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ماهو لنا من القوة الإنسانية ، ومن الله نستمد العون فى جميع الأمور » .

يربط إبن الهيثم إذن بين العلم والايمان ، فهو عالم يهتم بإجراء التجارب العملية قبل استقراء الأحكام العامة ، ويرى أن الاعتماد فى البحث على الحقائق يلزم أن يكون اولا عن الأمور الحسية وفى ذلك يقول :

« فرأيت انى أميل إلى الحق ، إلا من أمور يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، يربط إبن الهيثم بين شرح التجربة وهو ما أسماه الاعتبار ، والذى يعتمد فيه على الحس والعقل ، وبين استمداده العون فى جميع الأمور من الله تعالى ، لم يكن الحسن بن الهيثم يهتم فقط بالتجارب التلمية ، ولكنه أيضا كان يصنع بنفسه الآلة التى يجري عليها التجربة ، أو على الأقل يشرف على من يصنعها له ، ولاشك أنه الأسلوب العملى الذى يستخدم فى أسمى وأرقى العلمية المتقدمة فى العصر الحديث .

● ٢ ـ الفارسى :

هو كمال الدين أبو الحسن الفارسى ، توفى بالقاهرة ١٣٢٠ م أى بعد وفاة ابن الهيثم بثلاثة قرون ، والفارسى هو صاحب كتاب « تنقيح المناظر » وهذا الكتاب إنما هو شرح لكتاب « المناظر لابن الهيثم » ليسهل على طلاب العلم

الاستفادة منه ، وييسر تناوله .

جاء كتاب « تنقيح المناظر » إذن كتاباً شاملا لكتاب ابن الهيثم « المناظر » . فهو يشرح ماكان مجملا عن ابن الهيثم ، ويجعل ماكان مسهباً ، بالإضافة إلى التعليقات الضرورية التي يتضمنها البحث .

ولقد اشتهر الفارسي بكتاب « تنقيح المناظر في علم الضوء » ، الذى اكتشفه المستشرق الالمانى « فتدمان » سنة ١٨٧٦ م في مكتبة ليدن بهولندا . وقد عنى الفارسي في كتابه هذا ـ مع شرح عميق ـ بكتاب « المناظر لابن الهيثم » . وخاصة فيما يتعلق بالضوء كما أنه إستكمل مسيرة ابن الهيثم في طريق البحث العلمى الجاد المثمر ، ثم أنه أضاف مباحث جديدة رسمت لعلم البصريات طريق التطور الحديث .

لم يكن الفارسي ناقلا عن ابن الهيثم ، وإنما كان له استقلاله بالرأى . فهو يعارض ابن الهيثم فيما جانبه الصواب فيه ، ثم أنه ينصفه بما ينتهى اليه عن اقتناع وتفسير .

ونضرب لذلك مثلا فيما قاله ابن الهيثم عن مرية إنعطاف الضوء على سطح فاصل ويشبهه بكره صغيرة تقفز بشدة على لوح صغير .

يقول :

« فإذا كانت حركتها عمودية نفذت على إستقامة ، أى أنه إذا كانت فى اتجاه مائل لم تنفذ على إستقامة » .

ويعارض الفارسي ذلك ويقول :ـ

« هذا ماذكره إبن الهيثم رحمه الله فى لومية الإنعطاف على النحو المشروح ، ولا يخفى أنه كلام خطابى وبيان تمثيلى ويرد عليه قائلا :

« إن العاكس » وإن كل يمنع من نفوذ ويوجب رده ، فكيف ينعطف فى الأجسام المخالفة فى الشفقة التى هو فيه ؟ وإن لم يمنع فلم ينعكس من سطوح المانعات مع نفوذه فيها ، وغير جائز أن ضوءا واحدا بعينه ينفذ وينعكس فيكون الواحد إثنين » .

إن أضافات الفارسي فى بحوث الضوء قد بدأت حيث انتهى إبن الهيثم ،

رغم أن المدة بينهما ثلاثمائة سنة ، ولم يسجل التاريخ جديدا فى هذه الفترة غير ما أدركه ابن الهيثم ، وأما الجديد الذى أضافه الفارسى وهو استكمال لدراسة نظرية الإبصار وأحكام الانعطاف ، ومباحث الكرة المحرقة فضلا عن بحوث الفارسى عن « قوس قزح والهالة » .

ومن بين البحوث التى لم يعالجها ابن الهيثم واهتم بها الفارسى ، نظرية إنعكاس الضوء وإنكساره فى الكرة المشفة ، وكذلك بحثه فى تكون الألوان بإنكسار ألوان الطيف . وهذا الرأى قريب جدا مما نعرفه الآن عن تكوين الاطياف .

وقد رسخت آراء ابن الهيثم والفارسى فى جذور علم الضوء ، وبرسوخ علم الضوء جنيت ثماراً يانعة ، وبفضلها تطور علم الضوء والبصريات كما نعرفه اليوم ، كما كان لابن الهيثم الفضل فى إستقرار ذلك العلم الذى تخبطت فيه الآراء منذ فيثاغورث فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وافلاطون وتلامذة أرسطو .

كانت النظرية القديمة فى الضوء قبل ابن الهيثم ، تتأرجح بين خروج الضوء من البصر إلى المرئى ، وبين إنبعاث الضوء من الأجسام المضيئة للعين .

لقد كانت هذه الآراء مبنية على الحدس والتخمين ، أكثر من إعتمادها على التجربة والاستقراء العلمى ، حتى جاء ابن الهيثم العالم المتعمق المجرب ، فغزى نظرية إنبعاث الضوء أو الإستشعار من البصر ، وأثبت بالدليل الحسى القاطع إنبعاث الضوء من المصدر المضىء ليسقط على العين ، إما مباشرة أو بعد إنعكاس أجسام أو إنكسار من أوساط مشعة .

وقد أيده الفارسى بالأدلة العلمية ، وأصبحت تلك النظرية حجر الزاوية ، إذ جعلها علماء الغرب القدامى اساساً لدراساتهم وإكتشافاتهم فى علم الضوء من أمثال بيكون ١٢١٤ - ١٢٩٤ م ، الذى إهتم بدراسة العدسات والميكروسكوب والتليسكوب ، ثم فيلدو البولندى ١٢٧٠ م والذى اشتهر بكتابه فى علم الضوء ، واعتمد على منهج الهازن ويعنى ابن الهيثم ، وجليليو وبطليموس وغيره .

° ° °
° °
°

٢

٥ ـ الفـــلك .

علم يبحث فى أحوال الأجرام السماوية بحثا علميا منظما قائما على الرصد والمشاهدة لا على الخيال ، وأوهام التنجيم ، وقد سمى فى الاصطلاح الحديث بعلم الفلك ، وقد كان هذا العلم قبل صدور الاسلام علماً هابطاً إنحط إلى محاولة معرفة مصير الإنسان وأحوال العالم فى المستقبل عن طريق دلالات من النجوم والكواكب .

وكانت الأمم السالفة قبل الإسلام تعرف عن هذا العلم إنه محاولة لإستطلاع الخبايا ومعرفة الغيب ، فلما بزغ الإسلام بين فساد هذا الاعتقاد ، وأكد أن الله وحده هو علام الغيوب وأن الإنسان لا يستطيع أن يستأثر بعلم ماهو فى علم الله .

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ (آل عمران : ١٧٩)

ويقول عز من قائل

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ (الأعراف : ١٨٨)

لذلك اشتدت النزعة العلمية فى الفلك وتخلصت من أوهام التنجيم . وقويت واشتد ساعدها مع الأيام ، وتقدم علم الفلك كما تقدمت عند العرب فروع المعرفة المختلفة ، ولقد اعتبر العرب أن علم الهيئة (علم الفلك)

شاهدا قويا على عظمة الله وقدرته ، فاكتسب بذلك معنى دينيا عميقا ، فضلا عن حاجتهم الماسة إلى ذلك العلم لمعرفة أوقات الصلاة ، ومعرفة الأهلة لإثبات الصيام والأعياد واتجاه القبلة .

ولقد تعمق العرب فى هذا العلم وشغفوا به وجمعوا ماكتبه اليونان والهنود ، ثم صححوه من اخطائه وطهروه من ادران التنجيم ، وأضافوا اليه أشياء هامة واكتشافات جليلة كانت السبب المباشر لتقدم هذا العلم على أيدى الأوربيين والذى تجنى بعض ثماره فى عالمنا الحاضر .

وقد اعتنى الخلفاء بعلم الفلك وخاصة أبو جعفر المنصور إذ أمر بنقل كتاب « السند والهند » إلى العربية (٤٠) عن طريق حكيم هندى خبير بمعرفة النجوم ، فأمر المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، ثم عهد إلى محمد بن إبراهيم الغزارى ، الذى ألف كتاباً على نهج « السند هند » سماه السند هند الكبير « وترجمته ذلك الدهر الداهر » (الخلود) واعتمد العلماء على هذا الكتاب حتى عصر المأمون ، حتى وضع الخوارزمى كتابه الذى اشتهر به فى كل البلاد الاسلامية .

وقد ترجم فى عصر المنصور كثيرا من كتب الفلك مثل كتاب بطليموس فى صناعة أحكام النجوم الذى يسمى بكتاب « الأربع مقالات » وقد ترجمه أبو يحيى البطريق .

واهتم الخلفاء من بعد المنصور فى طلب هذا العلم مثل المهدى والرشيد والمأمون ، وبذلك نشطت الحركة العلمية فى علم الفلك ، ورصدت الكواكب والنجوم ووضعت الجداول الدقيقة لها ، مما كان له الشأن العظيم عند البحث فى تاريخ الكواكب وحركاتها ومواقعها .

وقد استخدم موسى بن شاكر فى حساب طول خط النهار ، خطاً وهمياً على سطح الأرض ، كما أصطنع أحمد بن عبدالله ثلاثة أزياج (٤١) .

---

(٤٠) تراث العرب العلمى ـ قدرى طوقان ـ ص. ٢٩٥ وما بعدها .

(٤١) جمع زيع والزيع جدول يحتوى على ما يخص كل كوكب من السرعة والبطء والاستقامة وغير ذلك وهو ضرورى لمعرفة مواضع النجوم والحد الأقصى للبعد بين الأرض والشمس .

وهناك الكثير من العلماء الذين اهتموا بالفلك مثل ثابت بن قرة والبنزجانى وابن يونس المصرى والصاغانى والكوهى وجابر بن الأفلح والبيرونى والطوسى ، والمقربطى والبتانى ، وأشهر الازياج (الجداول الفلكية) زيج الخوارزمى والغزانى وغيرهم .

وأدت هذه الدراسات إلى أن مواقع بعض النجوم تغير عما كانت فى عصر بطليموس ، كما ضبط العرب أوج الشمس ، والعرب أول من راقب تغير الشمس فى البعد والقرب ، وكان الاعتقاد السائد قبل ذلك أن الطول لا يتغير وقد حمل العرب هذا العلم إلى الأندلس ، وازدهر فى قرطبة وطليطلة ، ووضعت اللوائح الطليطلية فى سنة ١٠٨٠ ميلادية ، وضعها عالم عربى مسلم يسمى الزرقائى وهو أعظم علماء الفلك فى عصره وهو الذى قاس حركة الشمس فوجد انها ٤٢٠,٣٢ دقيقة وقد ثبت فى القياس الحديث انها ١١,٠٨ ، والغريب ان كوبر نيكوس قد إقتبس الشواهد من الزرقانى والبتانى .

والعرب أول من قاس محيط الأرض وحساب نصف قطرها بطريق علمى وأوجدوا طول درجة من خط نصف النهار ، وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة ، وذلك قبل أن تعرفها أوروبا بمئات السنين .

وقد حسب ابن رشد بالحساب الفلكى لوقت عبور عطارد على قرص الشمس ورصده وشاهده بقعة سوداء وهو ما ثبت بالضبط فيما بعد .

لقد انتقد العرب بطليموس وأظهروا كثيرا من أخطائه بعد أن اهتموا ببناء المراصد واستخدام الآلات استخداما علميا صحيحا وكشفوا عن الاخطاء التى وقع فيها .

ولقد بنى أول مرصد فى الاسلام فى دمشق فى عهد الامويين لكن الثابت أن المأمون قد قام ببناء مرصدين أحدهما على جبل قيسون والآخر فى الشماسية ببغداد ، ثم تولى بعد ذلك بناء المراصد فى انحاء مختلفة من البلاد الاسلامية لكن أشهر المراصد هو مرصد المراغة الذى بناه نصر الدين الطوسى وهو أعظمها شأنا .

لقد كان للعرب كما سبق الاشارة مساهمات عظيمة فى علم الفلك ،

وما علينا إلا أن نقرا او نشاهد بعض الأسماء الأفرنجية للنجوم حتى نعرف أن ٥٠٪ على الأقل من أسماء هذه النجوم قد وضعها العلماء العرب ، واحتفظت إلى الآن بالإسم والترجمة العربية فى اللغات الأوربية .

لقد اعترف الأوربيون بفضل العرب فى علم الفلك فإنهم عندما تمكنوا من رسم خريطة لسطح القمر قرروا أن يطلقوا على بعض البراكين أسماء بعض العلماء المسلمين فأطلقوا اسم « أبى الفداء» على فوهة بركان واسم البتانى على فوهة بركان آخر .

لقد كان العرب منابر للعلم والفكر ومنائر تشق الظلام فى العصور الوسطى المظلمة ، ثم خلفوا الخضرة والنماء لقوم جياع ، نهلوا من فضلهم ، وتابعوا خطواتهم ، ولا يسع المرء حين يستعرض آثارهم فى الماضى البعيد والقريب أن يستشف المستقبل المرموق الذى ينتظرهم فى يقظتهم الحاضرة .

وجملة القول أن للعرب فضل كبير على الفلك إذ :

(١) نقلوا العلوم الفلكية عن اليونان والفرس والكلدان والسريان وتوسعوا فيها [٤٢] ويعتبر هذا من الأعمال الجليلة جدا إذا علمنا أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها العربية فحسب ،، مما جعل الأوربيون يأخذون علم الفلك بفصوصه ونصوصه وجواهره عن العرب رأسا فكان العرب بذلك أساتذة للعالم كله فى علم الفلك .

(٢) إن اضافات العرب الهامة واكتشافاتهم الجليلة التى ذكرنا بعض منها قد جعلت علم الفلك يتقدم نحو الأمام شوطا بعيداً .

(٣) ان العرب هم الذين جعلوا علم الفلك علما استقرائيا فلم يتوقفوا عند حدود الأفكار النظرية وإنما جعلوه علما عمليا .

ونذكر بعض هذه الأسماء باللغة الأفرنجية كما هى معروفة عند علماء الفلك فى الوقت الحاضر ، ويتبين الإسم العربى المشتقة منه ، وبملاحظة بسيطة جدا نجد أن الأسماء الأفرنجية هى إسماء عربية مكتوبة بحروف أجنبية فحسب ، بحيث يمكن أن تنطق بالأسم العربى ، إلا أن يكون ليس هناك من بديل

---

(٤٢) تراث العرب العلمى ـ ١٣٨ .

لبعض الحروف العربية باللغة الأجنبية فيستبدل لفظ قريب مثال ذلك هذه القائمة من الاسماء (٤٣) :

الغراب	Algorah
عرقوب الرامى	Arkab
عرش الجوزاء	Arsb
الكف الخصيب	Caph
الراعى	Ei — Rai
فم الحوت	Famul — hout
العقرب	Acrab
النسر الطائر	Altair
الذئب	Deneb
العذراء	Aldra
الشرطان	Sheratan
قرن الثور	Tauri
الناطح	El — Nath
مركب الفرس	Markab
النهال	Nihal
صدر الدجاجة	Sadr
سعد الملك	Saadel — Melik
أنف الفرس	Enif
القائد	Alkaid
الكاس	Alkes

(٤٣) تراث العرب العلمى ـ قدرى طوقان ـ ص ٣٧ ـ ١٣٨ .

٢

٦ ـ الرياضيات .

حظيت الرياضيات بالكثير من عناية العرب ، وبرعوا فيها وأضافوا إليها إضافات كانت السبب فى تقدمها ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى العصر الحاضر .

ولم يكن للعرب فى الجاهلية أى اهتمامات رياضية ، حتى جاء الاسلام وفتح العرب الفتوح ، واختلطوا بالأمم ، فاشتدت حاجتهم إلى الأعداد والأرقام فى ضبط الحسابات وتنظيم السياسة المالية ، فضلا عن الأغراض العلمية ، ورجعوا إلى الرياضيات الأغريقية فلم تشبع ظماؤهم العلمى ، حيث كانت فى أصلها دراسات نظرية لا تحقيقا لأهداف عملية .

لذلك وضع العرب أقدامهم على الجانب العملى للرياضيات ، بعد استيعابهم للجانب النظرى فيها ، إذ أن للعرب مفهوما للعلم يختلف عن مفهوم الاغريق ، فالعلم له غايات عملية ، وليس مقصورا على المتعة واللذة ، ومن هذا المنطق ظهرت عبقرية العرب فى تقدم العلم بعامة والرياضايات بخاصة والجبر بصورة أخص .

لقد عرفت الرياضيات طريقها على أيدى العرب ، وأصبحت بهذا التحول الكبير علماً أساسياً فى التقدم الحديث .

ولولا العرب ما أنجبت أوربا هذه العبقريات ، مثل « كوبر ليقوس » وكيلر

وغيرهم .

وقد تقدمت الرياضيات على أيدى العرب بخطوات مذهلة ، بعد أن كانت حشداً من العلوم المشوشة ، وخليطاً من الحقائق المبعثرة لا يربط بينها رابط ، فقد كان الجبر كما كان الحساب علمين بدائيين كما كانت الأرقام الرومانية نظاماً ثقيلا مربكاً (٤٤) .

وقد قسم العرب الرياضايات أو علم التعاليم إلى أقسام منها :

أ ـ الحساب

ب ـ الجبر

جـ ـ الهندسة

د ـ الحيل

هـ علم الهيئة .

أ ـ « الحساب »

شغف اليونان بالأرقام بذاتها ، أما العرب فإن شغفهم لها لم يصرفهم عن جانبها العملى ، كذلك أصبحت الأرقام أداة نفع عظيم فى أيدى العرب ، ولقد إستخدمت الأمم الألفاظ قبل أن تعرف الأرقام ، ثم جدت العناية لوضع رموز من حروف الهجاء ومن هنا نشأت الأرقام وعرف الألف برمز الـ (١) والباء برمز (١١) والجيم (١١١) والياء إلى عشرة وبتركيب هذه الحروف مع الواحد ، صنعوا مايشاءون من أعداد فخرجت الأعداد غلاظا للقارىء والحاسب على السواء ، وهكذا كان الحساب عند جميع شعوب العالم القديم تقريبا .

وعن طريق الأندلس دخلت الأرقام العربية إلى أوربا ، وعرفت بأسم الأرقام العربية ، وحلت تدريجيا محل الأرقام الرومانية وصارت هى العمدة فى الاستعمال فى أوربا والغرب حتى يومنا هذا . . ومازال تعرف حتى الآن باسم

(٤٤) الدكتور عبدالرحمن مرحبا ـ الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ص ١٢٢ « دار الكتاب اللبنانى » .

الأرقام العربية .

والعرب هم الذين جعلوا للأرقام نظاماً عملياً سهلا ، أمكن أن يحظى بقبول العالم كله ، وقد كانت الخدمة الرئيسية التى أسدوها فى هذا الحقل هى إستخدام الصفر إستخداما مرنا . .

وقد وقعوا على الصفر عندما لم يجدوا فى بعض مراتب الأعداد شيئا ، وحدث الإختيال ، حتى إستخدموا الصفر ومعناه الشىء الفارغ ، فيقال صفر اليدين أى فارغها ، وبيت صفر من المتاع أى خال . وكان العرب يرمزون للصفر بدائرة طمسوها فسارت نقطة .

ويعتقد أن العرب أخذوا الصفر من الهنود فقد كانوا يعرفونه ، ثم إنتقل إلى الأوربيين وسموه Cifre .

ولقد استخدم العرب الصفر قبل أوروبا بمائتى عام ، ولم يستخدمه الأوربيون إلا بعد ما تأكدوا ان الصفر لم يكن اختراعا أحمق ، وذلك فى القرن الثانى عشر ، وتأكد لهم أنه كشف جديد ، وليس كما يظن مدعوا العلم فى الغرب أنه لا قيمة له ، وبأستعماله كانت العمليات الحسابية المعقدة ، وأصبح فى الإمكان حل المعادلات الطويلة ، وبذلك أصبح العدد له أكثر من رتبة ينتمى اليها ، فهناك مرتبة الآحاد والعشرات والمئات والألوف ، وبالعكس فان ذلك ينطبق أيضا على الصفر ، إذ أن قيمته فى مرتبة العشرات ، كما أن تقل قيمته إذا نزلنا به إلى مرتبة الآحاد غيرها فى مرتبة العشرات ، كما أنه تقل قيمته إذا نزلنا به إلى مرتبة أدنى من مرتبة الآحاد . ويعطينا الأعداد الكسرية . وقد عرف العرب الكسور العشرية وعرفوا مزاياها (٤٥) .

وعن طريق معرفة الكسور استطاع « غياث الدين الكاشى » فى القرن الخامس عشر أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها وهذه النسبة أوفر من النسبة التى تستعمل حديثا .

وأخيرا تأسس علم الحساب الحديث (٤٦) ، واستخدمت طريقة الكتابة

---

(٤٥) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ د . عبدالرحمن مرحبا ص ١٢٦ .

(٤٦) المرجع السابق : ص ١٢٧ .

العربية للأعداد ، والتى تبدأ من اليمين إلى اليسار ، ولا تزال كما هى فى طريقة كتابة الأعداد باللغات الحديثة ، وهذا شاهد على قوة التأثير العربى .

وقد وصل الحساب العربى إلى أوربا عن طريق الأندلس التى كانت قبلة العلماء والمفكرين فى أوربا ، وكان من أشهرهم جيربرت الذى وفد إلى الأندلس وتلقى فيها دراساته العليا ، والذى أصبح فيما بعد بابا الكنيسة الكاثوليكية فى روما واستطاع بنفوذه أن يعلم هذا الحساب الجديد لاوربا لاقتناعه به وبخطره .

وللخوارزمى الذى ظهر فى عصر المأمون ، الفضل فى تعريفه للناس بالحروف الهندسية ووضع الحساب وضعا علمياً ، فقد ألف كتاباً فى الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والمادة ، وقد نقله « أولارد أوف باث » إلى اللاتينية ، وهو أول كتاب دخل أوربا فى علم الحساب ، وبقى زمنا طويلا مرجعا للعلماء والتجار والحاسبين ، ومازالت صناعة الحساب تنتسب إلى الآن للخوارزمى .

ب ـ الجبر

لم يكن لليونان جهوداً تذكر فى مجال علم الجبر ، فبالرغم من أن الشعب اليونانى كان عملاقا فى الفلسفة والهندسة ، فقد كان قزما فى الحساب والجبر .

وإن من أعظم مآثر العرب اشتغالهم بالجبر ، كما اشتغلوا كما سبق الذكر بالحساب حتى أتوا فيه بالعجب العجاب . ويكفى أن ندلل على فضلهم أن إسم الجبر هو نفس الاسم باللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والروسية والألمانية ، وأن أول من اسماه علم الجبر العالم العربى الرياضى محمد بن موسى الخوارزمى ، فهو أول من ألف فى هذا العلم ، وله كتاب فيه اسماه « الجبر والمفاضلة « .

ولقد كان لهذا الكتاب أثراً عظيماً فى علم الجبر « بحيث أن يجدر بنا أن نقول بأن الخوارزمى وضع علم الجبر كما وضع ايضا علم الحساب . ولم يعثر حتى الآن على كتاب يسبق كتاب الخوارزمى فى حل المعادلات الجبرية ، ولا يمكن ان يقال أن هناك من سبقه أو نقل هو عنه فى هذا العلم (٤٧) .

---

(٤٧) راجع قدرى طوقان . تراث العرب العلمى .

كلا المجالين ، المجال الرياضى والمجال الأدبى [٤٩] وفاقوا بذلك غيرهم من الأمم .

فهذا الكتاب « الجبر والمقابلة [٥٠] ، نجد مؤلفة جميع بين الجبر والأدب ، وجعلهما متممين أحدهما للآخر ، فالمادة الرياضية موضوع هذا الكتاب ، يعرضها البيرونى فى أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ولا غموض ، ويبسطها فى أسلوب أدبى أخاذ يثم عن علم غزير ، وإحاطة كلية بدقائق اللغة العربية . وكأن العلوم الرياضية بما فيها الفلك والطبيعيات ، من الممكن أن تتعانق فى عناق طويل مع الشعر والأدب ، يدل على الوصل الدائم بين علوم الإلهام وعلوم التجريد .

ومن يقرأ كتاب « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » للبيرونى يشعر أنه أمام أسلوب أدبى سلس خال من الغموض والالتواء ، يظفر منه القارىء بصيد ثمين فى مجال العلم والأدب ، ويشعر بلذتين متوازيتين فى مجالين مختلفين ، لذة الأديب ، ولذة العالم الرياضى .

ومن مالم يسمع عن الخيام ومن يقرأ رباعياته وهو الشاعر العظيم والفيلسوف الجهبذ والأديب النابغة ، ومن لا يعرف من ناحية أخرى أنه الرياضى الفلكى ، الذى يعد من الطبقة الأولى الممتازة فى تآليف الجبر والفلك ، اذ هو الذى وضع بعض قوانين الجبر مثل « نظريات الاعداد » كما هو الذى ابتكر طرق جديدة فى حل معادلات الدرجة الثانية وبعض أوضاع الدرجة الثالثة .

ومن ينسى الشيخ الرئيسى ابن سينا ، الشاعر الطبيب الفيلسوف ، الذى ربط بين الطب والفلسفة ، كما ربط قبله فيلسوف العرب الأول الكندى ، كما ربط بعده الفارابى بين العلوم المختلفة .

ولهؤلاء مآثرهم فى الأدب والفلسفة والطب ، كما لهم مآثر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية .

---

(٤٩) تراث العرب العلمى ـ د . قدرى حافظ طوقان ـ ص ١٣٩ ص ١٣٩ ومابعدها .

(٥٠) للبيرونى

وقد فصل العرب بين الجبر والحساب ، وحلوا معادلات الدرجة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ، وربطوا بين الجبر والهندسة فسبقوا ديكارت واضع أصول الهندسة التحليلية ، ووضعوا حلولا جبرية لمعادلات إبتدعوها واستعملوا الرموز فى حساباتهم الرياضية ، فسبقوا الغربيين بقرون . . وحتى الزعم بأن ديكارت ابو الهندسة التحليلية ليس صحيحا ، إذ العرب هم أول من وضعوها ، ولا تخفى أهمية الهندسة التحليلية فى عصرنا هذا .

لقد سبق العرب فيتا Vieta الذى يرجع إليه الفضل فى مبدأ استعمال الرموز فى الجبر (٤٨) ، والذى ساعد ديكارت من خلال هذا المبدأ فى التقدم ببحوثه يتعلق بالهندسة التحليلية ، وهذا مبدأ مشهور عند الغربيين ، لكن الحق أن العرب هم الذين وضعوا أصول الهندسة التحليلية ، أو على الأقل اقتبس العلماء الغربيون منهم ، أبحاثهم فى هذا المجال ، وتغذوا بالثقافة العربية .

الشعر الرياضى :

إتهم المسلمون بأنهم أصحاب عقلية تحليلية ، وأنهم قوم خطابة وشعر ، وليسوا بأصحاب عقلية تركيبية ، تركب الأشياء بعضها مع بعض فى تناسق وإنسجام ، والذى يتميز به التفكير العقلى المنظم ، وبذلك أخرج المتعصبون ضد الإسلام ، العرب بخاصة والمسلمين بعامة من مجال العلوم العملية والرياضية ، وهذا ظلم عظيم .

فمن يرجع إلى تراث المسلمين العلمى ، يجد أن هذا الرأى لا يستقيم مع هذا الكم الهائل من التآليف فى العلوم المختلفة ، ويجد المتأمل العرب أصحاب ثقافة عالية ومعارف شمولية تجمع بين فروع العلم المختلفة ، وربما يكون الجمع بين الرياضة والشعر من أصعب الأمور على الاطلاق ذلك لأن الشاعر لا يستسيغ الرياضيات ، والرياضى لا يتذوق الادب ، فكيف يجمع بينهما ؟ وإذا كان ذلك ضرب من المستحيل ، فقد جعله العرب أمرا مقبولا مستساغا .

فأمامنا من كتب الأقدمين من علماء العرب ونوابغهم وقد جمعت بين الادب والرياضيات ، وبرز بعض العلماء المسلمين فيهما معاً ، وأضافوا إضافات فى

---

(٤٨) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ـ د. محمد عبدالرحمن مرحبا ص ١٣٠ .

وما رأى الطاعنين فى الاسلام فى الديورى [٥١] الذى اشتهر بالآداب والهندسة والحساب والفلك وعلم النبات ، فجمع بين الحكمة والبيان ، وبين الرياضة والأدب .

وإذا ما عرضنا لعلماء المسلمين الذين ربطوا بين العلوم العلمية والعملية والعلوم الحياتية ، فإنه لن يكفينا هذا الكتاب أو عدة كتب أخرى ، لنعرض فيها هذا الكم الهائل من التأليف ، التى يقف الانسان عاجزاً حائراً أيها يأخذ وأيها يترك ؟ فجميعها تصل إلى مرتبة الطبقة الأولى فى التأليف ، وتكتب لأصحابها نعمة الخلود . وهذه أرجوزة ابن الياسمين [٥٢] التى تبدأ بمقدمات عن الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ثم مقدمة فى الكسور العشرية ، ثم باب فى الجبر « جبر الكسور » ، وفى عكس جبر الكسور ، والصرف ، وطرق إستخراج المجهولات ، ثم ينتقل ابن الياسمين فى أرجوزته إلى علم الجبر والمقابلة وهو من أهم أبواب الأرجوزة .

يقول ابن الياسمين فى أرجوزته :

على ثلاثة يدور الجبر المال والأعداد ثم الجذر

فالمال كل عدد مربع وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب للمال أو للجذر فأفهم تصب

ومعنى ذلك أن المال كل عدد مربع ، وأما الجذر فهو أحد ضلعية ، وأما العدد المطلق فهو الذى لا ينتسب إلى جذر ولا إلى مال ولا إلى غيرها .

ثم يشرح لنا ابن الياسمين ماهية الجذر ، فيقول فى أرجوزته :-

والجذر والشيء بمعنى واحد كالقول فى لفظ أب وولد

ومعنى ما يريده إبن الياسمين ، أن الجذر والشيء مترادفان ، أى أن مايقال عن الجذر ، هو ما يقال عن العدد المجهول ، أى كما يعرف فى علم الجبر بالرمز « س » وعلى ذلك يكون المال هو « س^{٢} » .

---

(٥١) (٥٢) تراث العرب العلمى ص ١٤٢ - ١٤٣ .

ويضف لنا ابن الياسمين المعادلات وأقسامها وأنواعها فيقول عنها :

فتلك ست نصفها مركبة ونصفها بسيطة مرتبة
أولها فى الإصلاح الجارى أن تعد الأموال بالأجذار
وإن تكن عادلت الأعداد فهى تليها فأفهم المراد
وإن تعادل بالجذور عددا نتلك تتلوها على ما حددا

هذا ذكر للمعادلات وأقسامها الستة فى رأى علماء الجبر المسلمين ، فالمسألة الأولى :

هى أن تعادل الأموال الجذور ، أى أن : (أس$^{(٢)}$ = ل س)
وأما المسألة الثانية :
أن الاموال تعادل العدد ، أى أن : (أ س$^{(٢)}$ = حـ)

وأما المسألة الثالثة :
أن تعادل الجذور العدد ، أى أن : (حـ س = هـ)

ويبين لنا ابن الياسمين كيفية حل هذه المسائل ، والخطوات الواجبة الإتباع لمعرفة المجهول ، ثم يشرع بعد ذلك فى ذكر المعادلات الثلاث المركبة ، وهذا ما يطول شرحه وليس مقصودنا فى هذا الكتاب .

إننا بعد ذلك ، لسنا بحاجة إلى القول أن ما قدمه هؤلاء العلماء الشعراء فى هذا الباب ، لا نستطيع إلا أن نقف أمامه فى عجب وذهول ، فهو شىء فوق حدود العقل لما يحمل من قدرات فائقة على الإبتكار والتجديد ، مما يكتب لهؤلاء العلماء المسلمين للبقاء والخلود . .

جـ ـ الهندسة

إشتهر اليونان بنبوغهم فى علم الهندسة « فقد أضافوا إليها إضافات عما نقلوه من الأمم السابقة عليهم ، حتى إنه قد إنتسب إلى اليونان وحدهم أصول هذا العلم .

واشهر من إعتلى عرض الهندسة قديما هو إنليدس اليونانى ٣٣٠ ق م .
وقد لمع مؤلفه « كتاب إقليدس فى الهندسة » حتى أنه إلى الآن لا يبارى .

ولقد تلقى العرب كتاب إقليدس ، وترجموه وعلقوا عليه واسموه بكتاب

الأصول أو كتاب الاركان (٥٣) ، ترجم هذا الكتاب حنين بن إسحق ، وترجمة مرة أخرى ثابت بن قرة ، ومرة ثالثة يوسف بن الحجاج .

إلا أن العرب لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إضافات جديدة على هندسة إقليدس لم يكن يعرفها القدماء ، وربطوا بين الهندسة والمنطق ربطا محكما فطبقوا النظريات الهندسية على المنطق ، وكتبوا الكثير فى المساحة والحجوم وتحليل المسائل ، واستخراج المسائل الهندسية ، والتحليل والتركيب والتقدير العددى ، وتقسيم الزاوية إلى أقسام ثلاثة متساوية ، ورسم المصطلحات وربطها بمعادلات جبرية ، وكيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها .

وكما نبغ الحسن بن الهيثم فى علم البصريات ، كان أيضا من عباقرة الهندسة فقد سخر الهندسة المستوية والمجسمة لبحوثه فى الضوء .

لقد استغل الهندسة إلى أكبر حد ممكن ، وحل بها الكثير من القضايا المعلقة الخاصة بالضوء . وابتكر بضع عمليات هندسية هى على جانب عظيم من الأهمية والصعوبة والتعقيد .

ومن أبحاثه فى هذا الصدد دراسة تعيين نقطة الإنعكاس ، وقد نجح فى هذا البحث ووصفه وصفا دقيقاً ، وبين كيفية إجرائه وساق الأدلة والبراهين عليه ، واتخذ هذه العمليات الهندسية مقدمات إلى الحلول التى أرادها لتعيين نقطة أو لتعيين نقاط الانعكاس .

لقد حفظ العرب الهندسة ، كما حفظوا بقية العلوم الأخرى واضافوا إليها واهتموا بها عندما أهملها غيرهم .

لقد عرف الأوربيون الهندسة عن طريق العرب وليس اليونان ، وتدراسوها بعد أن ترجموا موضوعاتها إلى اللاتينية ، وظلوا على هذا الحال يتدارسونها كما عرفها العرب لهم حتى أواخر القرن السادس عشر .

وقد ثبت أن الاوربيين لم يعرفوا هندسة إقليدس حتى عام ١٥٨٣ م إلا عن طريق العرب (٥٤) ، وكما ثبت أن الراهب سلفستر الثانى الذى أصبح بابا للكنيسة الذى تعلم فى الأندلس الاسلامية ، ترجم مقالة فى الهندسة من

(٥٣) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٥٤) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب - د . عبدالرحمن مرحبا ص ١٣٢ .

العربية إلى اللاتينية عام ٩٩٩ وكذلك « إدلارد أوف باث » وهو راهب يعد من أول المترجمين إلى اللاتينية ، وقد تعلم هو الآخر اللغة العربية فى صقلية ، وقد ترجم مقالة الهندسة لاقليدس من النص العربى .

الحساب

إن من أكبر مآثر العرب العلمية والنعم التى أنعم الله بها عليهم نبوغهم فى الحساب ومعرفتهم لأرقامه والتى كانت معروفة للعالم كله باسم الأرقام العربية .

ولا يمكن أن نغفل عن حقيقة هامة وهى الإشارة إلى أن الفضل فى تناول هذه الأرقام يرجع الى الخوارزمى ، إذ أورد تلك الأرقام فى مؤلفاته وكتبه الحسابية .

ولقد أوضح الخوارزمى فى مؤلفاته هذه الأرقام وبين فوائدها ومزاياها ، كما انه وضع كتابا فى الحساب يعد الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة العلمية[1] .

ولقد بنقل هذا الكتاب آدلرد أوف باث Adelard of Bath وأسماه الخوارزمى Algaritmy ، ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب دخل إلى أوربا وبقى عمرا طويلا مرجعا للعلماء والتجار والحاسبين والمصدرين الذي يعتمدون عليه فى حساباتهم ، والغريب أن علم الحساب كان يسمى باسم (الغوارتمى) نسبة إلى محمد بن موسى الخوارزمى .

وقد وضعت كتب كثيرة على نهج هذا الكتاب ، لا تخرج مادتها عما صنفه الخوارزمى إلا أنها تختلف عن كتاب الخوارزمى فيما يتعلق بالترتيب والتبويب .

وبعض هذه الكتب هى مطلب للتاجر والراصد وأصحاب المعاملات على اختلاف طبقاتهم وتعدد مطالبهم .

لقد اطلع العرب على حساب الهنود كما سبق القول وأخذوا عنه نظام الترقيم الذى رأوا فيه انه افضل من النظام الشائع بينهم وهو نظام الترقيم على حساب الجمل .

ولقد كان للهنود أشكال عديدة للأرقام هذب بعضها وكونوا من ذلك سلسلة عرفت احداها بالأرقام الهندية ، وهى التى تستعملها هذه البلاد الآن كما استعملتها أكثر البلدان العربية والإسلامية .

وأما الثانية فعرفت باسم الأرقام الغبارية ولقد انتشر استخدام الأرقام الغبارية فى بلاد الأندلس ، وعن طريق الأندلس وصلت هذه الأرقام الى اوربا بواسطة بعض علماء العرب وعن طريق المعاملات التجارية والرحلات .

لقد عرفت هذه الأرقام باسم الأرقام العربية ، وليس المهم أن العرب هم الذين ادخلوا هذه الأرقام سواء اورقام الهندية او الغبارية الى اوربا ولكن المهم هو ايجد طريقة جديدة لاستخدامها وهى طريقة الاحصاء البشرى . والأهم من ذلك كل استخدام الصفر لنفس الغايات التى نستخدمه فيها الآن .

لقد كان الهنود من قبل يستخدمون الفراغ أو ما يسمونه (سونيا) ليدل على معنى الصفر ، ثم انتقلت هذه اللفظة الهندية الى العربية ثم اخذتها اوربا واستخدمتها فى لغاتها وكان من ذلك Cipher أو Chiffre ومن الصفر أتت كلمة Zypyr ثم تقلصت لتصبح Zero .

وللأرقام العربية مزايا كثيرة منها انها تقتصر فحسب على عشرة أشكال بما فيها الصفر . كما أنه من هذه الأشكال العشرة ممكن تركيب أى عدد مهما كان كبيرا . بينما نجد الأرقام الرومانية التى كانت تستخدم عند الأوربيين من قبل ، تحتاج الى اشكال عديدة ، وتشتمل على صور جديدة للدلالة على بعضها .

وأما الأعداد اليونانية والعربية القديمة القائمة على حساب الجمل فإن عددها كان بقدر حروف الهجاء ومن مزايا الأرقام أيضا انها تقوم على النظام العشرى كما سبق القول على اساس القيم الوضعية بحيث يكون الرقم قيمتين قيمة فى نفسه وقيمة بالنسبة الى المنزلة التى وقع فيها فالصفر على يمين الواحد يصبح العدد عشرة والصفرين مائة والثلاثة أصفار ألف وهكذا ، كما يصبح الصفر على يسار العدد واحدا جزءا من عشرة والصفران يكونان جزءا من مائة وهكذا .

والصفر بهذا المعنى يستعمل فى المنازل الخالية من الأرقام ، وبعد ذلك من المخترعات الأساسية ذات الفوائد الجليلة التى توصلت اليها العقول البشرية إذ أنه لم تنحصر مهمة اكتشاف الصفر فى عملية الترقيم وحده ، بل تعدى ذلك إلى تسهيل جميع العمليات الحسابية ، ولولاه لوجدنا صعوبة كبيرة فى الأعمال الحسابية ولأحتاج الإنسان إلى أساليب ملتوية وطرق عويصة لاجراء عملية الضرب والقسمة .

ولو قدر لأحد من علماء اليونان أن يبعث حيا الآن لتعجب كل العجب مما يراه حوله من مستكشفاته ومستخدماته ولكن عجبه سيكون أشد إذا رأى الآن الناس فى أوربا وأمريكا يتقنون عمليتى الضرب والقسمة وتتم على أيديهم فى سهولة ويسر .

لقد استخدم الأوربيون هذه الأرقام العربية بعامة والصفر بخاصة عندما اكتشفوا المميزات المتعددة التى أوجدها العرب فى العمليات الحسابية ، لقد وجد الأوربيون أن هذه الطريقة تجعل هناك منازل للارقام تكسب للرقم الواحد قيما مختلفة إذا أنزل . إذا وضع على اليمين فالعدد يدل على الآحاد والذى يليه على العشرات . فمثلا العدد ٤ إذا وضع على يمينه العدد ٥ تتغير منزلته فتصبح الـ ٤ فى منزلة العشرات أى ٤٠ ، فكأن العدد ٥ الذى وضع على يمين العدد ٤ قدر رفع العدد ٤ إلى المنزلة الثانية بعد أن كان فى المنزلة الأولى إذا وضعنا عددا ثالثا فيصبح ٤٥٥ عند ذلك تتغير قيمة العدد ٤٠ الى ٤٠٠ أى ينتقل من منزلة ثانية إلى منزلة ثالثة .

إن فضل العرب على أوربا فيما يتعلق بالعلوم بعامة والرياضيات بخاصة هو فضل عظيم ، وذلك أن حضارة المسلمين نقلت أوربا بحق من ظلامة القرون الوسطى لتتقدم سريعا نحو تكنولوجيا القرن العشرين .

٢

٧ - علم الحيل (الميكانيكا)

كان من عادة العرب أن يقسموا هذا العلم إلى قسمين

الأول : يبحث فى جر الأثقال بالقوة اليسيرة .

الثانى : فى آلات الحركة وصناعة الأوانى العجيبة وآلات هذه الصناعة .

ونبغ العرب فى هذا ، واستنبطوا الكثير من القوانين الأساسية التى أثرت مما لاشك فيه ، فى تقدم الميكانيكا فى العصر الحديث .

إلا أنه لسوء الحظ لم تصلنا تفاصيل وافية عن محاولاتهم فى هذا السبيل ، ونرجو أن يكتشف المزيد من المخطوطات العربية التى توضح مساهمات العرب فى علم الميكانيكا الحديث .

ومع ذلك ، فإن هناك من العرب الذين كتبوا فى هذا العلم أولاد موسىٰ بن شاكر ، إذ يذكر لهم فى الحيل كتاب عجيب نادر ، يحتوى على مائة تركيب ميكانيكى ، عشرون منها ذات قيمة عملية والأخرى يقصد بها التسلية ، فهناك معلف لا يشرب منه إلا الحيوانات الصغيرة ، وهناك خزانات للحمامات ، ودنّان للخمر يفرغ منها عند الحاجة كميات معيّنة تعقب تفريغها لحظة استراحة ، ثم هناك الآلات لتعيين كثافة السوائل ، وتركيبات من شأنها ان تمتلىء وتفرغ أوتوماتيكا أو تلقائيا . . وهناك آلات تحدث صوتا معينا عند إرتفاع مستوى الماء فى الحقل ، ونافورات للمياه تعطى أشكالا وصوراً معينة .

ويعتبر الخازن أعظم من كتب فى علم الحيل ، فمؤلفه « ميزان الحكمة » من أكثر الكتب بحثا فى الميكانيكا ، بل هو من أفضل الكتب التى ظهرت فى القرون الوسطى لتكتب فى هذا الموضوع ، وقد سبق الخازن علماء اليونان فى بحوثهم فى الطبيعة بعامة ، والميكانيكا بخاصة ، وكان للخازن آلات خاصة لحساب الأوزان النوعية ، ولقياس حرارة السوائل وبحث أيضا فى الجاذبية والضغط الجوى وله شرح واف فى الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع بها ، وكان له إلمام واسع بالموازين والقبان .

ولم يكن الخازن منفردا بهذه البحوث ، بل كان هناك من علماء العرب من بحثوا فيها وألفوا الكتب ، منهم أبو القاسم الكوهى وابن الهيثم وبنو موسى بن شاكر ـ محمد وأحمد وحسن ـ وقد أجادوا هم أيضا فى بحوث مراكز الأثقال ، واستخراج الجسم المحمول ، كما كانت لهم أيضا بحوثا فى المبادىء التى تقوم عليها الروافع [٥٦] ، وكان لهم عدد غير قليل من آلات الرفع مؤسسة على قواعد الميكانيكا التى تمكنهم من جر الأثقال بقوة يسيرة ، وأفضل كتاب فى هذا الموضوع للخوارزمى ويسمى « مفاتيح العلوم » .

وهكذا فإننا لا نعرف أن لليونان سبق فى هذا المضمار ، ماعدا بعض المعلومات الهزيلة التى لانشك فى أنها لم تكن كفيلة بأعداد التقدم الحضارى فى الشرق أو الغرب على الاطلاق .

(٥٦) الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب ص ١٣٢ ومابعدها .

٢

٨ ـ علم الموسيقى .

حذق العرب الموسيقى ، واهتموا بها تبعا. لإهتمامهم ببحوث الصوت ، وألحقوا علم الموسيقى بالعلوم الطبيعية ، لكن بعض الموسيقيين ألحقوا الموسيقى بالعلوم الرياضية أو علم التعاليم كما كانوا يسمونها .

ولقد عرف المصريون القدماء الموسيقى وبرعوا فيها ، كما إهتم الصينيون واليابانيون والهنود بها واخترعوا لها الآلات ذوات الأوتار .

أما الفرس فقد اخترعوا الموسيقى أول الأمر ، ثم ما لبثوا أن أعادوا لها حظها من الرعاية والإهتمام ، كما إهتم اليونان ، ومن بعدهم الرومان بالموسيقى وأبدعوا فيها .

ولما جاء العرب نظروا إلى الموسيقى نظرة إحترام وإجلال واتخذها الأمراء حتى بعض الخلفاء هواية لهم ، واعتنى العرب بالموسيقى عنايتهم بالعلوم الأخرى فدرسوها دراسة مستفيضة ، وأدخلوا على الألحان تعديلات ، واستنبطوا ألحانا جديدة لا عهد للقدماء بها .

وقد صنف العرب فى الموسيقى تصنيفات عديدة منها :

١ ـ ألف الكندى فى الإيقاع الموسيقى ، وكتب « الرسالة الكبرى فى التأليف » ثم كتاب (تدريب الأنغام) وكتاب (المدخل إلى الموسيقى) وكتاب (دراسة الإيقاع) ثم كتاب « رسالة عن أخبار فى صناعة الموسيقى » .

٢ - وضع السرخسي (كتاب الموسيقى الكبير) وكتاب (الموسيقى الصغير) وكتاب مدخل علم الموسيقى .

٣ - ألف الفارابى (كتاب الإيقاعات) وكتاب (الموسيقى) .

٤ - يعتبر كتاب (مروج الذهب) للمسعودى من المصادر الهامة فى هذا الموضوع .

٥ - ألف ابن سينا ثلاثة كتب فى الموسيقى ، اثنين باللغة العربية والثالث باللغة الفارسية ، وأهم هذه الكتب « كتاب الشفاء » الذى ضم فيه قسم للموسيقى ، كما أن هناك قسم للموسيقى فى كتابه (النجاة) ، أما الكتاب الذى ألفه ابن سينا باللغة الفارسية فإسمه « دانش ناما » ويحتوى على ما ذكره فى كتاب (النجاه) عن الموسيقى .

٦ - أورد ابن أبى صيحة أن لابن سينا كتاب آخر للموسيقى يسمى (المدخل إلى صناعة الموسيقى) ، وهو موضوع يختلف عما جاء فى كتبه الأخرى عن الموسيقى .

٧ - أشار ابن سينا أنه كتب بعض الأمور الموسيقية فى كتاب (البرهان) وكذلك لكتاب (اللواحق) .

ومن المعروف عن العرب أنهم كانوا لا يقبلون نظرية فى الموسيقى أو الصوت إلا بعد دراستها وإجراء التجارب عليها ، فلم يأخذوا ممن سبقوهم دون تحقيق ونظر .

لقد جعل العرب الموسيقى علما له أصوله وقواعده الرياضية ، بعد أن كان فنا يعتمد على الصدفة لا قواعد له أو أصول « ثم انهم هم الذين صمموا الآلات الجديدة وأصلحوا الآلات القديمة ، وطبقوا علم طبيعة الصوت حتى فاقوا الأقدمين ، وكان ما كتبه ابن سينا والفارابى عن الموسيقى من المراجع الأساسية حتى القرن السابع عشر ، ومن أشهر الموسيقيين العرب :

١ - زرياب : وهو من الموسيقيين العرب المشهورين فى الأندلس ، وقد أزاد وترا خامسا للعود بعد أن كان أربعة أوتار فقط ، كما أنه اخترع مضراب العود من قوادم النسر .

٣ ـ الرازى : كان فى صغره موسيقيا وضارباً ممتازاً على العود ، حسن الغناء ، إلا أنه انقطع عندما إلتحى وقال :

« كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف » .

٣ ـ الفارابى : من أخصب العقول الموسيقية وصمم آلة الرباب ، كما أنه إخترع الآلة المعروفة باسم القانون وهو الذى ركبها كما هى عليها الآن ، والمعروف أن آلة القانون قد اشتق عنها آلة (البيانو) ، كما اخترع الناى أو المزمار كما اصطنع آلة مؤلفة من عيدان ، تختلف انغامها باختلاف تركيبها وطريقة الضرب عليها .

٤ ـ كما أن الحكم الثانى أدخل : تحسينات جمة على آلة البوق .

هذا يسير من كثير عن مؤلفات العرب الموسيقية التى كان لها تأثير طويل المدى فى رقى الموسيقى وتقدمها .

الكندى رائد علم الموسيقى

يعتبر الكندى ١٨٥ ـ ٢٥٢ هـ أول من وضع قواعد علم الموسيقى على التحقيق من المفكرين والعلماء المسلمين ، وبذلك مهد الطريق أمام الفارابى ثم من بعده ابن سينا ، اللذان يعتبران بحق هما اللذان طورا علم الموسيقى وهذباه من شوائبه ، حتى أصبح عند الشيخ الرئيس ابن سينا علماً بمعنى الكلمة (٥٧) .

ونحن لا نزعم أن الكندى ابتدع علم الموسيقى ابتداعاً ، فإن لهذا العلم تاريخ طويل منذ قدماء المصريين واليونانيين والفرس ، لكن العرب نقلوا كتب الموسيقى ، وهذبوها ، ووضعوها بما يتلاءم مع الذوق العربى ، بالإضافة إلى أنهم طبقوا القواعد الموسيقية بما يتناسب مع الموسيقى العربية ، ويتفق مع تقاليدهم وأعرافهم والآلات التى يستخدمونها .

ولاشك أن الموسيقى فطرة فى النفس البشرية ، إذ لا تخلو أمة من الأمم أخذ طرف منها ، فالبدوى شاعر بطبعه بغير علم ولا صناعة ، يتغنى بالقريض

---

(٥٧) د . أحمد فؤاد الأهوانى ـ الكندى فيلسوف العرب « أعلام العرب » العدد ٢٦ ص ١٦١ ومابعدها

وهو يرعى إبله ، ثم أن أهل الحضر استقوا قليلا بالموسيقى عن أهل البادية ، واستخدموا الآلات الموسيقية مثل الطنبور والمزمار والمعزف والعود ، كما استخدموا أيضاً الطبول لضبط الوزن وكذلك الدفوف والصنوج .

وقد ارتبطت الموسيقى العربية بالشعر ، وكانت تستخدم فى المناسبات والأعياد والأعراس والحروب ، ثم انفصلت الموسيقى شيئاً فشيئاً عن الغناء ، وأصبح لها أصولا وكشف عن قوانينها .

ويعد يونس الكاتب الذى كان موسيقياً ومغنياً وشاعراً ، عاش فى ظل الدولة الأموية . أول من دون الغناء وله فى ذلك كتابان « كتاب النغم » « وكتاب القياف » . وقد ارتقى بالموسيقى فى ظل الدولة العباسية . وذلك نتيجة تشجيع بعض الخلفاء ، مثل المهدى الذى كان مغرماً بالموسيقى ومن أحسن الناس صوتاً ، وامتلأ بلاطه بالموسيقيين .

ثم ظهر فى خلافة الرشيد ، ابراهيم الموصلى ، وابن جامع ، وزلزل ، وأما فى بلاط المأمون ، فقد تصدر الغناء فيه اسحاق الموصلى ، ومخارق ، وعلوية ، ومحمد بن الحارث .

وقد وضع إسحاق الموصلى فى خلافة الرشيد ، تآليف موسيقية بلغت تسعة عشر كتاباً ، وأسس مدرسة فى بغداد لتعليم الموسيقى والغناء فى خلافة المعتصم .

وفى هذا الجو الفنى ظهر أبو يوسف يعقوب الكندى (٥٨) ، ليشد من أزر الروح العربية ويضع للمغنيين والموسيقيين الاصول الموسيقية النظرية التى تبنى عليها أنواع الغناة والألحان .

لذلك يعتبر بحق صاحب أول مدرسة للموسيقى فى الاسلام ، كما كان أسحاق الموصلى صاحب أول مدرسة فى الغناء ، ثم تطورت كما سبق القول مدرسة الكندى الموسيقية على يد الفارابى الذى ألف كتاب « الموسيقى الكبير ووضع فيه أسس التعاليم الصوتية ، حتى قيل أنه سمى بالمعلم الثانى لأنه وضع تلك التعاليم الصوتية ، كما أن أرسطو سمى بالمعلم الأول لأنه أول من وضع المنطق .

---

(٥٨) د . أحمد فؤاد الاهوانى : الكندى فيلسوف ص ١٦٣ .

وبلغت المدرسة الموسيقية الاسلامية أوجها على يد الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذى أصدر كتاباً اسماه « جوامع علم الموسيقى » وفيه فصل علم الموسيقى فصلا تاماً بين كونها علماً وكونها فناً وصنعة .

إلا أنه كانت كتب الكندى هى النبراس الذى استضاء به غيره من بعده فى هذا العلم ، فلقد كانت مصنفات الكندى التى طبعت فى علم الموسيقى هى المصنفات الآتية :

١ - فى خبر صناعة التأليف (٥٩) .
٢ - كتاب المصوتات الوترية .
٣ - فى أجزاء خبرية فى الموسيقى (٦٠) .
٤ - فى تأليف النغم وصنعة العود .
٥ - الرسالة الكبرى فى التأليف (٦١) .

ولحسن الحظ فإنه أمكن العثور على هذه المخطوطات ونشرها للكشف عن مدى مساهمة فيلسوف العرب الكندى فى التقدم فى علم الموسيقى .

ولقد أراد الكندى فى تآليفه الموسيقية فائدة المتعلمين . ولذلك أطال فى شرح الآلات الموسيقية التى يعزف عليها الموسيقار أو المغنى ، وبين تركيبها وهيئتها ووضع الأوتار ، وكيفية استخدامها وكيفية انتقال الأصابع عليها .

ولو أن الكندى بذل أقصى جهده فى الشرح النظرى ، إلا أنه اعترف بأن الممارسة والتجربة أنفع للمتعلمين ، وفى ذلك يقول فى الرسالة الكبرى فى التأليف :

إن فنون هذا العلم - الموسيقى - موجودة عند أهل هذه الصناعة وأخذها عنهم . . أسرع وأقرب إلى الفهم منها من الكتاب - أى من كتابه » .

ومن الطريف أن الكندى استخدم الموسيقى للعلاج النفسى ، كما أورد ذلك ابن النديم عندما ذكر تآليف الكندى الموسيقية ، فهو يذكر هذه القصة الطريفة عنة :

(٥٩ ، ٦٠) نشرها الدكتور محمود أحمد الحفنى : بمشاركة الدكتور روبرت لخمان ١٩٣١ م ثم فى سلسلة تراثنا الموسيقى القاهرة ١٩٥٩ م .

(٦١) نشرها الاستاذ زكريا يوسف - بعنوان مؤلفات الكندى الموسيقية ١٩٦٢ م - بغداد .

أن رجلا من كبار التجار كان يقطن جوار الكندى ، وكان له إبن هو بمثابة ساعده ، الأيمن فى تجارته ، وكان بين هذا التاجر والكندى عداوة وبغضاء ، إذ كان دائم الطعن فيه والازدراء له .

وفجأة سقط ابن هذا التاجر الثرى صريع المرض ، إذ داهمته سكتة قلبية أذهلت والده ، وبقى لايدرى ماذا يفعل ، ودخل إلى قلبه الجزع على ابنه فلم يدع طبيباً إلا وذهب إليه ، ولم يدع مجرباً إلا وإستشاره فى أمر علاجه ، إلا أنه لم يستطع أحد من الأطباء علاجه ، ولذلك لكبر العلة واليأس من شفائه .

ولقد نصحه بعض الأصدقاء فقالوا له : أنت تسكن فى جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج علة إبنك ، فلو قصدته لوجدت عنده العلاج .

فتوسط عند الكندى بعض الأخوان ، فذهب الكندى إلى منزل التاجر ، فلما رأى ابنه المريض وجس نبضه ، أمر بأن يحضر إليه بعض تلامذته فى علم الموسيقى ممن أتقنوا الضرب على العود ، وعرفوا الطرائق المحزنة والمفرحة والمقوية للقلوب والنفوس .

حضر أربعة منهم ، فأمرهم الكندى على الفور أن يعزفوا بصفة مستمرة على العود عند رأس الشاب المريض ، مستخدمين طريقة معينة أطلعهم عليها فمازالوا يعزفون على تلك الطريقة وهو ممسك بالمريض يجس نبضه ، فلاحظ المجتمعون أن الشاب المريض يقوى نبضه ويمتد نفسه ، ويرجع إليه شيئاً فشيئاً ، إلى أن تحرك تماماً ثم جلس وتكلم . . .

ومايزال الموسيقين يعزفون على العود بتلك الطريقة التى أطلعهم عليها أستاذهم لايكلون ولايفترون .

عند ذلك طلب الكندى من التاجر أن يسأل ابنه على علم ما يحتاج إليه من أمر تجارته وما عليه وماله ، فأجابة الابن وأخذ الأب يدون ذلك . فلما انتهى إلى جميع ما أراد الأب من إبنه ، غفل الضاربون عن الطريقة التى كانوا يستخدمونها فى العزف ، وكلت أيديهم وفتروا .

فإذا بالشاب المريض يرجع إلى حالته الأولى وغشى عليه مرة أخرى ، فطلب الأب من الكندى مرة أخرى أن يعاودوا الضرب ، فقال له الكندى : هيهات . . هيهات . إنما كانت لحظات بقيت من حياته ، ولا يمكن إستعادتها

مرة أخرى ، ولا سبيل لى ولا لأحد من البشر إلى الزيادة فى مد عمر من إستوفى أجله ، وما قسمه الله له .

هذه قصة تدل على براعة الكندى فى الطب والموسيقى مقامه وعلى قدرته الفائقة فى ابتكار العلاج المناسب لحالة المريض ، وهذا ما جعل الكندى ينتزع قصب السبق من العلماء النصارى .

لذلك فإن الكندى ليس فيلسوفاً ورياضياً وكيميائياً فحسب ، بل هو الطبيب والموسيقى الفذ الذى يعتبر بحق رائداً للموسيقى بعامة ، والعلاج بالموسيقى بخاصة ، ولقد ثبت بعد منتصف القرن العشرين أن هناك علاقة بين الموسيقى والطب ، وأنه عن طريق الموسيقى يمكن شفاء بعض الأمراض النفسية ، باستخدام العزف بطريقة خاصة على بعض الآلات مما يدل على أن هذه الطريقة التى ابتكرها الكندى قبل ١٢ قرن من الزمان قد أخذ بها العلم الحديث .

الباب الرابع

المسلمون علماء وحكماء

١

١ - انتقال العلم الى المسلمين .

يحث كثير من المؤرخين حركة انتقال التراث العلمى قبل الإسلام وبخاصة التراث اليونانى - إلى العالم الإسلامى ، ولقد حظيت هذه الدراسات بعناية كبيرة من الباحثين وقد حاولوا توضيح هذا الإنتقال وكيف تم ، وماهى الأساليب التى تم بها ومن هم الرجال الذين ساعدوا على هذا الإنتقال .

ولا يهمنا فى بحثنا هذا كيف تم الإنتقال إلا على سبيل عرض بعض النماذج لمنهج المسلمين وأسلوبهم فى استقبال العلوم المختلفة من الشعوب غير الإسلامية .

لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن علوم المسلمين لم تظهر إلا بعد أن انتقل مجلس التعليم العلمى والطبى من الأسكندرية فى عهد الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز ، انتقل هذاالمجلسإلى أنطاكية ثم إلى حران ومنها إلى مرو ، وقد اتخذ مرحلة طويلة انتهت به إلى بغداد .

ولقد بدأت المجامع العلمية فى بغداد [١] تقوم بحركة الترجمة من ناحية والبحث العلمى من ناحية أخرى ، ثم استدعى خلفاء بنى العباس هؤلاء التراجمة إلى قصورهم ، ثم بنى المأمون بعد ذلك « بيت الحكمة » وعند ذلك

---

(١) دكتور سامى النشار منهج البحث عند مفكرى الاسلام ص ٥٤ ومابعدها (دار المعارف) .

بدأ البحث التجريبي فى جميع العلوم .

ويبدو أن تاريخ العلم عند المسلمين قد بدأ بهجرة المكتبة اليونانية التى كانت بالاسكندرية إلى بغداد عاصمة الدولة الإسلامية الفتية ، وأعقب ذلك هجرة من ناحية أخرى للعلماء من بلاد الأعاجم (الفرس القديمة) وهذه الهجرة كانت إلى العالم العربى ، كما أعقب ذلك هجرة علم الهند والسند أيضا حاملا معه بعض علوم الهنود فى الفلك والطب والرياضيات .

ويلاحظ أن البيرونى مثلا هضم ثقافة الهند وأخرج كتابه الشهير « تحقيق ما للهند من مقولة » يتكلم فيه عن علوم الهند ، وهو العالم المتخصص صاحب المنهج المقارن ، والذى قام بمقارنة العلوم الهندسية بالعلوم اليونانية وهذا يدل على معرفته التامة بالطب والفلك والرياضيات فى الشرق والغرب ، ولم يكتف البيرونى بذلك بل قارن ما جمعه من علوم الهند واليونان بما عند المسلمين من علوم .

وبذلك توصل البيرونى إلى نتائج خطيرة جداً أهمها يمكن أن نستخلص منها النقاط الآتية (٢) :

١ ـ أن الهنود كان لديهم علم جزئى جمعوا فيه أمور شتى ، وعن طريق الممارسات والتجارب وصلوا إلى درجة كبيرة من التقدم ، لكن علومهم لم تكن ترتبط بعضها ببعض برباط علمى أو منهجى ، إنما كانت عبارة عن أبحاث متناثرة فى الطب والرياضيات والفلك والطبيعيات .

كانت أبحاث الهنود وعلومهم الجزئية ينقصها الرباط العلمى ، كانت خالية تماما من المنهج الرائد وهذه النقطة تمثل فشل ونجاح الباحثين فى كل العصور إذ أنه بدون منهج فلا تقدم فى الأبحاث ولا نتائج محددة يمكن أن تكون بدايات لتقدم أبحاث أخرى ، إذ أن العلم تراكمى فكل باحث يمكن أن يجعل من نتائج معينة وصل إليها غيره مقدمات لأبحاث جديدة ليصل إلى نتائج محددة بعدها يمكن أن يعتمد غيره عليها كفروض للوصول إلى نتائج جديدة ، فإذا لم يكن ذلك متوافراً لدى الباحث فعليه أن يبدأ من جديد لإفتراض فروض والعمل على امتحانها والكشف عن صدقها من عدمه .

---

(٢) منهج البحث عند مفكرى المسلمين ص ٥٥ ومابعدها .

لذلك لم يكن للهنود منهج واضح أو روابط علمية يمكن الإستفادة منها . . . ولقد كان المسلمون متعطشون لهذه المعارف ، ولم يكن لدى الهنود إلا تلك العلوم الجزئية غير المترابطة التى يمتزج فيها السحر والشعوذة بالعلم ، فكان على المسلمين تنقيتها وغربلتها ، ورفض الخسيس منها . والتقاط الثمين لمقارنته مع علوم غيرهم من الشعوب ثم وضع ذلك كله فى منهج علمى رائد رائع .

٢ ـ لقد كان لليونان على العكس من علوم الهنود تماما المنهج ، كانت لديهم نظرية العلم « نظرية البرهان » لكن كان ينقصهم التجارب العلمية التى كانت خاصية واضحة فى العلم الهندى الجزئى ، حقاً لم يكن للهنود نظرية فى العلم أو نظرية فى البرهان والتى تشتمل على المقدمات اليقينية التى تميز بها العلم اليونانى ، والتى جعلت من اليونان دورا فى الحضارة القديمة .

لقد ربط البيرونى للعالم المسلم العظيم كما ربط غيره من العلماء المسلمين الأفذاذ المنهج بالعلوم ؛ أو العلوم الجزئية بالعلوم الكلية ، وهذا الرباط الوثيق هو الذى مكن لهم الوصول إلى نتائج باهرة فى جميع حقول العلم والمعارف الإنسانية .

وهذه النتائج المذهلة والخطيرة التى توصل إليها العلماء المسلمون ، أثرت فى بناء الحضارة الإسلامية الزاهرة التى إقتطف أزاهيرها وثمراتها بعد ذلك بقرون أصحاب الحضارة الغربية .

لقد كان للمنهج الإستقرائى الرائع الذى ابتدعه المسلمون الأثر العظيم فى تطور العلوم [٣] هذا التطور الهائل والذى ينعم به العالم الآن .

لقد كان هذا المنهج الذى استكشفه العرب ينظر اليه من قبل غيرهم من الهنود والأوروبيين فى عصورهم المظلمة ، كان ينظر اليه على أنه نوع من السحر كانوا يقفون مشدودين متعجبين مسحورين بهذه النظرية البيرونية .

ولم يكن العلماء العرب المسلمون يشعرون بمفاخرهم العلمية وعلو كعبهم فى العلوم المختلفة ؛ وفضلهم العظيم فى تاريخ العلوم عامة ، واستخدامهم للطرائق العملية المستحدثة . وتطبيقاتهم فى العلوم العملية والجزئية فضلا عن العلوم الكلية والمنهج .

---

(٣) منهج البحث عند مفكرى الاسلام . دكتور النشار ص ٣٥٥ .

فالعلماء المسلمون جمعوا بين شتات العلوم التى قبلهم ووصفوا ذلك فى منهج مستقيم ، فهم لم يشغلوا أنفسهم بالعلم الجزئى فحسب كما فعل الهنود ، كما أنهم لم يشغلوا أنفسهم بعلوم النظر كما فعل اليونان الذين ركزوا على المنطق ، وإنما توصلوا إلى المنهج الاستقرائى كمنهج تجريبى طبقوه على علوم اليونان والهنود على السواء .

كانت علوم اليونان والهنود إذن بمثابة مواد صماء طبقوا عليها المنهج الاستقرائى التجريبى فبعثوا فيها الحياة وجعلوها علوما نافعة مثمرة ـ وكلما ازدادت أبحاثهم وتجاربهم كلما ظهرت الثمرات اليانعة التى استفاد منها القريب والبعيد على مر العصور .

واذا كانت الفكرة الشائعة ـ افكا وبهتانا ـ أن العرب ليس لهم فضل على الفلسفة ، وذهب مؤرخو الغرب إلى انكار فضلهم على العلم النظرى بعامة والفلسفة بخاصة ، فانهم لم يستطيعوا حتى الآن أن ينكروا فضل العرب العلمى على أوربا والحضارة الأوربية المعاصرة والحديثة .

ومع ذلك قرنوا فضل العرب فى العلوم بالعمل اليونانى ، وهذا أيضا نوع من التحيز والتضليل . إذ أنه كما أوضحنا سلفا ما فعله البيرونى ، ونؤكد الآن أن أفكار الحسن بن الهيثم العالم المسلم الطبيعى الكميائى الفلكى الرياضى ، عاشت فى أوربا إلى زمان ليس ببعيد عنا ، كما أننا نعلم أن أبحاث الطوسى فى الرياضيات والهندسة بقيت زمنا طويلا يتناولها علماء أوربا بالبحث والتقصى ، كما أننا نعلم أن كتاب القانون لابن سينا بقى المرجع (٤) الوحيد الأساسى لكليات الطب فى أوربا حتى القرن السابع عشر .

وما يزال للتراث الاسلامى العلمى مكانته بين الخاص والعام ، ويلقى عناية واهتمام من الباحثين الأوربيين والمهتمين بالعلم العربى .

لقد قابل المسلمون العلوم التى هضموها من غيرهم بروح جديدة بعيدة عن التعصب والتحيز بهدى من دينهم القوى ، الأمر الذى ساعدهم على اكتشاف الجديد وتطوير تلك العلوم . ولولا هذا التطور المذهل الذى أحدثوه فى العقول

---

(٤) ماكس ماير هوف (من الاسكندرية الى بغداد) ص ٣٥ ـ ٤٠ التراث اليونانى ترجمة د . عبدالحميد بدوى .

وطرائق التفكير ما اعترف بهم الأوربيون أدنى اعتراف .

لقد كان بيدهم المنهج والمواد الخام والامكانيات للتطبيق فنجحوا نجاحا عظيما لكننا لا ننسى عنصر الاخلاص الذى يتميز به المؤمن وهذا هو السبب فى أن المؤمن يطفو طفرات فى طريق العلم وليس درجة درجة .

ونود هنا فى هذه العجالة أن نرد على الجاحدين والمتعصبين والمفترين على الاسلام وجنوده من العلماء المخلصين ، نود أن نرد على بعض المستشرقين والمستغربين الذين يقولون أن العرب والمسلمين لم يفعلوا شيئا فى عصورهم الزاهرة سوى أنهم نقلوا التراث اليونانى إلى العصر الحديث ، ولم يزيدوا فيه شيئا . . نود أن نقول لهم أن الفكر البشرى يجب أن ينظر إليه ككائن ينمو ويتطور باستمرار . وكل جزء من هذا الفكر الانسانى له وظيفة ويقوم بدور يمهد لقيام أدوار أخرى معينة . . فاليونان كان لهم دور فى الفلسفة والمناهج ، كما كان للهنود دور فى العلوم الجزئية ، وكان للمسلمين دورا عظيما مهد الأذهان والعقول للادوار التى قام بها الغربيون فيما بعد .

إن لكل حضارة من الحضارات دور قامت به ، وما كانت لحضارة أن تسبق حضارة أخرى فى دورها ، فالحضارة التالية تأخذ من الحضارة السابقة وتزيد عليها ، وكأن هناك من يمسك بالكرة فيناولها لغيره ليصيب بها الهدف ، فلولا هذا ما كان ذلك .

وهكذا فى مجال العلم أيضا فلولا البيرونى والخوارزمى وابن الهيثم والغزالى وابن حيان وابن سينا وبن يونس وغيرهم من الأفذاذ من العلماء المسملين ما كان جاليلو وكوبرنيكوس ونيوتن وديكارت .

ولو لم يبدأ ابن الهيثم فى أبحاثه وتجاربه العلمية لكان على نيوتن أن يبدأ من جديد ، ومن حيث بدأ ابن الهيثم . . ولو لم يظهر جابر بن حيان لاضطر جاليليو أن يبدأ من حيث بدأ جابر لا من حيث انتهى .

فلولا عصور الحضارة الاسلامية وابحاث العرب العلمية التى بدأت فى القرن الثامن الهجرى . . لبدأت الحضارة الأوربية فى القرن العشرين أو ربما لم تكن على الاطلاق . .

لقد اعتمد الأوربيون فى القرن الرابع عشر الميلادى وهو القرن الذى بدأوا

يكملوا فيه مسيرة المسلمين بعد أن التقوا بحضارتهم والتهموا تراثهم ، وهضموا علومهم . . . ليصلوا إلى حضارة القرن العشرين .

إن الحضارة الاسلامية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو غموض أو خروج عن الواقع المألوف ، ان حضارة المسلمين تتطابق مع منطق التاريخ ، فكانت لابد أن تقوم وقد أعد لها المسلمون كل عدة وعتاد (٥) ولم يكن ينقصهم شيء .

كان لابد لقيامها حين قامت وقام أصحابها بدورهم الزائد خير قيام فى تقدم الفكر وتطور العلوم ، وصبغوا كل ذلك بروحهم الجادة المخلصة الأمينة الجياشة بكل فهم وحماس .

نقل العرب كل العلوم بروح جديدة وحياة جديدة ولم يكن نقلهم آليا أو ميكانيكيا بل شرحوا العلوم والفنون وهذبوها ونقحوها ونقلوها من قوالبها الجامدة إلى التطبيق العملى ، ثم أضافوا اضافات جديدة أساسية وهامة تدل على أنهم رواد الحضارة الحديثة بحق وصدق .

(٥) تراث العرب العلمى - قدرى طوقان ص ١٠٩ .

١

٢ ـ انتقال التراث الاسلامى إلى الغرب .

لم يكن اللقاء بين المسلمين والأمم اللاتينية فى أول أمره ، فى القرون الوسطى لقاء صداقة وتعاون ، انما بدأ هذا اللقاء بالمعارك والحروب إلا أن ذلك لم يستمر طويلا ، إذ مالبث أن حدث الاختلاط وهو اختلاط حضارة أعضم وثقافة وفكر أنضج إلى حضارة دانية وفكر جامد مهلهل (٦) ، ونتج عن هذا الاتصال الذى سلكه الفكر الاسلامى فى طريقه إلى الغرب أن غذى عقول اللاتينى العالم وأثرى فكرهم فاندمجوا فيه وتأثروا به وساهموا فى خيره وخبراته .

كانت عملية التقاء المسلمين بالأمم الأخرى هى عملية اخصاب فكرى إذ بلغ العرب غاية نضجهم ووصلوا إلى منتهى الحكمة والرشاد وبالنسبة لعصرهم أو لعصورهم بل سبقوا زمانهم بقرون عديدة . كانت عملية الإخصاب الفكرى فى الفكر الأوربى للتقوقع المندحر هو الامل المنشود لهم ، فتلمسوا الطريق عند المسلمين لينشلوهم من غياباتهم ليبدأوا من جديد وهم ممسكين بأطواق النجاة التى قدمها لهم المسلمون بلا تعالى أو ازدراء ، ولم ينقطع من ذلك العمل ثمرة هذا الاخصاب حتى عصرنا هذا بل أغدق عليهم الخبرات فى مناحى الحياة المختلفة ؛ ومازال يغدق عليهم علماً وفكراً وثقافة وتجدداً على مر السنين .

---

(٦) د . محمد عبدالرحمن مرحبا : الموجز فى تاريخ العلوم ٢٣٧ ومابعدها .

ولا مراء إذا قلنا أن حضارتنا اليوم بكل مستكشفاتها واختراعاتها وأبعادها وآثارها الخارقة التى بلغت حد الإعجاز ، إنما هى كانت من نتائج هذا الاخصاب الإسلامى ، لقد تم هذا الاخصاب فى الأندلس الإسلامية وفى صقلية العربية وفى جنوب أوربا وفى غيرها من البلدان والمدن التى عمرها العرب وفتحوها فتحا مبيناً ، ففى صقلية التى افتتحها العرب ٢١٢ هـ قد وهبوها ثقافتهم المتنوعة وعقلياتهم المتفتحة وغمروها ، بالكتب العربية المتنوعة ، وغذوها بالثقافة الاسلامية والربانية الشرقية .

فلم تمض فترة إلا وأثمرت الثمار اليانعة وانتجت من كل لون بهيج ، انتاجا متنوعا فى الفقه والحديث والطبيعة والطب والكيمياء وفى علم الفلك ، وأنشأوا هناك مدرسة للطب لم يعرف مثلها من قبل فى العالم كله ثم أنه على غرار هذه المدرسة الطبية أنشأت ايطاليا مدارسها الطبية وحتى بعد خروج العرب من صقلية ٤٨٤ هـ على أيدى النورمان فانهم صاروا على نهج العرب فى التسامح وتنشيط الحركة الثقافية فى الجزيرة وتركوا المسلمين فى عاداتهم وتقاليدهم ودينهم مما جعل الجو العلمى الاسلامى يتقدم بخطوات رائدة زمنا طويلا . وقد استعان النورمان بالعلماء والعظماء من المسلمين واستخدموهم فى دواوينهم وحروبهم بل لقد أبقوا على اللغة العربية لغة رسمية طوال حكم النورمان لجزيرة صقلية .

ولقد تخلق النورمان بأخلاق المسلمين وتعلموا عنهم اللغة العربية حتى أن البابوات اتهموا النورمان بأنهم مسلمين (٧) .

ومازالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة الكاذبة التى لا أساس لها من الصحة ، إلا أنه مع ذلك لم ينقطع سيل الكتب والعلماء فى غزو صقلية بل استمرت فى استيراد الكتب وتوجيه الدعوة للعلماء كما كان يحدث فى عصر الفتح الاسلامى ، بل وأنشأوا أكاديمية علمية كان يعمل فيها المسلمون مع غيرهم من النصارى واليهود جنبا إلى جنب .

وتم فى عصر النورمان ترجمة العلوم العربية الى اللاتينية واستحضرت كتب الجغرافيا العربية مثل كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب الجغرافية لبطليموس المنقول إلى العربية ولو لم يكن العرب قد ترجموا كتب بطليموس

(٧) محمد عبدالرحمن مرحبا : الموجز فى تاريخ العلوم ص ١٣٧ - ٢٣٩ .

الفيلسوف « رينان » ثم حذا خلفاؤه حذوه من تشجيع لحركة الترجمة من العربية ، حتى استمرت أكثر من قرن من الزمان وكان طريقة الترجمة تتم على النحو الآتى :

هى أن يتولى يهودى مستعرب ترجمة النص العربى إلى اللغة الاسبانية الدارجة ثم يتولى أحد المترجمين الأسبان ترجمة هذا النص إلى اللغة اللاتينية ، وقد انصب الاهتمام على الكتب العربية المنقولة عن اليونان فكانت العلوم العربية هى المصدر الوحيد الذى يؤخذ عنه سواء كان الأصل منقولا عن اليونانية أو من التراث العربى الأصيل .

وعلى سبيل المثال كان يقوم بعملية الترجمة الأسقف دومينيكوس ١١٨٩ م من كنيسة طليطلة ، كما شاركه فى عملية الترجمة يوحنا داود المعروف بالأسبانى أو الاشبيلى وقد نقل بعض كتب ابن سينا فى النفس والطبيعة وما وراء الطبيعة كما نقل بعض مؤلفات الغزالى مثل مقاصد الفلاسفة .

وقد نقل مترجم آخر يسمى يوحنا الأسبانى كتب معشر الفلكى والفرغانى وبعض كتب الخوارزمى والذى انتقل بفضلها النظام العشرى فى الحساب إلى أوربا .

وبفضل هذه الترجمات أيضا عرفت أوربا الصفر الذى سهل المعادلات الحسابية والكسور العشرية واستغنى الأوربيون بذلك عن الحساب القديم الذى كان يعتمد على القيم العددية للحروف الأبجدية .

ومن أقدم المترجمين المستشرق جيرادو الكريمونى ١١٨٧ م والذى استعمله فردريك الأول وأوفده إلى اسبانيا ليحضر له كتاب الماجسطى ولم يكن يدرك أنه قد ترجم من قبل كما سبق الذكر .

ودهش جيرادو عندما وجد طليطلة حافلة بكنوز الفكر الإسلامى فبقى هناك أكثر من عشرين عاما ، فلم يقتصر على نقل الماجسطى بل نقل فلسفة الكندى وكتب الطب العربية النفيسة ، ثم عاد بعد ذلك إلى موطنه بها جميعا . .

ولقد استمرت حركة الترجمة من العربية حتى القرن الثالث عشر وأشهر

ما عرفت أوربا عنه شيئا .

كما استقدموا الشريف الادريسى وأكرموه ،وطلب اليه أن يبقى فى صقلية لينقل أخبار البلاد بالمشاهدة لا عن طريق الكتب .

وقد اثبت الشريف الأدريسى عن طريق بعض المصورين فى مصنفه ما شاهده وما عانيه فى أقاليم الشرق والغرب ، وذكر ذلك فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وهو كتاب فى الجغرافية يعد أفضل ما كتب فيها .

وقد وضع الأدريسى لروجر النورماندى كرة أرضية من الفضة كانت أجمل ما أنتجته العقلية العربية وقد رسم فيها العالم بره وبحره وجباله وسهوله وانهاره وبحيراته ومدنه وممالكه .

وقد ازدهرت حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فى عهد غيليا الأول والثانى ، وكان من أشهر المترجمين يوجين البلرى الذى ترجم كتابى الماجسطى والمناظر كما ترجم كتاب « كليلة ودمنة » .

هذا هو بعض ما تم نقله من تراث إلى صقلية ثم إلى أوربا . ولقد اهتم الأسبان بعلوم العرب فلم تكن العلاقات بينهما حروب ومعارك فحسب ، بل كانوا جيرانا وجدوا فى العقلية العربية نموذجا يقتدى به فنقلوا عنهم كثيرا من النظم السياسية والادارية والثقافية والدينية والتجارية ، وعرفوا قدرها وساروا على منوالها ، ومازال تأثيرها قويا حتى الآن ، وعندما استقل الأسبان واستعادوا طليطلة ٤٧٨ هـ ، نقل ملوكهم كنوز الثقافة الاسلامية إلى لغاتهم وظهرت فى طليطلة ما يسمى بمدرسة المترجمين التى نقلت العلوم الأغريقية بعد أن نقاها العرب من شوائبها ، وأضافوا اليها شروحهم وتعليقاتهم ، كما نقلوا هذه العلوم إلى المدارس الأوربية إذا كانت طليطلة فى هذا العصر منارة للعلم تمتاز بمكتباتها العظيمة التى نقلت اليها آلاف المجلدات العربية من الشرق بالإضافة إلى ما إستولت عليه من مكتبة الحكم الثانى .

وكان المترجمون على طوائف ثلاث :

المسلمون ـ النصارى ـ واليهود .

وقد شجع أسقف طليطلة ريموندو ١١٥٢ م الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية ، الأمر الذى ترك أثراً عميقاً وبعيداً فى مصير أوربا كما يقول

مترجم فى هذا القرن هو سكونس الاسكتلندى (٨) الذى ترجم كتب ابن سينا وارسطو وابن رشد ، وذلك بمساعدة أندريا اليهودى ـ كما كان هناك بعض المترجين الكبار مثل اسقف طليطلة ومثل ماركوس الذى ترجم بعض كتب جالينيوس ، كما ترجم القرآن الكريم وكتب علم التوحيد . وهناك أيضا هيرمان الألمانى الذى ترجم بعض شروح ابن رشد .

ولم تكن هذه الترجمات واحدة من حيث القوة والمتانة ، إذ كان بعضها لا يخلوا من الركاكة والغموض .

لكنه قد بلغ الإهتمام بنقل التراث العربى إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر وما بعده شأواً كبيراً ، حتى أنه لم يترجم الاسبان أمهات الكتب العربية فحسب بل ترجموا أيضا بعض الكتب فى الحكم والألغاز وآراء فلاسفة الإسلام ، كذلك كتب الألعاب كالشطرنج مثلا واستعملت الموسيقى الأندلسية فى الأغانى الأسبانية ثم نقل الكثير من القصص العربية مثل : « السندباد » و« ألف ليلة وليلة » فضلا عن كتب الفلك وانتدب أساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم فى الدراسات العليا فى مرسيه .

ومن أسباب اهتمام الأسبان بنقل التراث العربى أسباب خفية ، منها الدفاع عن النصرانية وذلك بالتعرف على آراء خصومهم من المسلمين تمهيداً لمعارضتها واظهار تفوق العقيدة المسيحية عليها (٩) .

كما كانت هناك بواعث أخرى مثل الرغبة فى تحصيل العلم نتيجة للفقر المدقع فى ثقافة الأسبان ، والتماس أن يرتفع المستوى العقلى والعلمى ، إذ المغلوب مولع بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون ، أو كما يقول منطق التقليد الحضارى .

لقد نشطت حركة الترجمة والنقل فى أسبانيا بحكم اتصال الأسبان بالعرب وتمرسهم فى ثقافتهم وأفكارهم ثم بدأت هذه الأفكار تتسرب رويداً رويداً الى أوروباً ابتداء من القرن الحادى عشر .

وتسابق الأوربيون فى السفر إلى طليطلة وغيرها من مراكز الثقافة الاسلامية

---

(٨) الموجز فى تاريخ العلوم ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٩) محمد عبدالرحمن مرحبا : الموجز فى تاريخ العلوم ص ٢٠٣ .

فى الأندلس لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية والاسلامية . فنجد أدلر الثانى يترجم زيجة الخوارزمى المعروفة عند العرب باسم « السندهند » ، ولم يكن يظهر فى هذا العصر أى كتاب فى أوربا إلا وكانت صفحاته قد ارتوت بينابيع الثقافة العربية والإسلامية ، أو على الأقل استوحت منها ، وظهرت بصمات الفكر الإسلامى العربى واضحة جلية ، الأمر الذى أثر تأثيراً بالغاً فى الإصلاح الدينى فى أوربا ، وعجل بقيام حركة النهضة فى أوربا وازدهار العلم فيها .

ونهاية القول فإن أوربا لم تستيقظ من نعاسها الطويل وسياستها العقيمة ، إلا بأذان الصلاة والمواقيت وانتشار العلم الإسلامى العربى بين العام والخاص ، وعن طريق هذا الإشعاع الفكرى والروحى استضاءت اسبانيا أولا ثم أوربا ثانيا بمشاعل الحضارة والتقدم حتى أنه يمكن القول أنه لو لم يفتح العرب الأندلس لبقيت أوربا حتى عصرنا الحديث فى سبات عميق .

٣ ـ انتقال الألفاظ العربية إلى اللغات الأوروبية .

المعروف أن أى حضارتين مختلفتين اختلافا كبيرا فإن الحضارة الأدنى تقتبس من الحضارة الأعلى بعض صورها ومظاهرها وعلى ذلك ونتيجة لإحتكاك الحضارتين بصورة من الصور فإن أول ما يقتبس من الحضارة الأعلى الألفاظ الدالة على المظهر الحضارى . فيصبح هذا المظهر جزءا متضمنا فى كيانها اللغوى أما عن طريق ترجمة اللفظ إلى لغتها الأصلية أو استخدامه كما هو عليه فى اللغة الأصلية أو اقتباس المعنى واضافته إلى قاموسها اللغوى .

وقد نلمس ذلك فى عصرنا الحديث خاصة فيما يتعلق بالتكنولوجيا المستوردة فقد سبق الامريكيون والاوربيون البلدان الاسلامية والعربية فى كثير من الاستكشافات الحديثة والمستحدثات الجديدة ، واضطرت الى اقتباس بعض تعبيراتها ومعانيها حتى يمكن ان نتفاهم بلغة متعارفة على هذه المصطلحات التكنولوجية .

ومثال ذلك اننا قد جلبنا من الغرب السيارة ، فنقول عنها « الأتومبيل » ، « الأوتوبيس » ونحن لا بديل فى لغتنا العربية عن أجزاء السيارة ، لذلك نستخدم بعض الألفاظ المستوردة من لغات أجنبية والتى لها نفس المعنى ، ولو أن ذلك يختلف من قطر إلى قطر عربى . فعجلة القيادة نقول عنها « الدركسيون » فى مصر « والدومانو » فى ليبيا ، وتروس آلات الجر فى السيارة

نسميها فى مصر « الجيربوكس » وفى السعودية « الجير » كما نستخدم كلمة أيدلوجيا وانثروبولوجيا واستاتيكا وديناميكا وتكنولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا واثنوجرافيا وغير ذلك من المصطلحات الأوربية الحديثة فى لغتنا العربية الذى يتم نقل الاسم الأجنبى أو ترجمته ويقول الأستاذ جاستون دى بارى Gaston de paris أن الاقتباسات التى يلجأ اليها شعب من الشعوب تدل على أن هناك نقصا فى مفرداته اللغوية ، وعلى قدرته على تقبل أفكار جديدة وعناصر ثقافية جديدة وتشهد على التأثير الواقع فيه سواء عن طريق المعارف التى يحصل عليها أو عن طريق الصلات الودية التى تكون بينه وبين هؤلاء الذين يأخذ عنهم ، والكلمات تدل على أشياء وأفكار كما تدل الكلمات الأجنبية فى لغة على وجود علاقات بين الذين يتكلمون هذه اللغة وبين أهل اللغة المستعارة .

وإذا كنا نستخدم حاليا فى لغتنا العربية بعض المصطلحات والتعبيرات والألفاظ الأجنبية ، فإن اللغات الأوربية استخدمت ومازالت تستخدم كثيرا من الألفاظ والمعانى والتعبيرات العربية منذ مئات السنين وقد اقتبستها من الحضارة الإسلامية التى خرجت على العالم كله أبان الفتح الاسلامى وإذا تتبعنا هذه الألفاظ فى اللغات الأجنبية لاكتشفنا تأثير الحضارة الإسلامية فى الأوربيين بشكل واضح وملحوظ .

ومما لا يدعو إلى الشك أن هناك ثلاث مسالك تسربت اليها الثقافة الإسلامية وعن طريقها انتشرت فى أوربا وهى أسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا ثم الحروب الصليبية .

ولما كانت الصلة بين العرب وأوربا قد دامت أكثر من عشر قرون كانت الحضارة الإسلامية متفوقة تماما ومزدهرة فى حين كانت الشعوب الأوربية لاتزال تخوض بحار الجهالة وترزأ تحت الظلمات لذلك فقد انتقلت الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية بكثرة لا يمكن فى الوقت الحاضر حصرها فى جميع الفنون والعلوم .

وقد لاحظت كثيرا من هذه الألفاظ فى اللغة الألمانية مثل الحمل (الخروف) فيسمى Hamel وفيها نستعيض عن الحاء بالهاء لعدم وجود الحاء فى الألمانية ، وكذلك الجبل (التل) بالألمانية gabel والشارع استخدم هذا اللفظ بعد تحريفه ليكون Strasse وغير ذلك كثير .

وفى اللغات الاسلامية والفرنسية والايطالية والاسبانية نلحظ تأثير الحضارة الاسلامية فى الألفاظ العربية الكثيرة المستخدمة فى هذه اللغات ويمكننا أن نضرب بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر على وجود هذه الألفاظ والحروف العربية فى لغات أوروبا المعاصرة حتى الآن ومن ذلك

١ ـ السكر : قد زرع العرب السكر فى صقلية عام ٧٠٣ هـ وفى الأندلس ٧٥٥ هـ ولم يكن معروفا لدى الأوروبيين من قبل ، فلما استخدمه المطبخ العربى كمادة غذائية بعد أن كان يستخدمه الأطباء العرب فى علاج أمراض الصدر ، استعمل هذا اللفظ كما هو فى الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والاسبانية وغيرها من اللغات الأوروبية Suger .

٢ ـ القطن : استقدم العرب القطن وزرعوه فى صقلية وأسبانيا ، لذلك تعد إيطاليا أول من استخدم هذا اللفظ ، وصدرته إلى أوربا نظرا لأنها كانت حلقة انتشار التجارة بين الشرق والغرب وموانيها على البحر المتوسط مثل فينسيا وجنوه وبيزا وغيرها . ويستخدم لفظ قطن فى ايطاليا كما هو فى الفرنسية cotone .

٣ ـ البرقوق : يسمى plum وأدخله أيضا الايطاليون عن طريق العرب الذين زرعوه فى أسبانيا (الأندلس) وفى صقلية .

وفيما يتعلق بالعلوم كالطب والكيمياء والصيدلة وغيرها من العلوم فقد استخدمت الكثير من الاصطلاحات التى كان يستخدمها العلماء العرب ومن ذلك :

ماء : ويستخدمها الأطباء العرب للدلالة على مرض فى العين . (ماء على العين ماء أزرق) وقد أخذ هذا المعنى فى اللغات اللاتينية وسمى Aqua والمعروف أن Aqua فى ايطاليا معناها ماء .

الباب : وتستخدم عند العرب بمعنى « الباب العالى » ويقصد به الخلافة العثمانية وقد أخذ نفس المعنى فى اللغة الايطالية . porte sublime

عتابى : وهو ينسب إلى حى من أحياء بغداد يسمى عتابى يشتهر بصناعة السجاد والبساط وقد اقتبس من العربية إلى اللاتينية Altapi ثم حذفت ليصبح

الأسم Tapis أى بساط .

الموصلين : وهو يطلق على نوع من النسيج يصنع فى الموصل والعراق وهو يستخدم باسم Mossolin أى الموصلين عند الغربيين بل ومازال لدينا هذا القماش ونسميه موسلين .

الجرة : وهى كلمة عربية أقتبست فى اللغات الأوربية لتصبح فى الايطالية Ciarro والأسبانية Tarre والبرتغالية jarra.

الطاس : وهى كلمة عربية (فنجان) واستخدمت فى الايطالية Tasse وفى الفرنسية والبرتغالية والاسبانية والألمانية أيضا .

ديوان : وهو ديوان (المصالح . الجمارك الخ) وقد استخدم فى اللغات الأجنبية Deuane ويقصد به ديوان الجمارك أو ديوان تحصيل الرسوم الجمركية .

أمير : وتستخدم فى اللغات الأوربية فى الشئون البحرية والعسكرية باسم أميرال Amiral ، وكتبت بصور مختلفة إلا أن أصلها عربى ، لكن كان الأوربيون يطلقونها على القواد المسلمين ثم استعملوها للقواد المسيحيين بعد ذلك ونسى الآن أن أصلها العربى .

دار الصناعة : وصلت هذه الكلمة محورة إلى الفرنسية بعد الايطالية Tar cenale والعجيب أننا الآن نستخدم اللفظ الأوربى « ترسانة » وقد نسينا الأصل العربى « دار الصناعة » .

طريدة : وهو أسم عربى لمركب لنقل البضائع وقد اقتبس هذا اللفظ ليصبح فى اللغات الأوربية Tarehe .

الطنبور : وهو أسم عربى لطنبور الحرب ، ويدل على دور الموسيقى العربية فى الحرب ، فقد كان استعمال الطنابير مقصورا على الجيوش الأسلامية وتستخدم كلمة طنبور Tambor فى الأسبانية وأشتق منها Tamboris أى طبلة صغيرة .

لا يسعنا هنا أن نذكر جميع هذه الكلمات إذ ذلك يحتاج إلى وقت طويل لفحص الكلمة واشتقاقاتها ، لكن يجد الإشارة أن كلمة شطرنج وزهر وعنبر

وياقوت وخميلة وتمر هندى وكافور ومومياء وكعب ومكعب وثريد وكلمات أخرى لايمكن حصرها قد اقتبست من العربية إلى اللغات الأوربية ومازالت تستعمل فى قواميسهم .

وما يهمنا ذكره الآن فى هذه الجولة القصيرة جدا أن الحضارة العربية فى وقت ازدهارها أنارت العالم الغربى بأشعاعاتها المختلفة فى كل الميادين ، ولم يتردد العالم الغربى فى الأخذ منها ، وكانت السبب فى نهضته الحالية اجتماعيا وثقافيا وعسكريا وفنيا .

ونحن إذ نزيح الغبار عن تراثنا العربى ، لنظهر للعيان فضل القوة العظمى الكامنة فى حضارتنا العتيدة ، فإننا علينا أن نفتخر بها أمام العالم ، وحتى لا يقنط الجيل الحاضر ولا يتسرب اليأس إلى قلبه حين يرى شعوبنا العربية والاسلامية متخلفة عن غيرها فى مضمار العلوم والفنون فنحن فعلا أصل القيادة العلمية والحضارية للعالم الغربى الجديد . ونحن نتطلع الى يوم قريب لنعود لتولى القيادة مرة أخرى وليس هذا اليوم على الله ببعيد .

١

٤ - الرواد الأوائل للمنهج العلمى .

يزعم كثير من المستشرقين والمستغربين أن العلوم الحديثة لم تكن لها أصول إسلامية ، وإنما الفكر الغربى الحديث نظريا وعمليا هو امتداد طبيعى للفكر اليونانى القديم .

ويصف بعض الطاعنين والمتحيزين ضد الاسلام ، أن العقلية الاسلامية عقلية تحليلية لا تعرف التركيب والإنشاء ويعللّون ذلك بأن هذه العقلية تؤمن بدين التوحيد البسيط ، فلا تستطيع أن تركب الأشياء المعقدة أو تنشىء الأفكار المجردة أو تعرف البناء والتشييد والعمران .

ولاشك أن هذا الاتهام الخطير من قبل أعداء الاسلام انما يرمى إلى بلبلة الفكر والتشكيك فى الدين القيم والشريعة السمحاء ، وبذلك يصرف المسلم عن النفقة فى أمور دينه ، ويتجنب البحث والدراسة فى التراث الاسلامى خوفا من اتهامه بالتقليد والجمود والدجماطيقية .

إلا أننا سنظهر فى الصفحات المقبلة تهافت هذه الآراء ، وبعدها عن الحق والحقيقة ، ففى تاريخ الحضارة الإسلامية مايغنينا عن الجدل مع المتعصبين والمتحفزين ضد الاسلام .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بعرض ما أقامه المسلمون من صروح علمية شامخة تشهد أن المسلمين قد ابتكروا الجديد فى نواح مختلفة من الحياة ، وأنهم قد

انشأوا المنهج العلمى الحديث الذى قامت الحضارة الغربية الحديثة على أركانه ، واستخدمت أصوله واصطلاحاته وتطبيقه العلمى جميعا .

وقبل أن نتطرق إلى المنهج العلمى عند المسلمين فإنه علينا أن ننحو عبر الفكر اليونانى القديم خاصة ـ أرسطو ـ باعتباره صاحب المنطق القديم ـ منهج البحث ـ ثم نعرج قليلا ، لنتبين اصالة الفكر العربى الإسلامى وتفوقه فكرا وسلوكا وتطبيقا عن الفكر اليونانى القديم .

فمن المعروف أن الفكر اليونانى القديم قد اهتم بالتأمل النظرى وبرع اليونان فى الجدل والمناظرة وأسسوا النظريات والمسلمات التى تتعلق بالوجود والطبْيعة ـ والنفس ـ وما بعد ـ الطبيعة ، إلا أنهم من ناحية أخرى قد فشلوا فشلا ذريعا فيما يتعلق بالعلوم العملية ، فلم يجتهدوا فيها أو يمارسوها أو يضعوا الأسس للتطبيق العملى للعلوم الطبيعية .

ويمكننا القول انهم وعلى رأسهم أرسطو ـ قد عوقوا مسيرة العلم بدلا من التقدم بها « كما تقدموا فى ابحاثهم النظرية والفلسفية . ونحن لا نمكن أن نذكى أراء الحاقدين على الاسلام ليدلوا بدلوهم فى الهجوم على العلماء العرب والمسلمين ، لأن التراث الإسلامى قد كشف بإدلة لا تقبل الشك إنهم أول من إهتموا بالملاحظة والمشاهدة والتجربة العملية والمعملية . وهذا لا نجده عند اليونانيين القدماء إذ أن أرسطو قد إهتم بالقياس والاستدلال والاستنتاج أى بالقضايا الكلية فإذا سلمنا بمقدمات معينة يلزم عنها شيء آخر غير تلك المقدمات وهى النتائج .

وقد اقتصر التعريف الأرسطى للقياس على علاقات التضمن أى اقتصر على القضايا التى تتضمن فيها الحدود بعضها بعضا أى أن أرسطو قد غفل عن وجود علاقات أخرى قد كشف عنها المنطق الحديث .

بقى أن نقول إن أرسطو قد فهم القياس على أساس انه الطريقة الوحيدة للتفكير العلمى فى عصره إذا أن القياس هو التفكير الاستنباطى الذى فه يمضى الباحث إلى النتائج من المقدمات التى سبق التسليم بصدقها .

وإنه لجدير بالذكر أن التقدم العلمى لا يمكن أن يقوم على نتيجة عقيمة متضمنة أصلا فى المقدمات ، إذ أن العلم إنما يهتم بالكشف عن الجديد أو على

الأقل على الاضافات التى يمكن أن تكون ثمرة فى ميدان البحث العلمى .

ولايمكن أن يكتشف الجديد بمنطق أرسطو الذى ينتقل من الكلى إلى الجزئى أو من العام إلى الخاص ، إنما يلزمنا منطق آخر للحصول على نتائج جديدة يعتمد فيها على الإنتقال من الخاص إلى العام ، وهذا هو الاستقراء العلمى أو المنطق الاستقرائى وهو يبدأ ببعض الوقائع الجزئية أو الأفراد لينتهى فى آخر الأمر إلى قضية كلية تتعلق بكل الوقائع أو الأفراد .

ونحن نعتقد إن أرسطو لم يكن يفهم الاستقراء على هذا النحو ، وإلا كان قد استخدمه بديلا عن القياس ولكان هو الوسيلة فى الكشف والبرهنة على العلل الحقيقية .

ولقد فهم أرسطو وظيفة الاستقراء على أنه طريقة لإثبات قضية عامة لا باستنباطها من قضية أعم ، ولكن الاهتمام بأنواع القضايا الجزئية التى تتحقق فيها ، وبذلك يكون الاستقراء عند أرسطو مهتما بإقامة البرهان على مسلمة معلومة يجادل فيها المخالف وليس معناه الكشف عن الجديد أو ماهو غير معلوم .

وقد تصور أرسطو أن الجزئيات لا حصر لعددها لذلك فقد اعتقد أنه يكفى أن يرى عدداً محدوداً من أفراد النوع الإنسانى ليدرك معنى الإنسان .

لقد وصف بيكون استقراء أرسطو بإنه استقراء صبيانى ولهذا الاستقراء مآخذ كثيرة ، ولذلك نتحول عنه إلى استقراء آخر لارسطو وهو الذى يسميه بالاستقراء الحدسى ، وهو نوع من الإدراك العقلى المباشر الذى توحى لنا فيه الجزئيات بالمبادىء العامة أو المبادىء الكلية ، ولكن هذا الاستقراء ليس صورة منطقية تجعلنا نسلم بالمبادىء العامة ، لكن العقل هو الذى يدركها إدراكا مباشرا فهو عملية سيكولوجية لا تدخل فى نطاق الدراسة المنطقية ، وكأن الذى يؤمن بهذا الاستقراء يقول : إن قضية ما صادقة لأنى أراها صادقة .

كما يستخدم أرسطو نوعا آخر من الاستقراء يسميه الجدل وهو يراه دراسة للمبادىء العامة المشتركة بين العلوم المختلفة أو ما نسميه اليوم بفلسفة العلوم أو مناهج البحث وهذا الجدل يختلف عن العلم ، فالعلم له موضوع محدد خاص به ، أما الجدل ليس له من موضوع معين ، إنما يهتم بمبادىء العلوم

المختلفة وهو يعتمد على المبادىء العامة لا المبادىء الخاصة ، والذى يستخدم الجدل الذى يحتوى على مبادىء عامة ، وبذلك يستطيع أن يناقشه العالم فى تقرير القضايا العلمية دون إدراك سابق بتفاصيل هذا العلم . كما يستطيع الحكم على القياس بالصحة أو الفساد دون النظر إلى القضايا الجزئية أو مادة القضايا .

ذكرنا الأنواع الثلاثة للاستقراء وهى الاستقراء التام والاستقراء الحدسى والجدل ، ولم يذكر أرسطو غيرها ، فهل طبقها فيما يتعلق بالتجربة العملية والمعملية ؟

الحق أنه يقول : إن معرفتنا بالمبادىء العلمية متأصلة فى التجربة لكنها تقوم فى نهاية الأمر بالحدس ، وكأن التجربة سلم يترقى بها الباحث حتى يصل إلى أعلى الدرجات ثم يطرح السلم حتى يترك الماهية إدراكا غيبيا أو حدسيا مباشرا لادخل للتجربة فيه .

وكأن أرسطو يريد أن يجعل العلوم الطبيعية التى تخضع للتجربة العلمية والمعملية علوما رياضية قائمة على الحدس وأنه قد سلم بالعلم اليقينى وبالماهيات وهذا أيضا ما نجده فى القرن السابع عشر عند رينيه ديكارت .

وإنه لمن سخف القول بأن المنهج العلمى الحديث قد اعتمد على الاستقراء الأرسطى بأنواعه الثلاثة أو أن بيكون الذى يزعم أنه أول من استخدم المنهج العلمى الحديث قد أخذ عن أرسطو منهجه ، وأن بيكون هو إمتداد ـ كما يدعى كثير من المتحيزين للفكر الغربى ـ لارسطو .

والحق أن ذلك إجحاف لما قدمه العرب فى مجال البحث العلمى ومنهجه ، وتضييع لجهودهم عبر القرون المتطاولة إذ أن العرب قد خدموا الحضارة الحديثة وأدوا دورهم الرائد كما ينبغى أن يكون .

لقد أدى العرب دورهم فى خدمة العلم ، واقاموا المنهج التجريبى الحديث على دعائم لا يمكن إنكارها ، إذ نجد إنهم بدأوا بالمشاهدة على نحو معين وانتخاب العينات الممثلة التى يمكن أن تكون لها أهمية ـ فى نظرهم ـ فى البحث من بين عدد لا يحصى من الأمور المشاهدة ، ثم طبقوا منهج الحذف والإضافة كما استخدمه بيكون من بعد ، وإنهم وضعوا بعض القوانين بعد التمحيص

والفحص والملاحظة والمشاهدة والتجربة ، ثم نظموا هذه القوانين كى يدرجونها ضمن نطاق أعم حيث تصبح مبادىء عامة كلية . تستنبط منها قوانين جديدة . ثم تصبح هذه المبادىء العامة عبارة عن نظريات وهو مايسمى فى العصر الحديث بالنظرية العلمية .

لقد ابتدع العرب هذا النسق من الأسلوب العلمى ، والذى لا نتردد فى القول بأنه قد وجد عن العلماء العرب فى دراساتهم وبحوثهم وكشوفهم العلمية . وأكبر مثال عند ذلك ما نجده عند الحسن بن الهيثم ٤٣٠ هـ فى كتابه « المناظر » الذى سنعرض له فى فصول قادمة حيث أنه قد بدأ بحوثه العلمية فى الضوء عن طريق فروض بين رأيين متعارضين ثم امتحن هذه العروض باعتبارها تمثل مشكلة معينة لا باعتبارها مشاهدات خاصة بانتشار الضوء أو غيره ثم يستأنف النظر فى مبادئه ومقدماته فى البحث ، ثم يمتحن ذلك بالتجربة والاستقراء العلمى فيما يتعلق بموضوعه ويسير ابن الهيثم بالبحث خطوة خطوة فيستقرىء الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز بين خواص الجزئيات حتى يصل فى آخر الأمر إلى القوانين التى تحكم هذه الظواهر وإلى النتائج التى أسفرت عنها المقدمات .

والحق أن ابن الهيثم وغيره من العلماء العرب ساروا فى بحوثهم على الطريقة العلمية الحديثة التى حذى حذوها بيكون والعلماء المحدثون ، فقد واصل ابن الهيثم فى بحوثه آخذا المسائل العلمية بالطريقة الإستقرائية واعتمد على التجارب المعملية واستخدم القياس فى استنباط النتائج التى أفضت إليها النظرية أو القانون .

إن منهج المسلمين التجريبى يبدأ بمشاهدة الأمور الطبيعية على ما هى عليه فى الواقع ، ثم انهم يجمعون الوقائع ويعتمدون فى تصنيفها وترتيبها وتبويبها على الأمور المشاهدة لاكتشاف ما قد يسفر عنه البحث عن علاقات والتى تنتهى آخر الامر لتظهر فى شكل قوانين أو مبادىء أو نظريات علمية .

ثم أن الباحثين المسلمين لا يتوقفوا عند هذا الحد فى أبحاثهم فى العلوم العملية والتطبيقية والطبيعية ، بل إنهم يستنبطون من هذه القوانين وتلك النظريات نتائج مرتبطة بها ثم يدللون على صحة تلك النتائج بمقارنتها بالواقع للشخص أو الملموس .

لقد استخدم العرب الإستقراء والقياس وكان قوام منهجهم الإثنين معا ، فالاستقراء يعتمد على الخبرة والفحص والاستقصاء والتميز لأمور معينة . ثم استقراء للحكم العام ، أما القياس فإنه يتخذ من الأحكام المستقرأة مقدمات كبرى يستنبط منها نتائج ينظر إليها من حيث مطابقتها للواقع من عدمه .

ويمثل الاستقراء فى البحث العلمى عند العرب الجانب الوصفى وأما القياس فيمثل الجانب العلمى ، وهذا ما يفرق بين البحث عند الأغريق واليونان الذين اهتموا بالقياس فحسب لأن غاية العلم عندهم البحث عن العلل وإكتشافها .

لقد عرف العرب عقم المنهج اليونانى ونبذوا وتجنبوا فى ابحاثهم المنطق الصورى الذى كان يبدأ بمقدمات عامة ، ومن ثم كان منهجا لإقامة البراهين على حقيقة معلومة لا بكشف حقيقة مجهولة ، لذلك فإن العرب استخدموامنهجا غير المنهج اليونانى وأتبعوا طريقا هو الطريق الذى يستخدمه علماء العصر الحديث فنجد فى مجال الكيمياء أن جابر بن حيان يستخدم قياس الغائب على الشاهد ، ثم أن الحسن إبن الهيثم قد تنبه قبل بيكون بقرون بطريقة الحذف التى استخدمها بيكون وطريقا البواقى التى استخدمها مل . والحق أن إبن الهيثم قد تنبه إلى أهمية الطريقة العلمية فى حذف ما لايصلح وذلك للابقاء على ما يصلح قبل العلماء الغربيين بقرون .

لقد كان العرب أكثر واقعية فى فهم أسس المنهج العلمى واتضح لهم عقم المنهج اليونانى الذى كان القياس الصورى أساسه ، والذى ظن أصحابه أنه تطبيقا يمكن عن طريق قواعد معينة أن يصل العالم إلى كشوفاته العلمية وهذا الرأى اكتشف العرب تفاهته ومنافاته للفهم الصحيح لأصول البحث العلمى ، فالعلماء لا يلقون إلينا بنتائج ابحاثهم إلقاء ، وإنما يعملون جاهدين على البرهنة عليها ويدللون على صحتها ، وتختلف طرائق البرهان باختلاف العلوم ، بل فى العلم الواحد .

وقد اهتم العرب فى أبحاثهم العلمية بالبرهنة والاستدلال وأثبات قضاياهم ومعتقداتهم بفهم صحيح لا التباس فيه ولا التواء بخلاف ما كان يستخدم عند اليونان من مناهج للبحث والقياس .

ومثالنا فى ذلك العلوم العربية التى كانت مدار البحث عند العلماء المسلمين ففى علم الكيمياء ، نجد الباحثين العرب اهتموا باستخراج علة الشىء أو سببه ثم مقارنته بما يتشابه معه من الأشياء الأخرى ، وإذا ما استيقن الباحث أن هذا المعلوم من الأشياء يشبه هذا المجهول من الأشياء ، قاس الثانى على الأول حتى يتعرف على العلة الواحدة .

وتقوم فكرة القياس على مبدأين أساسيين فى علم الكيمياء :

أولا :ـ أن لكل معلول علة ، وإن لكل أثر مؤثرا .

ثانيا :ـ مبدأ النظام والتناسق فى المظاهر الجزئية لهذا الكون .

وبرغم اختلاف المظاهر الجزئية فإنها فى أشكالها وصورها ترتبط فى آخر الأمر بعلة كلية تحتوى على النظام والتناسق فيما بينها .

وقد استخدم جابر بن حيان ـ كما سبق الاشارة ـ قياس الغائب على الشاهد عندما ناقش المنهج الذى سار عليه فيما يتعلق بعلم الكيمياء فهو يرى أن هذا القياس على أوجه ثلاث :

أولها : دليل المجالسة ، وهو ما يعرف عند الاستقرائيين المحدثين بالوقائع الممتازة ودلالة المجالسة أنها ظنية احتمالية فهو يقرر فى ذلك أن التجربة العلمية المعملية تجربة لا تؤدى إلى اليقين ، وإنما تؤدى فقط إلى احتمال الصدق والكذب .

وهذا يقترب كثيرا من نظرة الاستقرائيين المحدثين فيما يتعلق بأخذ عينات ممثلة لوقائع التجربة .

ثانيها :ـ يستخدم جابر بن حيان دلالة أخرى يسميها دلالة مجرى العادة وتعتمد على القياس والاستقراء للأشياء المتشابهة ليستشهد بها على المطلوب إثباته ، وهو أيضا فى ذلك يرى أن دلالة مجرى العادة هى فكرة احتمالية وقد سبق بذلك هيوم فيا يتعلق بفكرة « الاحتمالية » .

ثالثها : استخدم جابر بن حيان دلالة الإثارة أو شهادة الغير وقد اعتبرها ايضا شهادة أو دلالة ظنية .

بهذا لايمكن فى حدود المنهج التجريبى ـ الحكم على المجهول أو مالم يشاهد

إلا على سبيل الاحتمال .

ويجدر بنا هنا التساؤل عن أصول المنهج العلمى عند المسلمين ؟
وللاجابة على ذلك يمكننا القول :

إنه من الملاحظ العلمى عند المسلمين لم يؤخذ برمته فى العلوم المستحدثة ، وإنما أخذ شطرا منه فى تطبيقه فيما يتعلق بالعلوم التطبيقية والعملية والرياضية دون العلوم الإنسانية والحياتية . الأمر الذى جعل التقدم فى الغرب الرأسمالى والشرقى الشيوعى تقدما ماديا فحسب يرتبط بما هو ملموس ومحسوس وماله طول وماله عرض وماله عمق ، أى مثل علوم الميكانيكا ، الطبيعة ـ الكهرباء ـ الهندسة . والتكنولوجيا ، أما العلوم التى تتعلق بالإنسان مثل التربية والأخلاق وعلم النفس والإجتماع . فلا يمكن أن يقال أن إنسان القرن العشرين قد تقدم اخلاقيا أو تربويا أو نفسيا فيها ، أو حقق أمنا قلبيا بنفس الدرجة التى كان عليها الانسان فى العصر الجاهلى .

أما المنهج الاسلامى فإنه نسيج متناسق يربط بين العلوم الحياتية والعلوم العملية فى وحدة لا تنفصم عراها ، وإنه أخذ مصادره من النبع الفياض الذى لا ينضب وهو القرآن الكريم والسنة المحمدية .

ولذلك فإننا نجد أن العلماء الطبيعيين المسلمين قد أخذوا منهجهم من العلماء الأصوليين والمتكلمين وهذا هو الحسن بن الهيثم يعتمد فى نظريته فى علم الضوء على أسس الأصوليين والمتكلمين المسلمين ، ويطبق منهجهم فى الاستقراء العلمى ويأخذ الحسن لفظ « الاعتبار » وهو ما يسمى عند الاستقرائيين المحدثين باسم « التجربة العلمية والمعملية » كما يستخدم لفظ « سبر » من سبر الشيء بمعنى معرفة أغواره وحقيقته والمراد به عند ابن الهيثم « الأبطال » .

ويستهدف منه كشف علة الشيء وهو ما يستخدم حديثا باسم الحذف عند بيكون وطريقة « البواقى » عند مل ، فهو يستخدم السبر فى حذف الأشياء التى لا تصلح للتعليل كما يبقى على الأشياء التى تصلح لهذا التعليل .

ومن هذا يتضح وحدة المنهج الإسلامى رغم اختلاف التفاصيل الجزئية فى

العلوم المختلفة وهذا وحده كفيل بعدم إيجاد انفصام عقلى بين العلوم المختلفة ، كما أنه يعين العالم على أن يكون شموليا فى نظرته فيستطيع أن يعمل فى تخصصات متعددة فى وقت واحد كأن يكون متكلما وطبيبا وكيميائيا وفيلسوفا وطبيعيا .

أما فى مجال الطب ، فنجد الرازى وابن سينا يستخدمان هذا المنهج مع شىء طفيف فى الاختلاف فى التفاصيل ، فهما يستخدمان المنهج الوصفى لوصف الأغراض « الأشياء » ثم إنهما يشخصان العلل ثم إنهما يوضحان الروابط أو العلاقات بين العلل المتشابهة ، ثم يقومان بعلمية التفسير التى تعتمد على المشاهدة وليس على الوصف المجرد أو التعريف فحسب ، كما نجدهما بعد ذلك يهتمان بعد المشاهدة للأشياء بوضع فرض لامتحان صدقه عن طريق التجربة مثلما فعل الرازى فى تجربته - على القرد الذى سقاه زئبقا ، وهو منهج يقصد منه الملاحظة والتجربة حتى يمكن الوصول إلى نتائج عملية فى المجال الطبى .

وفى مجال الصيدلة كانت تمتحن العقاقير والأدوية عن طريق التجربة والقياس إلا أن العلماء العرب قدموا التجربة على القياس حتى يتعرفوا على النتائج بالكيفية والكمية .

وقد اشترط ابن سينا شروطا سبعة فيما يتعلق باجراء التجربة وهذه الشروط اقتبسها جون ستيوارت مل ، إلا أنه جعلها ثلاثة أو سماها بالقواعد الثلاث التى هى قواعد الاتفاق والاختلاف ، والتغير النسبى .

وكذلك القواعد التى وضعها بيكون لإجراء التجربة والتى جعلها فى مرحلتين مرحلة التجريب ومرحلة التسجيل وهى نفس القواعد التى قال بها ابن سينا قبله بمئات السنين ولا يمكن إلا أن تكون قد نقلت عن طريق حركة الترجمة والنقل .

وأخيرا نستطيع أن نؤكد أن المنهج العلمى للبحث كما وجدناه من واقع ابحاث العلماء المسلمين - قد أثر فى الفكر الغربى الحديث تأثيرا إيجابيا من دراسة الأمثلة الواقعية والابحاث العلمية التى قام بها المسلمون وليس اعتماد على إرهاصات .

٢

١ ـ رواد الحضارة .

لقد ولد الإسلام عملاقاً ، ولم تمر أكثر من مائتى سنة على ميلاده إلا ووقف المسلمون على أحوال العالم ، وتصدروا الحركة العلمية باعتبارهم الأئمة على مفاتيح جميع الفنون والعلوم .

لقد وصف أحد المستشرقين نهضة المسلمين فى عصورها الزاهرة فيقول [١٠] .

« ولد الإسلام فى حى مجهول بمكة ولم يكد يخرج منها حتى غزا الشرقين الأدنى والأوسط فى سرعة مدهشة . ثم تابع المسيرة فوصل إلى الأندلس ، ثم إلى حدود الصين عبر ايران .

وكانت آخر نقطة وصل إليها الاسلام هى بوداست حيث لاتزال مقبرة جل بابا بطرازها التركى على ضفاف الدنوب تذكرنا بأن المسلمين وصلوا حتى البقعة النائية .

وكانت معجزات هذا الزحف أن أنشأ العرب امبراطورية عالمية ، ولم يكتفوا بنشر لغتهم فى أرجاء العالم ، بل اكتسبوا العلوم الانسانية وأستفادوا منها ورفعوا مستواها . .

---

(10) Edward Mcnall Western Civilization P. 26.

ولقد أنشئت فى القرن السابع الميلادى الأسس السياسية والاقتصادية للأمبراطورية العربية العالمية . وفى القرن الثامن قامت الخلافة العباسية بخلق أعظم الحضارات فى التاريخ .

وقد احتضن العرب جميع الأشياء فى الحضارتين الرومانية واليونانية وبخاصة علومها الطبيعية ، وأجرى العرب البحوث والتجارب الجديدة ، فتوصلوا بذلك إلى أعظم النتائج فى علوم الطبيعة والكيمياء والجبر والعلوم الفنية . ولا تزال مئات المئات من المصطلحات العربية الأصل تذكرنا بمجد العرب ، لقد كانوا تلاميذ اليونانيين إلا أنهم مالبثوا أن أصبحوا أساتذتهم .

ويستطرد Edward Mcnall قائلا : لقد أقام [١١] المسلمون المراصد فى مختلف الأمكنة لدراسة علم الفلك . ويقول : « أن المسيحيين حولوا مراصد اشبيليه إلى ميدان للساعة لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن للمرصد فائدة أخرى .

توصل العالم المسلم الخوارزمى وأصحابه فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى إلى معرفة محيط الأرض وقدره بأنه يبلغ ٢٠,٠٠٠ ميل وأن نصف قطرها يبلغ ٦٥٠٠ ميلا ، ولاشك أن صحة هذه التقديرات تدعو إلى الدهشة حقا .

وفى الوقت الذى كانت هذه الأنشطة تجرى فى العالم الاسلامى كانت أوربا تؤمن بأن الأرض مسطحة [١٢] .

لقد سبق العرب العالم وأفاضوا على الدنيا كلها حضارة وثقافة ، فأنشأوا الأسواق الحديثة بالاندلس وأناروا الشوارع ، وكان يبردون بيوتهم بأنابيب مياه اصطنعوها ، ونافورات ، بينما كان الأوربيون يتخبطون فى الوحل نهاراً والظلام ليلا .

كانت البلاد الاسلامية مليئة بالمستشفيات والمكتبات العامة والمدارس التى يدرس فيها علوم الدين والرياضيات والفلسفة والطب ، كما كان الصناع والعاملون المهرة فى بغداد ودمشق ومصر وقرطبة يصنعون أجود المنتجات والأثاث من الخشب والحديد والفضة .

---

(11) Edward Mcnal, Western Civilization P 25.

(١٢) المرجع السابق .

لقد كانت الصناعات الفنية لا تقاس بشىء فى مواجهة فنون المسلمين المتقدمة ، ولم يكن هذا المستشرق العادل هو وحده الذى يبرز حقيقة عصور الازدهار الاسلامية ، بل تابعه كثير من العلماء والمفكرين الغربيين الذين أظهروا للعالم أن العلماء المسلمين هم الرواد الأوائل بحق دون أدنى شك فى ذلك ، وهاهو العالم بريفانت يقول(١٣) :

« تعلم روجر بيكون علوم العرب لذلك لا يحق له أو لأى أحد سواه أن يدعى أن بيكون هو مؤسس المنهج التجريبى ، فلم يكن بيكون سوى مقلد وداع إلى اكتساب العلوم والأساليب الاسلامية فى أوربا المسيحية ، ولم يكن هناك من سبيل للأوربيين للتوصل إلى العلوم الحقيقية سوى العكوف على علوم العرب .

لقد كانت فلسفة ابن رشد ١١٩٨ م محظورة على المسيحيين حيث اعتبرتها الكنيسة خطراً على المسيحية ، خاصة وإنها كانت تحظى بقبول عام لدى المثقفين الأوربيين فحرم مجلس سنة ١٢١٠ م الكنسى دراسة وتدريس شروح ابن رشد لكتاب أرسطو « التاريخ الطبيعى » حيث سادت فلسفة ابن رشد الفكر الأوربى ، إذ أنه بحق وضع أساس النهضة الايطالية حتى أن المؤرخ كلوفون يقول :

« إن ابن رشد أثر على عصره مثلما أثر دارون على فكر العصر الحاضر ، لكن لكى تصبح المقارنة بين ابن رشد ودارون صحيحة فإنه لابد أن تبقى الدارونية صامدة ضد الانتقادات لثلاثمائة سنة قادمة وهو أمر مشكوك فيه » .

ولقد اعتبر الإسلام أن الإنسان ليس مركبا من عقل خالص وروح ، وليس من عنصر نارى محض ، كما أنه ليس من جسد ومادة وعنصر أرضى ، بل أن هناك توازن واعتدال بين قوى الانسان المختلفة من روحية ومادية ، فإذا انحرف عن هذا الاعتدال ظلم نفسه وسقط فى الاضطراب والحيرة والشقاء .

لذلك كان الدين الإسلامى إيمانا بالقلب . وعملا بالجوارح ، وجعل مجال الانسان فى الحياة الدنيا العلم والعمل ، والآيات القرآنية المتعددة شاهده على صدق ما نقول :

---

(١٣) أنظر : المسلمون بين الماضى والحاضر . وحيد الدين خان ، ص ١٠ ومابعدها .

﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ (الحشر : ٢)
﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلى العالمون ﴾
(العنكبوت : ٤٣)

ربط الاسلام بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وجعل هناك نظرة مزدوجة صريحة فى اللفظ والمدلول للروح والجسد ، ففيما يتعلق بإستقراء الموجودات ، واستنباط العبرة منها يقول عز من قائل :

﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ﴾ (البلد ٨ : ١٠)

وفق الاسلام بين العلم والعمل ، وبين السعى فى الحياة الدنيا وبين السعى للآخرة ، وبذلك لم يكن - كما يزعم بعض المستغربين والمستشرقين - حجر عثرة فى وجه التفكير الحر والرقى العلمى .

فظاهر الآيات القرآنية يدل على التحريض على طلب العلوم العصرية والتزود من مناهلها ، يقول الرسول ﷺ :

« تعلموا الوقت ولا تكونوا كالذين يؤذنون على آذان بعضهم بعض » .

وقد أجمع علماء الاسلام على وجوب الاشتغال بعلم الهيئة والفلك وغيرها ، بل أن الامام الغزالى جعل تعلم الحساب من فروض الكفايات ، وكذلك فإن علم الهيئة لا يكذبه الشرع بل يهتدى به إلى معرفة السنين والشهور وأوقات الصيام والحج ومواقيت الصلاة ، وإنكار هذا قصور وجهل .

يدعو الاسلام المسلم إلى الاستمرار فى السعى ، والمثابرة فى العمل ، والبحث والدراسة ، يقول الرسول ﷺ :
« لايزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

كان العلماء المسلمون يؤمنون بأن التقدم البشرى مقترن بالسعى فى الدنيا والعمل للآخرة ، وليس هناك نقطة يتوقف العلم عندها ، والحق ليس بالأمر المطلق الثابت ، بل على أن المرأ يجب أن يسعى إليه ويقترب منه دون أن يدركه أبداً .

لذلك اقترن العلم فى الاسلام بالعمل والتطبيق ، واستخدم العلم للصلاح والاصلاح وخدمة الواقع والحياة وبذلك خالفوا النزعات التى سارت عليها

الفلسفة اليونانية التى اهتمت بالجانب النظرى من العلم فحسب .

كانت للعلماء المسلمين قواعد أساسية يمكن تلخيص بعضها فى الآتى :

١ ـ أنه لا يكون العلم إلا بالعمل المستمر وبالمثابرة ، فالعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر أو كالرعد والبرق بلا مطر ، العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر .

٢ ـ لايكون الحق إلا ما أملت التجربة أنه حق ، ويقول فى ذلك الكاشى :
« ان طريقته فى البحث أنه كان يهتدى بنور الخاطر ولا يقتدى بمذكور الدفاتر .

ويعلن جابر بن حيان طريقته التجريبية فيقول :
١ ـ إختر للتجربة الوقت المناسب .
٢ ـ تجنب المستحيل وما لا فائدة فيه .
٣ ـ اختر لعمل التجارب مكاناً منعزلا .
٤ ـ كن صبوراً مثابراً وصامتاً متحفظاً ، لا تغتر بالظواهر لأن هذا يؤدى بتجربتك إلى نتيجة مخطئة .

وينتقد عبداللطيف البغدادى جالينوس فيقول :

« فإن كان جالينوس فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فإن الحسن أصدق » .

ويستطرد قائلا :

« إن الحس أقوى دليلا من السمع » .

وبالرغم ما كان لبطليموس من شهوة ، وبالرغم ما كان لإقليدس من صيت فى العهد القديم ، فإن المسلمين عرضوا ما نقلوه عنهما على محك التجربة والعقل وناقشوه وامتحنوه ، وساروا فى الأرض يقيسون ويحسبون ، وجمعوا نتائجهم فى جداول ، وأصلحوا الخطأ الذى وقع فيه القدماء .

لكنه للأسف الشديد لم تستمر العقلية الإسلامية فى إنتاجها الفكرى والعلمى حتى عصرنا الحديث ، ولو كانت قد استمرت لبلغ تقدم العلوم الاسلامية بصفة خاصة ، والانسانية والعملية بصفة عامة شأوا عظيما وأفضل مما وصلت إليه أوربا من تقدم مئات المرات ، ذلك إن المقلد ليس مثل

الأصيل ، فالأصيل يعرف بطريق منهجه الواضح ماذا يجب عليه أن يفعل وما هدفه الذى ينشده ؟ . أما المقلد فإنه وإن أحسن الصناعة إلا إنه لا يستطيع أن يستفيد من الفطر السليمة ولا ينتج إلا ما تعلمه وعرفه . ولذلك فقد نجح الأوربيون فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية والتطبيقية عندما انتهجوا نفس القواعد والأسس ، وواصلوا التجارب .

أما التشريع والاقتصاد وعلم النفس ، فإن أبحاثهم فيها لم تأت بالجديد أو المستحدث الذى يمكن أن يقال : « إنه تطور فى الفكر الانسانى ، ونضرب لذلك مثلا بأن الاخلاق فى العصر الحديث وبرغم التقدم العلمى لا يمكن أن يقال « انها تقدمت تقدما ولو يسيرا ، بل يمكن القول على العكس من ذلك تماما ، إن هناك نوع من الاندحار والارتكاس فى أخلاق هذا القرن والذى ترتب عليه ارتفاع نسبة الجرائم وفظاعتها بالمقارنة لأخلاقيات القرون الوسطى أو عصور الجاهلية .

إنه لمن المؤسف حقا إن نجد فى العصر الحديث تطوراً عملياً وتكنولوجياً ، وانتكاساً فى مجال العلوم الحياتية ، فلم تستفد أوربا على الحقيقة من المسلمين إلا الجزء العملى من حضارتهم فحسب .

لقد واجهت العلوم الأوربية العسكرية فى القرن السابع عشر ، واجهت قوة الاسلام العسكرية ، وانتهى الأمر بأن هزم المسلمين بصورة قطعية ، ثم مالبثت الدول الاسلامية العملاقة تتساقط الواحدة بعد الأخرى أمام الجيوش الغازية ، وأصبحت أعلام أوربا ترفرف على قلاع الاسلام فى آسيا وأفريقية ، وبدأ الاستعباد الاقتصادى ثم تلى ذلك الاستعباد السياسى ثم انتجت مصانع أوربا الأسواق فى العالم الاسلامى فقضت بذلك تماما على الصناعات والمنتجات اليدوية العربية .

ويصف العالم المجرى المسلم دكتور عبدالكريم درامانوس حالة العالم الاسلامى فيقول :

« تقهقرت صناعاته وظلت حالته الاقتصادية تعيش فى الجو الخيالى القائم على الاقتصاد الزراعى البدائى ، وحتى المدارس الاسلامية مازالت تدرس الكتب القديمة التى كانت تدرس من ألف سنة مضت » .

وظل المسلمون منذ القرن الثامن عشر يغطون فى نوم عميق ، وقد أصابهم الخمول والركود فى كل مناحى الحياة ، وعندما كان علم الكلام المسيحى يدرس على يد علماء مسلمين مثل كمال الدين بن يونس فى الموصل وعز الدين الاربلى فى دمشق وغيرهم وكان المسيحيون يتتلمذون عليهم لدراسة ديانتهم وعقيدتهم مثل التوراة والإنجيل لأنهم أفضل من العلماء المسيحيين أنفسهم .

ثم تغير الحال فى هذا العصر وأصبح المسلمون يرسلون بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية ليتعلموا على يد الأجانب من العلماء المسحيين ، وقد أصبح العلماء المسلمون يقلدون اسلامهم ، وكأنهم يقولون أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان . فأكثر الكتب فى عصور الانحطاط هى عبارة عن شروح جافة للكتب القديمة وتقليد عقيم لها ، فقد العالم المسلم روحه حتى أصيب بحالة من التسوس والبلادة .

لقد كانت صناعة الورق على سبيل المثال فى العصر العباسى صناعة مزدهرة لعدة قرون حتى جاء القرن الثامن عشر وأفتى أحد شيوخ الاسلام بأن المطبعة هى من عمل الشيطان .

لقد كان من العلماء المسلمين أئمة فى الطب والصيدلة ، اخترعوا لقاحات لكثير من الأمراض ، ثم يأتى الوقت الذى ينظرون إلى لقاح الجدرى بنظرات الشك والريبة ، وينظرون إلى القضاء على الفئران والحشرات الضارة على أنها حيلة من حيل المستعمرين للدخول إلى بيوتهم والنيل من كرامة نسائهم ، ثم جاء الوقت الذى قيل فيه ان تعلم الانجليزية مثلا هو تعلم للغة الشيطان ونسوا قول الرسول ﷺ « من تعلم لغة قوم آمن شرهم .» لذلك حرمت دراسة اللغة الانجليزية لمدة قرنين من الزمان . ولقد وصل الامر الآن إلى أن تكون القاطرة علامة الغرب ويكون المغزل اليدوى رمز الشرق [١٤] .

إننا مازلنا نطرح كلمات الغزو الاستعمارى الأوربى ومؤامرات الأوربين على أنها هى كل شىء يجب أن نقابل به حضارتهم ، ونتفهم به حيلهم ، لكن ذلك يعتبر مجرد دراسة سطحية للحقائق ، فإنه من المعروف إنه إذا اصطدمت فرقتان فيجب إن تجهز كل منها عدتها وعتادتها لمقابلة الفريق الآخر ، فالحرب

---

(١٤) وحيد الدين خان ـ المسلمون بين الماضى والحاضر ، ص ١٤

خدعة والغلبة الذى ينتصر بدهائه ومكره ، ولا تعنى الهزيمة إلا الضعف والسذاجة وقلة الحظ من الذكاء والدهاء .

هذا هو حالنا ومادام الأمر كذلك فيجب أن نغير طريقة تفكيرنا إذا كنا جادين حقا للانتصار على التقدم الأوربى ، وأن نضربه حقا فى مقتل ، وليتحقق ذلك فلابد أن نتفوق عليه علما وقوة ودهاء ، أما الكلام عن المؤامرات وحيل الأعداء فهذا لا طائل من ورائه ، إلا إذا كان هدفنا فضح أساليبه فحسب .

كان الانتصار دائما للعرب حتى القرن الثامن عشر الذى إنتهى بهزيمة الأسطول التركى فى الهند ، وتمكنت الشعوب الغربية بعد ذلك من اخضاع معظم بقاع العالم الاسلامى لسطوتها (١٥) . ونحن لانشك إن هناك حركات مقاومة ضد الاستعمار الغربى وهناك تضحيات عظيمة كان من ثمارها استقلال كل البلاد الاسلامية فى آسيا وأفريقية ، إلا أن الاستعمار الغربى مازال قادرا على أحداث الانقلابات والمؤامرات فى البلدان الإسلامية ، ودفع هذه البلدان إلى التطاحن فيما بينها وهذا راجع إلى التفوق الأوربى العسكرى والعلمى والصناعى ، وما المعاهدات التى تعقد إلا أسلوب جديد للاستعمار يتخذ أشكالا ، مثل التبادل التجارى ، المساعدات الاقتصادية ومعاهدات الصداقة وغيرها .

لقد تعلم الأوربيون لغتنا وعلومنا فى العصور الوسطى لكى يحاربوننا بها ، ولقد نجحوا إلى حد كبير فى ذلك ، ونحن الآن نقلد العلوم والفنون الغربية لا لشىء إلا لنتمسح بهم ، وليقال عنا إننا متحضرين مثلهم ، وهذا هو الفارق الكبير الذى ترتب عليه أننا لا نعرف إلا النذر القليل من قشور الحضارة الغُربية ، ولم نتعرف على الصناعات الأوربية الحديثة والعلوم العملية والتطبيقية التى هى السبب الحقيقى وراء سيطرة الغربيين . وطغيان المستعمرين وقوتهم ، وقد نتج عن ذلك نكوص المسلمين واندحارهم نظرا للتفكير الخاطىء فى السلوك والعمل .

لقد كان المسلمون من ألف عام مضى أئمة العلم والفن عندما كان يرزح

---

(١٥) وحيد الدين خان ـ المسلمون بين الماضى والحاضر ، ص ١٥ ، ١٦ .

الأوربيون فى الجهل والفقر والمرض .

ولقد حاول الأوربيون مع بداية القرنين الثانى عشر والثالث عشر التصدى للمسلمين ، وبدأوا حربا طاحنة بينهم إستمرت لقرنين كاملين وهى الحروب الصليبية التى انتهت بفشل الأوربيين فى تحقيق أى من أهدافهم .

لكن الأوربيون لم يفقدوا عزيمتهم ولم ييأسوا ، فلقد عرفوا أن سبب انتصار المسلمين هو تقدمهم فى العلوم والفنون المختلفة ، وعلى سبيل المثال فقد كان الجندى المصرى يستخدم فى ذلك الوقت سهاما نارية مستخدما المنجنيق ، وعندما كان يطلقها يفر الجندى الفرنسى معتقدا أن هناك افاعى نارية طائرة تنطلق من معسكر المسلمين ، فلم يكن الفرنسيون يعرفون شيئا عن تلك الأسلحة ، وكل ماكانوا يعرفونه هى الأسلحة اليدوية القديمة ، ويتبدل الحال اليوم ، ويفاجأ المسلمون فى أى بلد متخلف بالصواريخ والقذائف الحديثة التى تنطلق عابرة مئات الأميال لتقذف معسكراتهم فى أى لحظة من اللحظات ، كما يهاجمون بالطائرات التى هى أسرع من الصوت ، فكما تعلم الأوربيون من قبل علوم المسلمين لينتصروا عليهم بنفس أسلحتهم وفنونهم . فإن على المسلمين اليوم أن ينتهوا إلى نفس التفكير . ويحاربوا الأوربيين بنفس أسلحتهم وعلومهم وفنونهم لينتصروا عليهم ، ولا مجال لهم إلا بالتمسك بعقيدتهم وقوتهم الروحية كما تمسك الصليبيون من قبل بمخططاتهم فى تشويه حقيقة الاسلام . لقد نجحت حركات التبشير الصليبية فى تحريف الحقائق عن الشريعة الاسلامية السمحاء والدين القيم ، ونجحت أيضا فى بلبلة أفكار المسلمين عن تاريخهم وامتلأت الكتب بالأساطير والخرافات والأباطيل عن الاسلام والمسلمين .

لقد كان يدعو بعض الأوربيين المحافظين إلى خطورة غزو الأفكار الاسلامية إلى المسيحية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، حتى إن روجر بيكون العالم الانجليزى الشهير عندما أعلن وجوب دراسة اللغة العربية لاهميتها ، صرخ فى وجهه العلماء قائلين لقد أصبح بيكون عربيا أى أنه أصبح مسلما ، لكنه مع ذلك إزدهرت الحركة الداعية لدراسة علوم المسلمين واجتهد الأوربيون فى طلبها واجتهدوا فيها ، وسخروا الطبيعة لأبحاثهم ودراساتهم ، الأمر الذى ساعدهم على الحاق الهزيمة فيما بعد بالمسلمين ، ثم بعدما تقدم الغربيون

واستخدموا العلوم العربية فى بناء صرح حضارتهم ، واستعبدوا العالم كله ، أما المسلمون الآن بعد إن تعلموا علوم الغرب وفنونه لم يضيفوا حتى الآن إلى ثقافتهم شيئا جديدا بل أصبحوا مجرد نقلة يقلدون ، أو عبيدا لأفكار الغرب وتقاليده .

لقد نادى أتاتورك سنة ١٩٣٨ بتقليد الغرب باندفاع غريب ، ولم يكن هدفه الذى أوضحه سوى المسيرة نحو الغرب ، وأعدم الألوف من الناس فى سبيل هذه الدعوة ، ولم تكن لهم من جريمة سوى عدم تقبلهم للحروف اللاتينية وعدم رغبتهم فى ارتداء البرنيطة الأوربية ، وتقدمت فى تركيا حركة الترجمة للأعمال الأدبية إلا أنها أهملت العلوم والتكنولوجيا التى هى سر نهضة الغرب ، وكأنهم عارضوا التعليم الفنى الذى هو سبب التقدم والرقى الأوربى . ومازالت تركيا حتى الآن عبارة عن مخزن للبضائع الغربية .

إن فكرة التقليد هى فكرة ليس لها صلاحية ولا كفاءة لاثبات وجودها فإن الواقع المر الذى يعيش فيه العرب اليوم يبين إنه حتى الآن لم تتقدم ولا خطوة فما دامت العلوم والفنون ليست غاية المسلمين فإنه لا يمكن أن نسبق الطائرة الغربية التى تسبق الصوت .

ليس الهدف إذن أن نلبس (البدلة) الافرنجية « والبرنيطة » الأوربية كما كان يدعو إلى ذلك بعض المفكرين المسلمين ، إنما الهدف هو كيف نستخدم الأسلحة العصرية وننتجها محليا ونطورها حتى نهزم أعداءنا .

إن سبب هزيمة البلاد العربية واستعمارها ، بل والآسيوية أيضا إنما راجع إلى استخدام المدفع الحديث الذى تجهل استعماله الجيوش التى حاربت الاستعمار الأوربى الحديث .

لقد فقد العرب فى هذا العصر همتهم فى تطوير العلوم العملية التى كانت فى البداية من أسباب نهضتهم وتطورهم العظيم ، عندما أناروا العالم بها فى ظلام العصور الوسطى ، فالعرب هم الذين اخترعوا الساعة لأول مرة فى القرن السابع وبرغم ذلك فإنهم الآن لا ينتجوها بل ربما لا تعرف أكثر الدول العربية صناعة الساعات .

لقد إنتقل هذا الفن الذى كان معروفا فى دمشق وبغداد فى عصر الرشيد ،

إنتقل هذا الفن فى صناعة الساعات وتطور فى كثير من البلاد الأوربية .

لقد استخدم العرب فى الأندلس المطابع المصنوعة من الخشب قبل وقت طويل من ظهور مطبعة كاكستون فى القرن الخامس عشر ، إلا أن هذه المطابع لم تتطور أكثر من مرحلة (الاكليشهات) . وحكم الأتراك أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط . لكنهم لم يهتموا بالطباعة من قريب أو بعيد .

وأخذ الأوربيون هذه الصناعة وطوروها وأصبحت المطابع تخرج المئات من الكتب ، لكن الأتراك برغم علمهم لم يتحركوا للاستفادة من تطور فن الطباعة عند غيرهم ، وربما يرجع ذلك إلى اعتقاد بعض الاتراك كما يقول أحد المؤرخين (١٦) . إن الأتراك اعتبروا طباعة آيات القرآن تدنيساً خوفاً من أن تقع هذه الأوراق تحت الأقدام ، أو ترمى فى القمامة .

إن الإسباب الحقيقية لانتكاس واندحار الأمة الإسلامية إنما الاهتمام بالبطولات الكلامية التى يخوضها الخطباء والكتاب مثلما يحدث الآن فى الأمة العربية فيقولون :

إن فلسطين تحتاج إلى صلاح الدين الجديد ليحررها » .

وهم يعتقدون خطأ إن هذه العبارة معناها انهم أوفوا الموضوع حقه ، لكن هذه المعالجة ناقصة ، فميلاد صلاح الدين مرة أخرى لن يحل القضية ، إنما الحل يكون باعداد الجيوش وإعلان الجهاد وتقوية القلوب والامداد بالأسلحة الحديثة وتزويد المجاهدين بكل ما يحتاجونه من عدة وعتاد ، هكذا انتصر صلاح الدين وليس بالخطب التافهة ولا بالشعر والأغانى ، إنما بالفهم الصحيح والعقل السليم ، وهكذا يمكن أن نرد الصاع صاعين وعندما نملك القوة نحقق العزة للمسلمين . .

● ● ●

ونحن نتوجه إلى رجال العلم والفكر راجين أن يستخدموا مالهم من فطنة وذكاء ، ومن نور العقل الذى وهبهم الله إياه ، وأن يتوجهوا إلى تراثنا الاسلامى ليتفحصوه ويتدارسوه فيما بينهم ، وأن يشحذوا الهمم ، ويوجهوا الانظار إلى أهمية التقنية لما فيه صالح البشرية .

---

(١٦) وحيد الدين خان ، المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل ، ص ٣١ ، ٣٢ .

ونأمل أن يكون نصيب الأجيال المقبلة فى التقدم والحضارة ما هو أفضل من نصيب هذا الجيل ، كما أننا يجب ألا نغفل عن أن يكون المجتمع المسلم تنهض فيه القيم البشرية والروحية جنباً إلى جنب مع التقدم المادى والحضارى ، كما كان يسير عليه أسلافنا متجهين بحكمة الدين وسنة الرسول ﷺ ، فالاسلام كما سبق القول لا يفصل بين الروح والجسد فى الانسان ، والسعى فى الدنيا والسعى للآخرة .

يتوجب على العلماء والمسلمين استعادة دورهم القيادى كرواد للحضارة الانسانية ، إذ عليهم أن يقوموا بدورهم الفعال فى تقويم السلوك البشرى وتهذيب الأخلاق ، وبذلك يمن أن نرجع إلى مجدنا التليد ، وأن نقف موقف العدل والاتزان بين التأمل والنظر من ناحية ، وبين العمل والتطبيق من ناحية أخرى .

ooo
oo
o

٢

٢ ـ تاريخ العلوم أهى عربية أم اسلامية ؟

شاع فى الآونة الأخيرة استحداث مادة اصطلاح « تاريخ العلوم عند العرب » كتخصص يدّرس فى المدارس والجامعات وطلبة العلم . .

ولا اعتراض على المادة العلمية فى حد ذاتها ، إذ هى تعين على الكشف عن حضارة الأمة الإسلامية منذ صدر الإسلام إلى عهد ابن خلدون وهو آخر المفكرين المسلمين الشوامخ والذى توفى عام ١٤٠٦ ميلادية .

كما أن دراستنا للعلوم المختلفة التى تدارسها العرب ، وأضافوا إليها الجديد والمبتكر والأصيل ، تحطم تلك المزاعم القائلة بأن العرب أصحاب عقلية تحليلية لا تعرف الانشاء والتركيب ، وإنما هم قوم خطابة وشعر وذلك راجع إلى طبيعتهم البدوية وإلى عقيدة التوحيد البسيط . .

هذا الزعم يكذبه ـ مما لاشك فيه ـ التفحص لانجازات العرب العلمية على مدى قرون طويلة متعاقبة ، فقد ازدهر العلم على ايديهم ، حتى إنه يمكن أن يقال ان القرون الوسطى المظلمة ، كانت مظلمة لأوروبا وحدها ، أما الأمة الإسلامية فكانت هذه القرون مشرقة بالنور والعلم والازدهار . .

إننا لا نعترض على تدريس مادة تاريخ العلوم عند العرب ، بل بالعكس نحن نريد أن يتوسع المسئولين عن ثقافة الأمة فى نشرها والتعرف إليها لتقف حائلا ضد التيارات الغازية التى تزعم أننا مقلدين لعلوم اليونان .

لكن الذى نعترض عليه هى ان توصف هذه الدراسة وصفا يبعدها عن الاسلام ، وأن هناك ثقافة عربية غير الثقافة الإسلامية ، برغم أن الأمة أمة إسلامية والمنهج إسلامى ، والغالبية العظمى للسكان من المسلمين .

يرى الذين يتبنون فكرة الاصطلاح العربى لتاريخ العلوم فى الأمة الإسلامية ، أن العلم عربى ولغته عربية ، وأما الفلسفة فإسلامية . فينتسب بذلك العلم إلى اللغة ، وتنتسب الفلسفة إلى الاسلام . .

ويرى آخرون إنه إذ اصطلحنا على تسمية تاريخ العلوم عند العرب باصطلاح آخر ، وهو تاريخ العلوم عند المسلمين . . لكان ذلك غير صحيح لأن لفظ « المسلمين » فى تاريخ العلوم يخرج النصارى واليهود والعجم والفرس وغيرهم والذين كان لهم نصيب غير يسير فى العلوم والتصانيف العربية ، ومن ناحية أخرى فإن لفظ « المسلمين » يستلزم البحث عما صنعه أهل الاسلام بلغات أخرى غير العربية وبذلك تخرج دراستنا عن موضوعها .

ويعلل هؤلاء وجوب تعميم اصطلاح « تاريخ العلوم عند العرب » لأن تصانيف العلماء العرب فى العلوم هى من أهم مصادر البحث .

ونرى أن ذلك الرأى مرفوض للأسباب الآتية :

١ ـ إنه لو كان التقدم العلمى لدى العرب سبق ظهور الاسلام لقلنا أن مصطلح تاريخ العلوم عند العرب صحيح لأنه يمثل حضارة مثلما نذكر حضارة اليونان القديمة أو غيرها من الحضارات سواء بسواء .

٢ ـ إن الحضارة الاسلامية تأسست على تعاليم الاسلام ، ومنهجه فى الفكر والسلوك والتطبيق ، وبذلك طبعت بطابع الاسلام فى العلوم والفنون والفكر الفلسفى ايضا . . .

٣ ـ إن وجود بعض المشتغلين بالعلم من أهل الكتاب لا يدعنا نفصل بين إنتاج العلماء فى الحقل الاسلامى . فقد عاش هؤلاء المشتغلون بالعلم فى ظل الحكم الاسلامى والتقاليد والأعراف الاسلامية وتابعوا المسلمين فى ثقافتهم وتدارسوا معهم العلوم النظرية والعملية ، ولولا البيئة الاسمية وسماحة الدين وتقديم كافة المعونات والمساعدات للمؤلفين والمترجمين والعلماء بسخاء ، وما تقدمت الابحاث فى مجالات العلوم النظرية .

٤ ـ إن العلماء سواء كانوا عربا أو عجما ، هم الذين انتجوا هذا التراث العلمى العظيم الذى انتهلت من منهله أوربا وأقامت عليه حضارتها الحديثة .

فالإسلام قد ربط بين الأفئدة والعقول ، ووحد بين الأبيض والأسود ، وجمع تحت حكمه الناس بظلال المساواة والعدل والاخاء سواء الذين دخلوا إلى الأسلام أو الذين بقوا على ملة آبائهم .

وقد تشربت القلوب والنفوس برحيق الاسلام العطر ، فانتج المجتهدون كل فى ناحية من نواحى الحياة فنونا وعلوما وصناعات بزوايها من قبلهم ونقلها عنهم من بعدهم . .

لذلك فإن من سخف القول أن يصطلح على أن حضارة المسلمين فى عصورها الزاهرة مقترنة بالعرب وحدهم ، وذلك عند استخدام اصطلاح يبعد تأثير العقيدة الدينية ويفصل بين الفكر الاسلامى والفكر العربى ، رغم أن الأخير ينبثق عنه ويأخذ منه ، فالعرب من أهل الحضر أو من البادية لم يكونوا يهتمون قبل الإسلام بالعلوم النظرية والعملية كما سبق الاشارة ، فكيف يتحول هؤلاء بعد ظهور الدعوة بقرن أو يزيد قليلا ، أصحاب منهج علمى ، ويخرجون على العالم كله بعلوم تطبيقية ، لم تكن تعرفها الحضارات السابقة ، فلقد انشأوا علم الجبر وأقاموا علم الحساب على أسس ميسرة وأصبحت المعادلات الصعبة سهلة ، وغدى علم الكمياء علما له أصوله ومنهجه التجريبى ، وأكتشف المسلمون موادا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ووضعوا الأسس لعلم البصريات ، واكتشفوا فى الطب الدورة الدموية وفى الموسيقى ألحان لم تعرف قبلهم ، وصنعوا الآلات الموسيقية الجديدة كالقانون والناى والبوق والبيان وغير ذلك كثير . .

فكيف يمكن القول بعد ذلك إن تاريخ العلم الاسلامى عربى وليس إسلاميا ، إن الذين يزعمون ذلك ، أما إنهم يتابعون بعض المستشرقين عن وعى أو بدون وعى ، وأما إن فى قلوبهم مرض يدفعهم إلى استبعاد كلمة الاسلام العليا من العلوم المختلفة وهذا هو الظلم الشديد . .

إن الحق هو الذى يبقى أما الزبد فيذهب جفاء ، فالاسلام هو المؤسس الحقيقى بلا منازع للحضارة الحديثة ، وقد استخلص الغربيون من الفكر

والعلم الإسلامى خلاصة علومهم التجريبية وعملوا على صقلها وبرعوا فيها عندما طبقوا تعاليم العلماء المسلمين الذين استقوها من آيات الله البينات ومن أخلاصهم فى العلم والعمل مقتدين بشخصية الرسول محمد ﷺ . .

ولا غرو أن نجد العلم الاسلامى شامخا عندما تتمسك الأمة بأمر الله وعلم الله ، ونجده سافرا عندما يتلهى المسلمون عن شريعتهم السمحاء ويتكالبون على المتاع الزائل ويقلدون غيرهم من الأمم فى أقوالهم وربما فى أفعالهم أيضا . .

الأجدر اذن ان نصطلح على تسمية تاريخ العلوم عند العرب بمصطلح إسلامى إلا وهو « تاريخ العلوم عند المسلمين » ، وهذا يقرب الشقة التى تبعدنا عن ديننا الحنيف وشريعتنا الغراء ، وبذلك نعرف أن أى تقدم للمسلمين فى الدنيا أو الآخرة إنما راجع فى البداية والنهاية إلى الدين القيم والشريعة السمحاء . . .

إن عظمة المسلمين إنما تكمن فى التمسك بضرورة الاعتماد على الدين فى الفكر والسلوك والحياة وبدون هذه الرابطة الوثيقة يضل المسلم فى صحراء الحياة ويفقد طريقه ويضيع ضياعا رخيصا . . .

علينا أن لا نلتفت إلى دعاوى المستشرقين ومزاعم المستغربين ، وإلا نسمع لتهاويل الشياطين الذين يفتنون الناس ليخرجوهم عن أمر دينهم .

علينا أن لا نلتفت إلى كل من يثبط الهمم ، ويدفع عن المسلمين ايمانهم بعقيدتهم وتراثهم واخلاقياتهم . . ويدفع بهم إلى مهاوى الاستغراب وذل الجمود والتقليد . .

ما أحوج المسلم الآن إلى العلماء الصادقين الذين يرسمون له طريقه الحق ويبصرونه بأمر دينه ودنياه . .

ooo
oo
o

٣

١ ـ الربـاط الوثيـق .

يتميز المجتمع الاسلامى فى عصوره الزاهرة ، باحتوائه للعلماء فى كل فرع من فروع المعارف الانسانية ، وقدرته على ربط الأفئدة والقلوب برباط وثيق ، إذ يجد الناس المساواة والعدل بين ضفافه ، كما يتحلى جموع العباد بالاخاء .

إن حضارة العرب نشأت مع الاسلام فلولا الاسلام ما قامت لها قائمة ، وهذا بخلاف حضارة اليونان والفرس والرومان فقد قامت قبل المسيحية ، ولما ظهر الاسلام بدأت تلكم الحضارات تتقلص ، ويبدأ التقدم مع إنتشار الاسلام حتى غطى بجناحيه أنحاء العالم واحتوى كل فكر وعلم وصناعة .

لقد كان لسماحة الدين القيم ، الأثر العظيم فى لجوء المؤلفين والمترجمين الأجانب إلى عواصم الأمة الاسلامية ، ليعيشوا بين أحضانها ، تتكفلهم بالرعاية والاهتمام وتسكب عليهم من عطفها وكرمها مما جعلهم يشعرون بانتسابهم لهذه الأمة ، وانتمائهم لترابها ، فأعطوا لها فى سخاء ، وعملوا بوفاء ، أخلصوا العلم فى صدق وولاء . . وتفتحت قرائحهم وتجددت دماؤهم فأخرجوا النفيس من الجواهر والجديد من اللالىء ، وهب نسيم الأمل فى كل قلب فظهرت الحضارة الاسلامية فى أبهى حالة لتغدق على العالم فى سخاء بكل فن وعلم وعمران . .

انه من العجب العجاب أن يتحول هؤلاء العرب بعد فترة قصيرة من العمر

إلى علماء أفذاذ ، صاغوا أصول المنهج العلمى وعملوا على تطبيقه فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تسقط فى ظلام العصور الوسطى الكئيبة .

يقول أحد المستشرقين المعاصرين :

« ظلت أوربا بعد المسيحية أكثر من سبعة عشر قرنا من الزمان إلى أن وصلت إلى حضارتها الحديثة ، أما العرب فلم يمض على ظهور الاسلام قرنين حتى غمرت حضارتهم العالم كله بكل علم وفن وفكر » .

لقد لعبت سماحة الاسلام الدور الأول فى نشوء التقدم والازدهار العالمى ، كما عمل المنهج الاسلامى فى الفكر والسلوك والحياة على ضمان حرية الانسان فلا عبودية إلا لله .

ونحن إذن نقرظ رأى هذا المستشرق على انصافه وذكره بأمانة للواقع التاريخى الحى ، إلا أننا نضيف إلى قوله فى هذا الصدد :

ولولا ظهور الحضارة الاسلامية لبقت أوربا إلى الآن على عهدها من التأخر والانحلال . .

ولولا الفتح الاسلامى وانغمار الأمم الأخرى تحت لوائه والاستفادة من مناهج المسلمين الحياتية والأخلاقية والعلمية . . ما حدث هذا التقدم المذهل فى الصناعات والتكنولوجيا الحديثة التى نأكل من ثمرتها الآن .

لقد فرض المسلمون أبان حضارتهم الزاهرة على الأمم الأخرى أن يسعوا فى الأرض ، وأن يستفيدوا من الموارد الطبيعية التى سخرها الله لتكون فى خدمتهم ، وعمدوا إلى البحث والتجربة فى سنن الله ليستكشفوا ما غمض من الأمور ويستجلوا الأشياء الخفية فى هذا العالم العريض .

ولقد ظفر المسلمون بكشوف علمية عظيمة فى مجالات مختلفة فى الفلك والهندسة والحساب والجبر والميكانيكا والطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والموسيقى ، أثروا بها عقل الانسان ، ونفعوا بها كل الناس .

ولم يتوان الغربيون عن إقتناص هذه الفرصة فوضعوا أيديهم على هذه الكنوز ، وبعثوا البعوث لإستجلاب كل نفيس من علم العرب وصناعتهم ، وقلدوهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا واقتبسوا من علومهم ماقدّر لهم أن يقتبسوه .

لكن المهم فى هذا كله أن الغربيين هضموا التراث الاسلامى فيما يتعلق بالعلوم التطبيقية والعملية ، ولم يتركوا فرعا من الفروع إلا ولجوه ، ولاشيئا فيه منفعة إلا وأستفادوا منه أو أخذوه . .

تعجب الأوربيون من حضارة المسلمين الزاهرة ونظروا ، إليهم نظرة التقدير والاحترام ، وبرغم الحروب الطاحنة التى حدثت بينهم ، إلا أنه كان أثناء فترات السلم يلتقى الأفراد ، وهنا يحدث التبادل والاستفادة والتأثير ، وكان المسلمون لا يبخلون ، وكان الأوربيون لا يتركون فرصة إلا ويستفيدوا منها ولا طريقة نافعة ـ استخدمها المسلمون ـ إلا وعمدوا إلى تطبيقها واقتباسها . .

والواقع أن المسلمين كانوا على قدر عظيم من التسامح فلم يقبضوا على اكتشافاتهم العلمية ، وتجاربهم فى شتى الفنون والعلوم ، بل على العكس من ذلك تماما ، منحوا ذلك عن طيب خاطر لكل من يطلبه بلا مقابل ، وذلك تمشيا مع أحكام الدين ، وسنة الرسول ﷺ ، من أنه يتوجب أن يكون العلم لخدمة ونفع الناس والعباد .

لكن هل يفعل الأوربيون ذلك ، وقد أمسكوا بناصية الحضارة والتقدم ؟ . . بالطبع لا . . فهم حريصون على أخفاء أسرار مستكشفاتهم وقد بخلوا بخلا شديدا فى أعطاء العرب بعض خبراتهم فى مجال العلوم العملية التى تقدموا فيها . . وأصبح كل همهم تقديم منتجاتهم المصنعة وأدواتهم المستحدثة فى صورة سلع تامة التصنيع فى مقابل عشرات الأضعاف من ثمنها الأصلى .

لقد استفاد الغربيون من الحضارة الاسلامية بلا مقابل دفعوه ، لكنهم عندما وصلوا إلى بعض التقدم فى مجال العلم والصناعة أصبح ذلك وقفا عليهم فقط .

ما أحوجنا إلى هضم ثقافة الغرب وما أحوجنا إلى التراث الاسلامى العظيم لاسترجاع كنوزه . . ثم أظهار ذلك فى صورة تقدم حضارى كى نعيد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة .

° ° °
° °
°

٣

٢ ـ أوهام المتأوربين .

تعيش الأمة الاسلامية فى هذه الحقبة من الزمان بين الوساوس والأوهام ، ويسود المجتمعات الاسلامية الظنون التى تصور أنه لا يمكن رجوع الأمة إلى سالف مجدها وعصور ازدهارها ، ولقد تملك الكثير من أبنائها القنوط واليأس من تبدل الحال . .

ويعيش المسلمون الحاضر فى غربة عن الاسلام وكأنهم قلة قليلة فى مجتمعاتهم التى تدين بالاسلام فى رسومه وليس فى معناه ومضمونه . .

ويعانى شباب الأمة وكهولها من أوهام ووساوس هى عبارة عن أفكار شاذة تجبرهم على القول بمزاعم ودعاوى ، مؤداها أنه ليس من المعقول فى عصر الحضارة والتقدم الذى تعيش فيه الدول الغربية الآن ، ليس من المعقول أن تقام الحدود القاسية كالجلد والرجم وقطع الأيدى . .

يزعمون أنه من الظلم للحضارة والتقدم الانسانى الرجوع إلى أسواق بيع الرقيق كما كان فى سالف الأيام .

ويواجه المؤمن بدينه واسلامه هذه الانتقادات والاعتراضات على تطبيق التشريع الاسلامى فى بلده ، ويقف ليواجه هذه التيارات العاتية المغرضة ، وقد اعترضه سيل من الانتقادات ووابل من القذائف التى لا تنقطع ، وهو وحيد فى الساحة لا يجد من يناصره للدفاع عن دينه وعقيدته .

والغريب أن الذين ينتقدونه فى قسوة وشدة أفراد من المسلمين من الطبقات المثقفة ثقافة أوربية ، بالإضافة إلى الأجانب من غير المسلمين ، الذين يطعنون من الخلف ، ويحقدون على الاسلام والمسلمين . .

وإذا ما تركنا الأجانب وغير المسلمين جانبا واهتممنا بالمتأوروبين وخيالاتهم وإرهاصاتهم ووساوسهم عن الاسلام ، لوجدنا عند مناقشتهم أنهم لا يعلمون عن الاسلام شيئا ، ذلك لأن الدعوة الاسلامية فى عصرنا الحاضر غريبة ، وكأنهم يسمعون عن الاسلام وتشريعاته لأول مرة . .

ومن طبيعة الإنسان أن يخاف المجهول ، فإذا سمع بشىء جديد توجس منه ، وساورته حوله الشكوك ، وضروب من الأوهام والوساوس ، ولا يزداد بعد معرفته إلا توجسا ووحشة .

إن المسلمين فى هذا العصر فى كثير من المجتمعات التى تدين بالاسلام لا يعرفون عن الدين شيئا ، فهم يجهلون تراث آبائهم وأمجادهم وعصور حضارتهم الزاهرة ، وقد امتلكتهم أراجيف صدقوها ، وأكاذيب توهموها ، وهلع شديد اعترى قلوبهم ، ويزداد الأمر سوءا كلما طالب المخلصون بتطبيق حكم الاسلام وتشريعاته فى مجتمع من المجتمعات الاسلامية .

تقوم الدنيا وتقعد « ويهاجم المهاجمون من ينادى بتطبيق شريعة الله ويتهمونه بالرجعية والجمود ، والتقاعس عن المشاركة فى التقدم والحضارة الأوربية . .

لقد سقط المسلمون لعدة قرون تحت أثقال الانحطاط والارتكاس والتقهقر المتصل ، وتجمد النمو فى العلوم والفنون ، وتعطل عندهم الأخذ بأسباب الحضارة واستخدام طاقاتهم العقلية والبشرية لعديد من السنين . .

استولى الوهم على أمتنا نتيجة الجمود فاستطاع ، الأوربيون أن يستعبدوا المجتمعات الإسلامية ، وأن يفرضوا عليها قوانينهم وأنظمتهم ومناهجهم الحياتية وأحاطت بهم الهزيمة من كل جانب . .

ولما استقلت أكثر المجتمعات الاسلامية حديثا ، لم تستطع حتى الآن النهوض بمفردها بل اعتمدت فى ذلك على المدنية الغربية الجديدة ومازالت تأخذ بعلومها وآدابها ، وتستعين بأسبابها ووسائلها .

ويمكن أن يقال أننا الآن فى فترة انتقال نحاول فيها أن ننفض عن كاهل أمتنا الاسلامية الغبار الذى علق بجسمها ومازال يحتاج منا إلى التطهر والتنظيف . .

وأحوج ما نحتاج إليه الآن هو أن نطمئن القيادات والنزعات القلقة المتوحشة من تطبيق التشريع الاسلامى ، علينا أن نوجه عيونها وقلوبها إلى نظام الحياة فى الاسلام ، ونبين لهم إلى أى حد هو نظام متكامل فى كل ميدان من ميادين الحياة المختلفة ، وأنه قادر على اثبات وجوده وتفوقه على جميع الأنظمة والقوانين الوضعية . .

كما أنه علينا أن نبين لهم أن الاسلام لا يشجب الأخذ بالتقدم العمرانى والتكنولوجى فى الدول التى سبقتنا إلى الحضارة المادية ، إنما يجب علينا أن نتوخى الحذر ، وأن نزن كل ما نلتقطه بميزان عدل ، فنرفض الغش فيه الذى يخالف ديننا وأخلاقنا ، ونأخذ بالثمن الذى يتوافق مع مفاهيمنا وقيمنا الحياتية .

ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا ترك المشتغلون بالدين الخمول والتبطل والانعزال ، وشاركوا فى الحياة العامة مشاركة فعالة ، وبدأوا فى تطبيق الفكر الاسلامى فى ميادين الحياة العملية ، حيث يمكن أن تتغير النظرة إلى الاسلام بما هو جدير به من إجلال واحترام .

ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا نشط المسلمون فى كل مجتمع من المجتمعات التى تخضع للأنظمة اللادينية ، والقوانين الوضعية والتى ألغيت فى بعضها الشريعة الاسلامية الغاء تاما ولم يبق فى بعضها الآخر إلا قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية . .

لقد أصبح المسلمون فى بلادهم غرباء « لا يتمتعون بأكثر مما كان يتمتع به ناقص ـ الاهلية الذى تحت لواء الاسلام ـ من حقوق وواجبات . وفى بلاد اسلامية تنادى بالاستقلال والحرية ثم تجاهد من أجل ذلك ، وتحسب انها ستطبق التشريع الاسلامى عندما يتولى أبناؤها الحكم ، إلا اننا نفاجىء بمسايرة القوانين الوضعية والتزود بالأنظمة الغربية ، بدعوى أن ذلك يوصل هذه المجتمعات إلى التقدم والرفاهية ، وكان هذه الدول لم تأخذ استقلالها ، ولم تحصل على حقوقها وكأن جهادها فى سبيل الحرية كان لغوا وكلاما . .

ويرجع السبب فى ذلك إلى القائمين بقيادة هذه المجتمعات ، إذ قد شبوا منذ نعومة أظافرهم بعيدا عن روح الاسلام وعقيدته ، وقد تثقفوا بالثقافة الغربية والفكر الأوربى ، وأصبح من الصعوبة بمكان أن يقتنعوا بتطبيق التشريع الإسلامى الذى يجهلونه ، وربما عادوه ، وأرادوا التعويض به ، وحملوا على الداعين له .

إن هذه المشكلة من أعسر المشاكل التى تمر بها الأمة الاسلامية ، حتى أصبح من الصعوبة بمكان إقامة التشريع الاسلامى وتنفيذ نظامه .

ومادمنا لا نعرف نظام الحياة الأساسى فى الاسلام ، ومادمنا لا نعرف الجزء الهام منه وهو الذى يتعلق بالشكل القانونى والتطبيقى ، وإنما نعلم فحسب بعض الاشاعات عن بعض جوانبه ، فسنظل فى هذه الأوهام والوساوس لفترة أخري من الزمان . .

إن مصادر التشريع فى الاسلام القرآن والسنة ، وهما ميدان للتطبيق لا يحتاجان إلى كثير من عناء أو جهد ، إنما يحتاجان فقط إلى قلب سليم ونفس مستقيمة وعقل رشيد . .

فالإسلام دين الفطرة واليسر ، فلا يحمل فى طياته عسر أو صعوبة فى التطبيق ، فهو يشجب جميع صور العدوان وأساليب الظلم والعبودية والاستغلال ، وينفر من المعاصى والرذائل ، وهذا بطبيعة الحال يجعله يواكب الفطر السليمة التى تنشد الأمن والسكينة والطمأنينة .

إن الإسلام هو تسليم لله ، ليس جبرا ولا كرها وإنما طواعية وحبا لله تعالى ، فمن اقتنع به وصح إيمانه ، قدم لنفسه الخير ، وجعل الكتاب والسنة أمامه فى هذه الحياة ، وشهد أنه الحق من عند ربهٔ ، وأن عليه أن يتجرد بالكلية من حرية نفسه ، ويسترسل مع الله عز وجل . فالاسلام هو إستبدال لحكم النفس بحكم الله ، والمسلم هو المستسلم المتجرد عن حرية نفسه والملتزم بالقرآن وأوامره ونواهيه .

فإذا صفت النفوس وسلمت القلوب وتطهرت العقول من الكبر والتجبر والاغترار ، فلن تجد ملجأ لها غير الله ، ستجد حقا وصدقا ان قواعد الاسلام ونظامه الأساسى سهل ميسور فى الفكر والسلوك والتطبيق ، فما أحوج الناس

فى هذا الزمان إلى الدعوة لله لتنعم النفوس القلقة والقلوب الخائفة بالامن والسكينة والسلام .

ooo
oo
o

٣

٣ - تشويه الحقيقة .

هناك الكثير من التشويه لحقائق التاريخ ، وأكثر التشويهات تنصب على العلم والعلماء المسلمين ، ويجد الباحث صعوبة لتتبع آثار عالم من علماء من المسلمين ، إذ يجد الكثير من الغموض والتشويه يحف بحياته ، حتى يمكن أن يقال أنه لم يسلم من هذا التشويه أى عالم مسلم ، أسدى إلى العلم والانسانية ماهو نافع ومفيد ، وعاش حياته لله مخلصاً للعلم .

فكم من الحقائق لم تذكر عن علماء العرب والمسلمين ، وكم من حقائق لم تذكر علومهم واكتشافاتهم ، وكم من حقائق نسبت إلى غيرهم كذبا وظلما ، وكم من حقائق أخذت على غير حقيقتها ليسيء بها إلى الاسلام والمسلمين .

كم من اكتشافات واختراعات وأبداع فنى ، وكم من طرائف جديدة وفكر ثمينة نسبت إلى غير المسلمين وتشهد الحقيقة أن العلماء المسلمين هم الذين وضعوا البصمات الأخيرة على هذه الاكتشافات والاختراعات .

كم من تلاعب مقصود طرأ على التراث الاسلامى ، فجعل شباب الأمة المسلم يتشكك فى عقله وعلمه وحياته جميعا .

يكتب الكثير من المؤرخين الغربيين عن شخصيات اسلامية وعلماء مسلمين . . لكنهم يكتبون لا لإنصافهم ، وقد لمعوا فى بعض العلوم ، إنما يكتبون بهدف التقليل من شأنهم ، أنهم يكتبون عنهم لا يبتغون وجه الحقيقة

وحتى لا يكتشف القارىء تعصبهم وتحيزهم ضد الاسلام والمسلمين ، يظهرون بعض لمعانهم فى فروع ، ثم يأتون بما يطفىء هذا اللمعان ، يركزون على بعض الفروع الجزئية فى هذه الشخصيات اللامعة ، ثم يهملون أجزاء هامة من انتاجهم العلمى ، فلا يذكرونها من قريب أو بعيد .

لاشك أن إعادة تاريخ حياة العلماء المسلمين ضرورة ما بعدها ضرورة ، إذ أن كثيرا من ترجمات الغربيين والأوربيين عن حياة علمائنا تنقصنها الأمانة والدقة والحقيقة .

إن ما نقرأه أحيانا عن ابن باجة « بأنه اشتهر بهوسة وجحود واشتغاله بسفاسف الأمور . . وأنه احتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه . . ونسى هذا المؤرخ ماقدمه ابن باجة من فلسفة أخلاقية وتميزه بفكر خصب عظيم أثر فى العلوم العقلية والرياضيات والطبيعات وقد تأثر به فيما بعد الفيلسوف الألمانى كانط Kant وسار على فلسفته .

لقد أغفل المؤرخون من حياة الخيام ٥١٥ هجرية فضله فى الرياضيات والفلك ، ولم يعرف إلا أنه شاعر وأديب وأنه صاحب الرباعيات المعروفة . ونسى المؤرخون أنه كان من أعظم فلكى عصره ، ومن كبار فحول رياضى زمانه ، وأنه أسدى خدمات عظيمة للفلك والرياضيات .

والشيخ الرئيس ابن سينا يشتهر عنه تأليفه فى الطب والفلسفة ، والقليل من الناس يعرف أنه الرياضى النابغة والطبيعى العظيم ، وأن له جولات وصولات فى الفيزياء وبحوث مبتكرة فى الطبيعيات ، كما قدم أبحاثا رائعة فى مجال العلوم المختلفة وخاصة العلوم الرياضية .

وإذا قرأت دائرة المعارف الإسلامية (١٧) مثلا تجد ترجمة لحياة العالم العربى العظيم ابن يونس ، وتجد أن الكاتب قد أهمل ذكر ابن يونس باعتباره مخترع الرقاص « بندول الساعة » وهو من أعظم الاكتشافات العلمية التى استفادت ومازال الانسانية تستفيد إلى الآن من هذا الاختراع العظيم الكثير بل الكثير جدا .

---

(١٧) قسم التراجم .

التلاميذ والاساتذة :

يحدثنا التاريخ أن الأندلس الأسلامية وقد وصلت لقمة مجدها وقوتها وتقدمها العلمى والفكرى ، أصبحت القبلة الوحيدة التى أتجه إليها التلاميذ من طلاب العلم من كل مكان فى العالم للتزود بالعلوم الأسلامية النظرية والعملية .

لقد قصد الأندلس الباحثون عن العلم والمعرفة وتحدثنا النصوص أن جربرت « راهب أرفون » الذى أصبح « بابا » فيما بعد باسم سليفستر الثانى ٩٩٩ - ١٠٠٣ م قد قدم إلى أسبانيا لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية وأنه كان ناجحا فى تحصيله واستيعابه لها ، وعندما عاد إلى قومه وقد تزود بقدر عظيم من علوم المسلمين . . اعتبره قومه ساحرا مشعوذا [١٨] .

لقد أظهر العلما المسلمون فى أسبانيا تفوق عظيما على علماء اليونان والرومان القدماء، بزوهم فى مجالات العلوم المختلفة ، وطوروا ماوصلت إليهم من الأمم السابقة وأضافوا إضافات عظيمة فى مجالات الطب والهندسة والحساب والطبيعة والكمياء وغيرها .

يكفى أن نقول أنه كان بقرطبة أكثر من سبعين مكتبة علمية تغص بالكتب النادرة والهامة فى كل فروع العلم المختلفة [١٩] .

لقد كان الكثير من الرهبان الذين صاروا باباوات فيما بعد قد درسوا فى جامعة موتبليه فى جنوب فرنسا على أيدى اساتذة من العرب ، ولم يكن الأمر قاصراً على جنسيات بعينها ، بل ذهبت بعض المصادر إلى أن شارلمان نفسه كان قد أرسل فى طفولته إلى أسبانيا ليتعلم ويحصل على العلم على يد العلماء المسلمين هناك [٢٠] .

لقد أبدى عديد من المنصفين الأوربيين من مؤرخى القرن التاسع عشر الميلادى أعجابهم الشديد بما آلت أسبانيا الاسلامية إليه ، وأشادوا بالمستوى

(١٨) راجع دولة الفرنجة وعلاقتها بالأموين فى الأندلس . د . محمد محمد موسى الشيخ ١٩٨١ .

(١٩) Davis : opeit P 178

(٢٠) Reinond : op cit. P. 238

الرفيع الذى بلغوه فى عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة ، وبينوا القدرات العلمية والسياسية العالية التى تمتعت بها حكومة ومجتمع قرطبة ، الأمر الذى يضع هذا القطر الاسلامى فى مقدمة أقطار الدنيا علميا وثقافيا وسياسيا فى هذه العصور [٢١] أى (١٣٨ هـ - ٣٦٦ هـ) .

ولقد اتفق المؤرخون على أن قرطبة قد بلغت شأوا عظيما من التقدم فى هذا العصر ، ووصلت إلى درجة من المهابة والعظمة والمجد ، حتى أصبحت محط أنظار العالم ، وملتقى العلماء والطلاب ، ومركز للعلوم والمعارف والصنائع والسياسة .

وفى الوقت نفسه كانت أوربا المسيحية مأخوذة بعظمة قرطبة ، لاسيما فى عهد عبدالرحمن الناصر ، وكانت مقصد لجميع سفراء الملوك والأباطرة وكافة السلطات [٢٢] .

راسل عبدالرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١ م) البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاط الصقالية .

واعتبر الملوك المسيحيون انه لمن دواعى الشرف العظيم أن يبسط الخليفة يده إلى السفراء الأجانب ليقبلونها ، وذلك لجلالة قدره عندهم ، وعظمة منزلته ، وقد كان يكرمهم ويظهر عظمة الخلافة الاسلامية أمامهم .

قارن بعض المؤرخين بين ما حققته قرطبة من مجد ورفعة وسؤدد وما تميزت به فى هذه العصور من مظاهر الابهة والعظمة ، وبين مدن الغرب المتخلفة ، وشعوبها المتردية فى اطناب الجهل والأضمحلال [٢٣] .

فبينما كانت تتزين قرطبة بالقصور والأواوين والسقائف والحمامات والأبنية والمتنزهات والحدائق العامة وغير ذلك . كان السكسون فى غرب أوربا لايزالون يعيشون فى أكواخ خشبية ويخوضون فى أواحل وطين .

---

(٢١) دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، دكتور محمد محمد مرسى الشيخ .

(٢٢) المقرى . نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٣ .

Reinaud — op. cit P. 176

وبينما كانت اللغات الأوربية تمر بمحنة ويقتصر استعمالها كتابة وقراءة على بعض الأديرة ، كانت اللغة العربية والحضارة الاسلامية فى العلوم والفنون فى أسبانيا المسلمة ، بعامة وقرطبة بخاصة لها الصدارة التامة .

ويكفى أن تكون قرطبة أحدى المدن المعدودة فى العالم التى يقصدها المبعوثون من كافة انحاء المعمورة ، إذ كانت بها أكثر من سبعين مكتبة علمية ونحو سبعمائة عام عمومى .

أليس ذلك كله يعتبر دليلا دامغا على عظمة العقلية الاسلامية وعلو كعب علماء الأمة فى مختلف الفنون والعلوم .

أليس ذلك كافيا ليثير حماس شبابنا لليقظة بعد ذلك السبات العميق ، لحمل مشاعل الحضارة إلى مستقبل مشرق سعيد . . .

وإن غدا لناظره قريب ؛

الخاتمة

لا يسعنا الآن بعد أن قدمنا شذرات يسيرة من تراث المسلمين الفكرى والعلمى . . إلا أن نقف اجلالا واعتزازا بما قاموا به من أعمال عظيمة كانت السبب المباشر لتقدم الانسان نحو حياة أيسر ، فلولاهم ماعرفت التقنية ولا وصل العلماء المحدثون إلى حضارة القرن العشرين . .

بيد إنه لايخفى علينا بحال من الأحوال أن الحضارة الغربية الحديثة قد استقطبت علوم المسلمين وتوصلت بفضلها إلى اكتشافات جديدة ، ومخترعات حديثة الأمر الذى جعل من دولها الفقيرة دولا غنية ، ومن شعوبها الضعيفة شعوبا قوية معتزة بنفسها واثقة فى ذاتها .

إلا أن الحضارة الغربية لم تستطع أن تنفذ إلى روح التراث الإسلامى ، ولم تستطع أن تتعرف على سر حضارة المسلمين ، إذ المقلد يستطيع أن يقلد المادى والملموس والمحسوس فحسب ، وهذا ما نجحت الدول الغربية فى تقليده ، ثم تطويره والتقدم فيه بخطوات رائدة . .

أما الجانب الروحى من الحضارة الاسلامية التليدة فلم تستطع أن تقلده أو تلمسه ، إذ أن هذا الجانب غير ظاهر العيان ، وبذلك لم تنجح إلى الآن فى العثور على القيم والمفاهيم والمثل العليا ، التى كانت تحرك ضمير الأمة الإسلامية إبان حضارتها الزاهرة ، التى استمرت قرونا عديدة . .

إننا نستطيع أن نرسل بشبابنا للتدريب على الأجهزة الحديثة بل ودراسة التكنولوجيا الحديثة والتخصص فى العلوم العلمية والتطبيقية ، وربما يبذ شبابنا فى هذا المضمار غيره من الشباب الغربى ، ويلتقطوا أصول هذه العلوم والفنون والصناعات بسرعة مذهلة .

لكنه من المؤكد أن أوربا لا تسطيع أن ترسل لفيف من شبابها لتعلم القيم ومكارم الأخلاق ، وإلا أستفادت من القيم والمفاهيم الإسلامية إبان حضارة المسلمين فى الأندلس . ولكان التقدم المادى الأوربى فى العصر الحديث متوازياً جنبا إلى جنب مع التقدم الروحى . . .

لم تغنم الحضارة الغربية إذن من حضارة المسلمين إلا الجانب المادى فحسب ، أما الجانب الروحى من تلك الحضارة فقد طواه الزمان ، فلم يستفد منه أحد على الاطلاق سواء كان من الغربيين أو المسلمين .

فهل يمكن أن نفتش باعتبارنا من المسلمين على هذا الجانب الروحى من حضارتنا الاسلامية التليدة ونحن أولى من غيرنا ؟ وهل يمكن أن ننزع عن تراثنا التراب ، ونكتشف فصوصه النادرة ، ونسعى لنجعله قدوتنا فى حياتنا الراهنة ؟ . .

إن الجانب المادى من الحضارة الغربية يمكن أن نستفيد منه . فنحن فى أمس الحاجة لاستخدام التقنية وتطوير مجتمعاتنا باستخدام الوسائل والأساليب الحديثة التى سبقنا الغرب اليها . .

لكنا يجب أن لا نغفل عن الجانب الذى نفتقده نحن كما يفتقده العرب حتى الآن وهو الجانب الروحى ، والذى به تتكون ذاتية الأمة وتحدد مفاهيمها واخلاقياتها ومثلها العليا . .

من الصعب على الحضارة الغربية أن تنفذ إليه . مهما استخدمت من الوسائل والتجارب ، إلا أنه سهل ميسور حيث أنه صادر من الينبوع الذى لا ينضب وهو كتاب الله الكريم وسنة رسوله الأمين . .

إننا لن نبذل جهدا كبيرا فى الوصول إلى سر التقدم المذهل للمسلمين إبان حضارتهم الزاهرة ، إذ كان رائدنا حقا التمسك باهداب الدين والعمل بشريعة الله . .

إن سر تقدم المسلمين إنما هو تطبيقهم لشريعة الله ، والعمل بها ظاهرا وباطنا ، ومتى كان حكم الله قائما وجد التحضر والرخاء ، ومتى بطل العمل بحكم الله وأصبح الاسلام مسافراً ، وجد التآخر والانحلال والمجاعات . .

فسر نجاح العلماء المسلمين يكمن فى تمسكهم بحكمة الدين ، وسعيهم من أجل البحث عن الحق والحقيقة . . فعلومهم كانت مقترنة بالشريعة ، وفكرهم كان هديه القرآن الكريم ، فلم تتفرق بهم السبل ، ولم يتفرقوا شيعا واحزابا يخاصم بعضهم بعضا ، فى سبيل تحقيق المنافع الذاتية والمصالح الأنانية ، إنما كان رائد المسلمين ، رفع كلمة لا إله إلا الله فوق الأعناق ، ومن

هنا كان التعاون والمحبة والأخوة ، ومن هنا كان التقدم والعمران . . فأصبحوا بعد قرنين من الزمان أقوى امبراطورية عرفها التاريخ قديما وحديثا . .

وعندما انقسموا وأختلفوا وتنازعوا ، وركنوا إلى الملذات وأتبعوا الأهواء . . . سقطوا فى مهاوى الظلمة وابتعد عنهم العون الالهى . . . فوقعوا فى الجهل والفقر والأوبئة والمذلة . .

احتاجوا إلى غيرهم من الأقوياء الأغنياء ، استذلوا لغيرهم وكانوا من قبل يخشاهم القريب والبعيد . . ويخطب ودهم الأمير والعظيم من الفرنجة والروم والأكاسرة . .

فهل يعلم المسلمون أن سر كبوتهم بعدهم عن هدى الدين ، وهل يعلم المسلمون أن سر قوتهم يكمن فى تمسكهم بأهداب الدين . . ومتى تحقق للمسلمين عزة التمسك بأهداب الدين ، فسيكون من السهل الميسور الأخذ بأسباب الحضارة المادية التى يفتقرون إليها . .

المراجع

ابن القيم الجوزية	الطب النبوى (تحقيق د . عبدالمعطى القلعجى)
	زاد المعاد
ابن سينا	القانون
أبو الأعلى المودودى	أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام
	مبادىء أساسية لفهم القرآن
أبو حامد الغزالى	أحياء علوم الدين ج ٨ (كتاب الشعب)
أبو طالب المكى	قوت القلوب ج ١ ، ٢
المسعودى	مروج الذهب
د . أحمد فؤاد الأهوانى	الكندى فيلسوف العرب (اعلام العرب العدد ٢٦)
جوستاف لوبون	حضارة العرب (ترجمة عادل : زعيتر)
د . جلال محمد موسى	منهج البحث العلمى عند العرب
حاجى خليفة	كشف الظنون
زكريا يوسف	مؤلفات الكندى الموسيقية
د . سامى حمارنة	أبو الفرج بن القف
طاش كيرى زاده	مفتاح السعادة ومصباح السيادة
عبدالعزيز جاويش	الاسلام دين الفطرة
د . على سامى النشار	منهج البحث عند مفكرى الاسلام
فيليب حتى	صانعوا التاريخ العربى (ترجمة أنيس فريحة)
د . قدرى حافظ طوقان	تراث العرب العلمى
ماكس مايرهوف	التراث اليونانى (ترجمة عبدالحميد بدوى)
د . محمد عبدالرحمن مرحبا	الموجز فى تاريخ العلوم عند العرب
د . محمد على أبو ريان	تاريخ الفكر الفلسفى
د . محمد غلاب	هذا هو الاسلام
د . محمد محمد مرسى الشيخ	دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس
موريس بوكاى	دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة
وحيد الدين خان	المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل
ول ديورانت	قصة الحضارة

مراجع للمؤلف
نحو منهج علمى إسلامى
نحو علم نفس إسلامى
الكوكب الشاهق للشعرانى (تحقيق)

مراجع أجنبية — 1 — Edward Mcnall Burns. Western Civilization.
2 — Reinond. op cit.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع

المركز الإسلامي للطباعة
٤٣٢ شارع الأهرام . ت : ٨٥٠٠٥٢